الأشياء تأتي متأخرة
قصص قصيرة

عادل الأسطة

٢٠٠٩

تلك القدس ... ذلك السبت
وقصص قديمة أخرى

أ.د. عادل الأسطة

الوجه الجميل والبناية

لو قص محمد العبد الله عليكم ما كان رآه لقلتم: لعله الزمن ترك علامات أقرب إلى الجنون منها إلى أي شيء آخر على هذا السوداوي المدعو محمد العبد الله، الذي أراد أن يبث اليأس في قلوب الآخرين لأنه عاني من احباطات متتالية. والحقيقة أن محمد العبد الله الذي سكن في أحياء فقيرة أعواماً طوالاً، ثم انتقل قبل عام ليسكن في حي راق من أحياء نابلس لم يكن ليختلف كثيراً عن الآخرين في إصدار الحكم نفسه لو أن شخصاً ما قص عليه الحكاية ذاتها.

ولقد تردد محمد العبد الله في البداية، ولام نفسه التي راودته على إخبار الآخرين بالحكاية، فمحمد العبد الله هذا لم يكن من قبل يكتم سراً تماماً مثل والده الذي كان يبدو وكأنه محطة إذاعة للبث المباشر، وكثيرون من معارفه كانوا قد ابتعدوا عنه لخصلته هذه، وكان محمد يدرك ذلك وحين تذكر عظم ما رآه وغرابته قال مخاطباً نفسه:

- لا بد من كتمان السر وإلا فألف لعنة ستحل بي.

وأضاف:

- يجب اعتبار ما رؤي وكأنه لم ير.

بل ولقد أصر على كتمان الأمر حين فكر جدياً بالمرحلة التي يحياها شعبه الفلسطيني وخاف على نفسه إن حاول أن يقص ما رأى، ولم يكن خائفاً من السجن بقدر ما كان خائفاً من الاتهامات التي ستوجه إليه من جهات ما من أبناء قومه ممن يقولون إنهم يعملون لصالح الوطن، فكيف إذا كان حديثه يتعلق بواحد منهم كما عرف فيما بعد.

وهمس في سره:

- يا ولد مالك وللأمر. هنالك من هم أعلى منك وأشهر، فدعها تخرج من أفواههم وهم لا شك يرون ما رأيت، ويعلمون ما تعلم ويصلهم الكثير الكثير، فان كنت تعرف قصة، فهم يعرفون قصصاً، كما أن الوجه الجميل إليهم أقرب، وهم به أعرف.

وتابع محمد العبد حواره مع ذاته مقنعاً إياها بكتمان السر.

- إن الثرثرة لا تجدي والبون شاسع بين ما ستقوله وبين ما سيقوله الآخرون ومنهم صاحب الوجه الجميل. فلقد دفع صاحب الوجه الجميل دمه ثمناً، ولا شك أن كلمته مسموعة، وإن لم تكن كذلك فلا رد الله الدنيا حين تتداعى أركانها، وتابع محمد العبد الله.

- وأنت .. من أنت؟ عبد فقير .. كثير الحزن .. دائم الشكوى .. فاقد الأمل.

غير أن محمد العبد الله تراجع عن قراره وقرر أن يقص ما رأى على الرغم من أنه ليس قصاصاً ماهراً، ولقد كان سبب إصراره، رؤيته المتكررة للوجه الجميل، مصراً على قول شيء ما من خلال محمد العبد الله. ومما حدا أيضاً به إلى قص ما رأى أن الوجه الجميل كان يوميء له بحركات يشعر معها محمد وكأنه ملوم تارة، أو كأنه جبان طوراً .. أو هكذا يخيل إليه .. وفي فترات لاحقة كانت تعابير الوجه الجميل، كما قال محمد العبد الله، فيما بعد، تتهمه بالخيانة.

ولقد قال محمد العبد الله في البداية: جبان جبان، وتابع ومن الشجاع فينا سوى أولئك الذين حملوا أرواحهم على أكفهم وساروا باتجاه الوطن. وأضاف: ومن الشجاع فينا سوى أولئك الذين ضحوا...

ولكن محمد حين تصور أنه خائن، كما أوحت إليه تعابير الوجه الجميل في فترة متأخرة، قرر بلا تراجع، وأعلن أنه سيقص الحكاية، حتى ولو كلفه ذلك حياته، أنه رأى أن في اتهامه بالجنون أمراً طبيعياً من منطلق يقول أن من يتهم بالجنون في أيامنا هذه هو العاقل بعينه، ذلك أنه ليس سوى الإنسان الذي أدرك الحقيقة كلها ولم يستطع أن يعيش كالبهائم، ولو فعل وعاش كالبهائم لما اتهم بالجنون، وسيقال عنه ساعتها أنه عاقل ومؤدب، وواقعي، ومتزن.

كما رأى محمد العبد الله في اتهامه بالجنون ما لا يعيبه، وبرر ذلك بعدة مبررات منها أن بنيته الجسمانية خلقت ضعيفة هكذا، ومنها أن والده كان يطلب منه دائماً أن لا يتدخل في الآخرين، وأن يقابل الإساءة بالإحسان، وأن يدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن، ومنها أن معلمه كان يطلب منه أن لا يعاشر الطلاب المشاكسين، ثم نظر محمد العبد الله في من حوله وضحك قائلاً بصوت مرتفع:

- ومن الشجاع فينا، فها نحن نموت، وها نحن نطرد، وها نحن نجوع، وها هو رؤوف الرافع ذو الجثة الضخمة الذي كان ينازل أربعة أشخاص ويفتخر بأنه يقاتل عشرة

يقلع ثيابه على مرأى الكثيرين، حين أمره أحد حرس الحدود، بل وذهب إلى أبعد من ذلك، فها هم عربه كلهم يستجدون من الآخرين أن يتدخلوا من أجل مد عاصمة من عواصمهم بالماء والكهرباء.

لكن محمد العبد الله استكثر على نفسه أن يكون خائناً، فهو واحد من الذين رفضوا في البداية حمل الهوية الإسرائيلية، وهو واحد من الذين يشعرون بالغثيان حين يقرأون اسماً حروفه أجنبية، وهو واحد من الذين طالبوا رجال الدين بإصدار حكم قاس يعتبر الذين يتعاملون مع عدوهم من ذوي الكبائر، بل من المشركين، فكيف إذن يتهم بالخيانة؟ لقد بدا له هذا الاتهام أمراً خطيراً، وأقسى وأمر من حبل المشنقة. وقال هامساً:

- لعنه الله إذن علي لو كنت كذلك. إنني لن أعدو أن أكون ساعتها سوى دابة تعدو، بل لعل الدابة أفضل مني، وإن لم تكن أفضل فهي على الأقل لا تؤذي الآخرين.

لقد ازدادت قناعته في قص ما رأى حين تكرر حدوث الشيء غير مرة، ولقد فكر ذات مرة أن يصطحب شخصاً ما معه ليرى ما يرى، غير أنه تراجع حين خطر بباله أن الوجه الجميل لا يظهر حين يرى شخصاً آخر، وبدأ يفكر: على من أولا سأقص الرؤية.

بدأ يتذكر أصدقاءه المقربين ليخبرهم أولا وليستمع إلى رأيهم، فأن شجعوه على ذلك، فسيستمر في قص ما رأى، بل وسيذهب أبعد من ذلك، إذ رأى أنه سيكتب الحكاية وينشرها في الصحافة، غير آبه برأي واحد من أصدقائه، يكرر دائماً على مسمعه عبارة أن الناس في بلادنا لا يقرأون، وأنهم يسخرون من الشعراء والقصاصين وعامة الأدباء، ويتهمونهم بأنهم خياليون يرفضون الانعتاق من مرحلة الطفولة. وكان صديقه الفنان التشكيلي أول من استمع إلى الحكاية وأعجب بها أيما إعجاب، إذ أدرك للوهلة الأولى المغزى الذي تذهب إليه، وأنه كان يحث الآخرين على الكتابة في هذا الموضوع، غير أنهم كانوا هيابين. ثم حين قصها على صديق له يعمل في الصحافة طلب منه أن يكتبها على شكل مقالة وينشرها بسرعة.

وإذ دهش محمد العبد الله قائلاً:

- وهل تنشرونها في صحيفتكم؟

أجابه الصحفي:

- بالتأكيد.

ولقد فرح محمد العبد الله كثيراً، فالصحافة كثيراً ما تحتاط في نشر رؤى غريبة في مرحلة نحتاج فيها إلى التفسيرات العقلية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ترى الصحافة في الرؤية ما يناقض خطها السياسي أو الفكري.

ولقد ازداد إصرار محمد العبد الله على قص الحكاية حين شجعه آخرون، ممن لا يشك في أمرهم.

هل ما أراه يحدث فعلاً؟

سأل محمد العبد نفسه وترك المجال لمخيلته:

- عليك السلام يا رسول الله يا حبيبي يا رسول الله هل هذا هو الزمن؟ قل أعوذ برب الناس، ملك الناس إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس. هل هذا هو الزمن؟ هل يصيح الحجر؟ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، هل يصيح الحجر؟ ولكن أين شجر الغرقد.

ونظر محمد العبد الله حوله فلم يجد شجر الغرقد، واسترجع ما كان سمعه قبل عام، حين كان في بلد عربي قريب، ثم عاود النظر:

- ولكن أين شجر الغرقد؟ لعلي لا أعرفه. لقد جبت هذا الوطن من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، فلم أعثر عليه. قلت: الذي أخبر العرب هناك كذب عليهم. لعله أراد أن يبث الأمل في نفوسهم في زمن الهزائم. وهل يصيح الحجر؟

وظل الوجوم مسيطراً على ملامح محمد العبد الله. فلقد ابتعد عن البناية، ولكن ما رآه ظل ماثلاً في داخله. ولقد تراءت له أفكار كثيرة. غير أنه قرر أن يمر غداً في الساعة نفسها وحيداً. ولقد فعل ورأى ما رآه بالأمس. حدق هذه المرة في سور البناية، حدق في الوجه الذي ظهر خلف الحجارة.

- ها هو الوجه الذي رأيته بالأمس. ولكن من هو؟

وغاص محمد العبد الله عميقاً في ذاكرته. كان رأى وجوهاً كثيرة، فلقد سافر من بلده، وتجول في بلدان كثيرة ولم ير ما رآه بالأمس، حدق – لكن هذا الوجه يختلف ويختلف، يود أن يتكلم ولكنه يتراجع. لماذا؟ هل يخشى أن يسمعه صاحب العمارة فيهدم السور ويبني سوراً جديداً. هذا الوجه يختلف. لكأني أعرفه. ترى لماذ لم يخرج إلا حين أمر؟ لو كان غيـــري

رأى ما رأيت لفضح الدنيا. هذا الوجه ليس عدواً، الحجر لم يتكلم، شجر الغرقد يبدو مألوفاً ولكن ماذا يريد؟

ولقد قلب محمد العبد الله الأمر وحاول أن يتوصل إلى نتيجة، ولكن عبثاً حاول، ولقد كاد يصاب بالجنون. فلم ينم لليال عديدة وظل القلق رفيقه أينما حل؟ ولقد قرر أن يغادر المنطقة ولكنه تراجع، إذ أين سيذهب؟ أليس من العيب ألا يعرف السر الذي يكمن خلف هذه الحادثة؟ لقد اختار صاحب الوجه الجميل الوقت الذي يمر فيه محمد العبد الله، ولم يختر أي وقت آخر، وكأنما هو يريد أن يقول الشيء الذي يود قوله عن طريق محمد العبد الله، وكان هذا أحد الأسباب التي حدت بمحمد العبد الله أن يصل إلى السر. وكانت البناية محور اهتمامه:

- ما السر إذن؟ ما العلاقة بين الوجه الجميل وبين البناية؟ ثمة بنايات كثيرة في هذا الحي، فلماذا لا يختار الوجه الجميل إلا البناية هذه.

تبدو البناية متواضعة، غير أنها جميلة تحيط بها الورود البيض والحمر وفي الصيف تبدو أشجار العنب أجمل ما يكون .. تمنع أشعة الشمس من الوصول إلى الوجوه الممتلئة التي لا تفارقها الابتسامات، في ساعات الصباح يجتمع الأب الذي يرتدي معطفاً أنيقاً، والأم التي يبدو رداؤها أخاذاً، والأطفال الذين يلفظون الألفاظ لفظاً رقيقاً ناعماً، وبأيديهم أكواب الحليب، يجتمع هؤلاء جميعاً لينطلقوا في سيارتهم الأنيقة، الأنيقة.

ولقد لفت هذا الشيء انتباه محمد العبد الله، وقرر أن يعرف كل شيء عن صاحب البناية، ولقد كان ذلك صعباً صعوبة كبيرة. صحيح أن محمد العبد الله هذا يسكن في هذا الحي الراقي، ولكن أنى له أن يجالس صاحب البناية، فثمة فروقات كبيرة، أنه كما يقول دائماً يسكن هنا بالغلط.

ولقد عرف محمد العبد الله بعد وقت طويل أن صاحب العمارة، كان شخصاً عادياً جداً ذات نهار. لا يختلف وضعه عن وضع محمد العبد الله الذي، كما يقول، لن يصبح ذات نهار على غير ما هو عليه الآن، فراتبه يكاد يكفيه بالكاد، وفرص العمل هنا صعبة، والتجارة ليست حسنة و ... و ... كيف إذن ستتغير أحوالي؟ قال محمد العبد الله وتساءل: ولكن كيف تغيرت أحواله؟ ولقد توقف كثيراً عند لفظة التجارة هذه، ولكنه تابع: صحيح التجارة في أيامنا رابحة، ولكنه كان موظفاً. وكان ذا اهتمام بالسياسة. ومن ذا الذي يهتم بالسياسة وتتغير أحواله إلى الأفضل إلا ...

وكأنما فجأة اكتشف السر بدأ يسترجع أحاديث الناس، وبدأ يستذكر أشخاصاً اختلف وضعهم رأساً على قدم بين ليلة وضحاها. فهذا إبراهيم المزيد يذهب إلى بلد قريب، ويعود بعد أيام ثلاثة وقد اختلفت أحواله كلياً نحو الأفضل، وهذا المزارع الفني يبرطع و ... و ... وقال محمد العبد الله:

سوف أقول أيها الوجه الجميل. لن أجعلك حزيناً لن تصبح شعاراً أو حجراً في بناية، إنهم يتاجرون بدمائكم أيها الشهداء.

وتابع محمد العبد الله طريقه بخطوات صلبة، باحثاً عن أماكن يجتمع فيها الناس ليعلن على الملأ ما رآه بأم عينيه، وليخبر من يعنيهم الأمر أن الشهداء لن يكونوا حجارة في بناية. لن يكونوا حجارة في بناية.

(الفجر الأدبي ١٩٨٣م).

من ماتوا ماتوا مرة

وأعاقر كأس الموت هنا في أيام السبت المرة

ألفي مرة

أمقتها، كم أمقتها أيام السبت

أرشقها بنبال الرفض وحشرجة القلب المذبوح

وأجدف تحت معاناتي وأئن وصدري مفتوح

يا وطني .. آه يا وطني

فدوى طوقان

تلك القدس ... ذلك السبت

حين أخذت أحدق في الساعة التي ثبتت على دوار الحسين في مدينة نابلس ترددت كثيراً قبل أن أذهب إلى مدينة القدس، وأمعنت النظر مرة أخرى لأرى عقارب الساعة، غير أنها ظلت في مكانها وكأن الزمن قد توقف في مدينة نابلس غير راغب في المسير. كانت الشوارع خالية إلا من بعض الباعة وبعض السيارات التي تقل الركاب، وكان صوت عبد الحليم حافظ يرتفع من إحدى المسجلات المثبته على عربة لبيع الأشرطة، ومع ارتفاع صوته كان بائع الأشرطة يرفع صوته مكرراً مردداً ما يكرره المغني: كل ما أملي معاي معاي وبأيدي سلاح. ولعلي تساءلت لحظتها إن كان بائع الأشرطة هو الذي أوقف الساعة عمداً، ليظل يعيش على الذكريات، غير أبه بالحاضر وبالمستقبل وما يحمله من تطورات، وقلت: لعله أدرك أن القادم أسوأ فقرر أن لا يعيش الانكسارات والهزائم.

كان الجو خريفياً، وطلبة المدارس الذين عادوا إلى بيوتهم لم يفضلوا التسكع هذا النهار، ذلك أن دوريات حرس الحدود كانت تجوب شوارع المدينة بكثرة، على عادتها كل سبت. وعدت بذاكرتي إلى الوراء: لقد كانت المدينة قبل شهرين مكتظة بالمواطنين، ليس أيام السبت وحسب، بل أيام الأسبوع كلها، لقد كان أبناء المدينة موجودين فيها بعد عودتهم من دول الخليج التي يعملون فيها، ثم غادروها بعد انتهاء أجازاتهم. وعادت المدينة خاوية إلا من شباب قليلي العدد وشيوخ ونساء وطلبة.

نظرت إلى الساعة مرة ثالثة، كانت عقاربها على ما هي عليه: واقفة لا تتحرك، وبدا زجاجها متسخاً، لدرجة أن أحد العقارب لم يكن واضحاً إلا قليلاً، ولقد ارتفع صوت وردة الجزائرية فيما خفت صوت عبد الحليم، وأخذت أسير نحو موقف سيارات القدس ملغياً حالة التردد التي كانت قد أصابتني. لقد كنت أود الذهاب لأعرف السبب الذي حال دون صدور الصفحة الأدبية في جريدة الشعب.

قبل أن أصل إلى موقف السيارات كان بائعو الخضار يصرخون لتسويق بضاعتهم مكررين مفردة: يا بلاش، وكان أحد المارة الذي يسير بمحاذاتي ينظر إلى الفاكهة، ولكنه أبداً لم يجرؤ على الاقتراب من العربات و "يابلاش" هذه كانت مزعجة له أشد ما يكون الإزعاج، ولقد أتضح لي ذلك حين علق على العبارة: انا ببلاش. ولقد كان محقاً فيما قاله، ذلك أن الأسعار كانت ترتفع بشكل لا يصدق، ولم تعد للنقود الإسرائيلية قيمة على الإطلاق، وكان الناس في نابلس كثيراً ما يقولون: ما ظل شيء أرخص من الإنسان.

ولقد زالت حالة التردد التي كانت قد اعترتني لحظة وصلت إلى موقف السيارات، ولم يعد من مقاعد السيارة فارغاً إلا مقعد واحد، وبلا أدنى تفكير وجدت نفسي جالساً على المقعد الشاغر. في البداية بدأت أقلب صفحات جريدة القدس التي اشتريتها صباحاً، ثم سرعان ما لفت انتباهي حديث بين شخصين بدا أنهما موظفان في أحد المعاهد العليا في الضفة الغربية. تحدثا عن المنح التي توفرها مؤسسة (الأمدايست) الأميركية للجامعات والمعاهد والبعثة التي سيحصل عليها احدهما. إذ كان قد قابل قبل، فترة، لتحديد موعد السفر، وكان عليه أن يتذكر موعد المقابلة، غير أنه أخفق في تحديد اليوم والتاريخ فطلب مساعدة زميله، الذي لم يتذكر من موعد المقابلة المذكور إلا حضور زميلة لهما كانت قد أحضرت معها ذلك اليوم سلة من التين. وهكذا فقد تذكرا يوم المقابلة: يوم أحضرت فلانة سلة التين. لقد ضحكت ضحكة مسموعة، حين علقت: تماماً كما ولد أخي يوم الثلجة.

وتذكرت الساعة التي ثبتتها بلدية نابلس على الدوار، وقلت: هل أصبحت الساعة شاهداً على عادات النابلسيين، وأبت إلا أن تصبح تماماً مثلهم؟

كنت أمعن النظر على جانبي الطريق حتى أنفق الوقت وأصل إلى القدس، فلقد كنت متلهفاً لمعرفة السبب، ولعلني قلت: لعلهم استغنوا عن خدماتي، كان معسكر حوارة هادئاً، ولم يبد حزيناً على الإطلاق. وقلت: أتراه لا يحزن على الأيام الخوالي؟ لقد كان معسكر حوارة معسكراً للجيش الأردني قبل عام ١٩٦٧. ولا أذكر اليوم بالضبط أول مرة جئت إلى هذا المكان، غير أني ما زلت أذكر السبب: يومها كنت طالباً في الابتدائية، وبلا مقدمات طلب منا الأساتذة الاستعداد لاستقبال الملك حسين، ذلك أننا كثيراً ما كنا نخرج لاستقبال زائر أو ضيف أو مسؤول كبير. والمرة التي فجعنا فيها يوم كنا صغاراً، كانت يوم زار الحبيب بورقيبة القدس والضفة الغربية. ما زلت أذكر أننا وقفنا، نحن جميع طلبة المدارس، منذ الصباح لرؤية الرئيس، وكان الحر شديداً يومها، غير أننا لم ندر إن مر أو لا، وعدنا إلى بيوتنا نتساءل: هل مر الرئيس؟ قلت وأنا أرى بعض جنود جيش الدفاع الإسرائيلي: تلك الأيام دول؟ ولكنني أضفت: أما زال جيشاً للدفاع ؟.

كانت عقارب الساعة تسير ببطء شديد، والسائق الذي فتح المذياع على أخبار الظهيرة لم يبد معنياً بالوصول سريعاً. كانت يده اليمنى على المقود، فيما يده اليسرى على شباك السيارة، وكان يسير، لعله كان يفكر في أشياء كثيرة، لا أدري لم لم يتكلم عن ضريبة الدخل والضريبة الإضافية التي فرضتها سلطات الاحتلال قبل ثلاثة أعوام؟ لعله وجد أن الحديث مضيعة للوقت الضائع، وأن لا جدوى من الشكوى. وكنت الوحيد الذي علق على سائق

سيارة إسرائيلية كان يسير بلا اكتراث في وسط الطريق: إذا كان العرب لا يسألون عنا فلم لا يستلطخنا؟

ولعل الجميع كان ينظر إلى المستوطنات التي أقيمت حديثاً، والى الطرق التي شقتها الجرافات الإسرائيلية، ولقد تذكرت لحظتها أقوال احد إخواننا من عرب الداخل يوم قال: تستطيع التمييز بين القرية العربية والمستوطنة الإسرائيلية من خلال نظرتك للشارع، فإذا كان واسعاً مسفلتا فاعلم أنه يؤدي إلى مستوطنة.

وحين وصلنا مشارف رام الله كان ثمة حاجز تفتيش. وبحركة لا إرادية وجدتني أضع يدي على جيبي لأتحسس الهوية الإسرائيلية، كانت ذات لون أزرق قاتل كسماء ذاك اليوم، لقد ناولته الهوية دون أن أتفوه بأية كلمة، وحين تحدث بالعبرية فهمت ما قال ولكنني تجاهلت تجاهل العارف، فما زلت اذكر ذلك اليوم الذي صفعت فيه صفعة لا تنسى. كنت ذاهباً إلى المدرسة التي أعلم فيها وطلب مني أحد حرس الحدود العودة، وحين حاولت أن أكلمه بالعبرية التي تعلمت قليلاً منها حديثاً أجابني:

- أنا أكلمك عربي.

كان ضجراً، ولعله كان حزيناً أيضاً، ولم أشأ يومها الإطالة في الحديث، ولكنني قلت: أنه درس ينبغي ألا ينسى.

في الطريق من رام الله إلى القدس، كانت البنايات تنتشر على طرفي الشارع، نظيفة أخاذة لافتة للنظر، وكان جميع من في السيارة ينظر حواليه، فيما همس أحد الموظفين لزميله:

- حي الصمود

وعقب الآخر.

- حقاً انه حي الصمود.

لقد كان الحديث يومها كثيراً عن الأموال التي ينفقها هؤلاء في غير مكانه، ويبدو أنهم نجحوا في الحصول على ما يريدون بعد أن خدعوا إخواننا الذين هناك، أي في خارج الوطن حين كانوا يزعمون أن القدس تضيع رويداً رويداً بسبب الصراع على الأرض وتعميرها، ولقد كانت الطريق من مستشفى العيون إلى جمعية الشبان المسيحية، فالقنصلية الأميركية، فموقف السيارات، قرب باب العامود، شبه فارغة وحين فتحت باب السيارة صرخ علي السائق:

- الأجرة

لقد كنت الوحيد الذي لم يعطه الأجرة، ويبدو أن إمعان النظر في جانبي الطريق هو الذي شغلني عن ذلك.

حين نظرت إلى باب العامود، وجدت سيلاً هائلاً من البشر، كأن المدينة هذه غير المدينة التي أعرفها وتساءلت: هل هي القدس؟؟ عشرات من البشر: رجال ونساء وأطفال من ذوي البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزرق. قلت: يا الهي. أأحلم؟ أين أنا؟

اتجهت يساراً، كانت الإشارة الضوئية تحول دون قطع الشارع، فقد كان اللون البادي هو اللون الأحمر، كنت أحاول الانتقال إلى طرف الشارع ولكن الشرطي على مقربة مني. همست: كل شيء ضدنا، حتى الإشارة الضوئية. فكرت للحظات في أن أعود واستقل السيارة عائداً إلى نابلس، ولكني عزفت عن ذلك، نظرت إلى الأمام: كان الطريق الممتد من باب العامود إلى مكتب البريد مكتظاً بالبشر. كانوا كأولئك الذين أبصرتهم وهم يتجمعون أمام باب العامود. البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزرق. ولقد بدوت للحظة شاذاً غريباً.

- أهذه هي القدس ؟

أذكر أول مرة جئت فيها إلى هذه المدينة. كان ذلك عام ١٩٦٤م حين نظمت المدرسة التي كنت فيها رحلة مدرسية إلى البحر الميت فالقدس. كان الطقس ربيعياً وكان منظر السماء جميلاً. يومها اقتادنا المدرس عبر شوارع القدس وأزقتها حتى وصلنا إلى الصخرة. ويومها نظرت إلى السماء وأنا جالس على السور الذي يحيط بالمسجد الأقصى فأبصرت نوراً قلت لعله نور الجنة. كانت القدس في مخيلتي فيضا من الاشراقات، ولحظة غادرنا المكان حزنت كثيرا، كنت أتمنى لو أبقى هناك إلى الأبد، أقيم فيها وأظل حتى أدفن في مقابرها. أنظر إلى الناس فأرى وجوها أليفة وديعة هادئة. أما الآن فأبدو نغماً نشازاً فرداً فريداً، كأنما هبط من السماء، فجأة، على مكان لم يألفه ولم يره من قبل.

هبطت الطريق الفرعية المؤدية إلى مكاتب جريدة الشعب مسرعاً. صعدت الدرج درجتين درجتين، وفتحت الباب بلا استئذان، وسرت باتجاه رئيس التحرير الذي رحب بي كعادته، وبادرته متسائلاً عن السبب الذي حال دون صدور الصفحة الأدبية يوم الخميس، فقال إن الرقابة حذفت أجزاء كبيرة من مقال، ورفضت نشر مقال آخر وقصة قصيرة وقصيدة، ولم نكن طبعنا المواد الاحتياطية التي أرسلتها.

تحدثنا قليلاً عن الأدب والأوضاع السياسية والقدس يوم السبت، وبدا حزيناً. وقال: إذا ظلت الأوضاع على ما هي عليه فهذا حسن، وكنت أنظر إلى لوحة كتب عليها: تذكر أن الجريدة ستصدر غداً. ابتسم لقد كان الرقيب حاضراً حين كنت أحرر الصفحة ويحتل جزءاً من ذاكرتي، كما احتل أولئك الذين يسيرون في الشوارع مساحة القلب ليصاب بالتجلط. ودعته وقفلت عائداً إلى المدينة التي أتيت منها. ولأول مرة لم أفكر بالذهاب إلى مكتبة المحتسب في شارع صلاح الدين لرؤية الكتب وشراء ما أراه مناسباً. كنت أسير بخطى سريعة لأصل إلى موقف سيارات نابلس، غير آبه أيضا ببائع الكعك المقدسي الذي كان مشغولا ببيع ذوي البشرة البيضاء والشعر الأشقر، ذلك الذي عرفني لكثرة ما اشتريت منه، فقد كان لزاما علي أن اشتري، كلما زرت القدس، كعكا مقدسياً، ذلك أن أمي كانت توصيني باستمرار أن أحضره معي لأنه من المدينة المقدسة التي زارها الرسول وأسرى منها ليلاً. وتمنيت لو أنني أصل نابلس فجأة، فقد كانت القدس تختفي ولا أرى منها ما كنت أراه، وبدا لي – وأنا أسير – أنني في مكان آخر غير القدس، مكان لا أشعر فيه بالدفء، مكان يبعث في القلق والرعب والخوف، وحين اقتربت من المقهى القريب من موقف السيارات كانت إذاعة عربية تبث نشرة أخبار الساعة الثانية ظهراً، وكان المذيع يتحدث عن القدس والأهل الصامدين بصوت حاد، غير أنه بدا لي تافهاً وغير ذي بال، فقد كنت أصغر وأصغر ولا أقوى إطلاقاً على التحديق في وجوه الآخرين. لقد كنت فرداً شاذاً في هذا الجمع البشري الهادر. ولا شعورياً – وأنا أصعد السيارة – بدأت أقرأ سورة الفاتحة على المدينة التي كنت أعرفها.

(الشعب ١٩٨٦م)

مكان آخر للعشب

حين صحا مبكراً، كان أول شيء فعله قبل أن ينهض من فراشه أن تحسس قدميه، حمد الله حين تأكد من أنهما ما زالتا بخير، ولكن شعوره بالارتياح لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما انتابته حالة من الملل التي كثيراً ما تنتابه في ظهيرة أيام الصيف الحار أو في ضحى أيام الخريف، حين تبدو نابلس فارغة إلا من أولئك الرجال الطاعنين في السن، أو من حرس الحدود الذين يجوبون شوارع المدينة.

نهض من فراشه، ولم يلق تحية الصباح على زميله الذي يسكن معه في الغرفة نفسها، واتجه صوب المرحاض فالمغسلة، حيث اقتطع صاحب البيت جزءاً من مساحة الغرفة لانشائهما يوم فكر في تأجير الغرفة للطلبة. أشعل الغاز ووضع إناء الماء ثم توقف جانباً ينتظر حتى يسخن الماء. كان الجو بارداً جداً والثلوج التي تساقطت على حي الأشرفية في اليومين السابقين ما تزال آثارها باقية، وعاد بذاكرته الى أيامه الخوالي في نابلس، ولم يعده إلى لحظته إلا صوت فقاقيع الماء. أطفأ الغاز، وأخذ يفرغه في أبريق صنع من البلاستيك، ثم صب الماء على يده اليمنى، وفجأة أخرج صوتاً حاداً. كانت درجة حرارة الماء مرتفعة، ولم يفطن إلى تبريده. وجاء صوت زميله:

- تستحق،! حتى صباح الخير لم تقلها.

أشعل زميله النور، فقد كانت الغرفة مظلمة بعض الشيء، لكونها تقع في أسفل البناية، ولأن الغيوم كانت تحجب أشعة الشمس، ولم يحاول أن يتفوه بأية لفظة، واختلطت الأمكنة في ذهنه، ولم يعد الأمر يعينه كثيراً في تلك اللحظة، ولعله أيضاً أخذ لا يرى كبير فرق بين السواد الذي كان أسفل الإناء، بسبب وضعه، في بعض الأحايين، على صوبة علاء الدين التي أنعم عليهما بها بعض أقارب زميله، وبين ظلمة الغرفة التي بدت مثل زنزانة كان قد اعتقل فيها ذات مرة، على الرغم من ضوء الكهرباء. وحين انتهى من غسل وجهه أخذ يبحث عن المنشفة التي علقها على مسمار كان قد وضعه في مكان ما من الحائط، كانت المنشفة في مكانها، ولكنه في البداية لم يرها فأدار نظره في الغرفة، ثم أخرج صوتاً غير مفهوم مما أزعج صديقه الذي كان قد عاد إلى الفراش ليغفو بعض لحظات، عله يسرق من الوقت نصف ساعة نوم أخرى إضافية، ذلك أنه قد تأخر في عمله الإضافي الليلة الماضية، فقد كان على زميله أن يعمل ليل نهار لإرسال بعض النقود إلى أهله في مخيم عسكر قرب نابلس ولأخيه الذي يدرس في أميركا، ثم لينفق على نفسه أيضاً، فقد ترك له والده خمسة أخوة بين ذكور

وإناث. ولما كان والده كبيراً في السن يوم تزوج، فقد كان عليه أن يكد ليطعم إخوته، ذلك أن والده فوق ذلك لم يعمر طويلاً بعد زواجه، ولقد بادره الكلام قائلاً:

- ماذا حدث؟

غير أنه لم يلق إجابة، إذ التزم الصمت ولم ير فائدة في إخباره، ثم أنه هو، فوق ذلك، لم يدر ما يقول، ففي اللحظة التي صحا فيها من نومه تحسس قدميه فوجدهما على ما هما عليه. ولكنه قال لزميله أن لا وقت لكي تنام، فالساعة السابعة والنصف، وليس أمامك سوى نصف ساعة للوصول إلى البنك العربي، وإلا فإن غضب الإدارة سيحل بك.

كان كل صباح يسير وزميله، يهبطان إلى قاع المدينة سيراً على الأقدام ليوفرا اثني عشر قرشاً على نفسيهما، وفي الطريق يتحدثان معاً عن المخيم والأهل والأصدقاء، وحين يصلان أول سقف السيل ينتهي الزمان الأول ليبدأ زمان آخر، ويزول المخيم من الذاكرة ليحتل سقف السيل سقف عقليهما معاً، العمال المصريون الذين تركوا مصر وجاءوا ليسببوا أزمة السير الخانقة، الإشارات الضوئية الخربة، وذلك السائق الذي يحاول رشوة الشرطي حتى لا يحرر له مخالفة قد لا يجمع نقودها طيلة يومين من العمل المتواصل، ثم بائعو الفلافل الذين كثروا كثرة مفرطة في أواخر السبعينات.

وفي ذلك الصباح اتجه نحو الباب ليرى إن كانت الغيوم تنزل خيراتها على رؤوس الناس، لاحظ الجو ماطراً، ثم أغلق الباب، فقد بدأ البرد يتسرب، وقال لزميله:

- سندفع اثني عشر قرشاً.

وعلى الرغم من أنه سيدفع، إلا أنه لم يشتم، لم يشتم الغيوم، ولم يشتم إدارة الجامعة التي لم توفر السكن للطلبة، ولم يشتم السواقين الذين رفعوا الأجرة مؤخراً، وبدا ذلك نشازاً، ولاحظ زميله ذلك، ثم علق:

- خيراً. لم تشتم هذا الصباح أحداً.

- ولكني قد أشتم عنك في المساء. لم يبق طويل وقت، والساعة تقارب الثامنة. كان باستمرار يكثر من التفوه بالشتائم على ذلك المسؤول الذي سرعان ما يوجه له إنذارا يوم يتأخر عن عمله خمس دقائق. ولم يكن ذاك المسؤول ليقتنع أن تأخيره إنما يعود إلى أزمة المواصلات، كان يقول له دائماً:

- اشتر سيارة. هذه مشكلتك.

خرجا من الغرفة، ولم يكترثا للشتيمة التي سمعاها من جارهما، فقد كان ذلك الجار كثيرا ما يشتمهما ويشتم صاحبة البيت التي أجرت الغرفة لشباب غير متزوجين، ثم كثيراً ما يشتم زوجته وأولاده حين لا يعطونه مبلغاً من المال، ليشتري به بعض المشروبات الروحية. لقد تعودا معاً على صراخ ذلك الرجل ولم يحاولا معرفة السبب الذي كان يدفع به للإكثار من شرب الخمر وشتيمة الآخرين، فقد كانا يريان حالات كثيرة في المخيم الذي كانا يسكنانه، وكانا يعرفان السبب الذي يدفع بهؤلاء الأشخاص إلى سلوك هذا السلوك.

كانت الغيوم قد شكلت حاجزاً كثيفاً بين الأرض وبين السماء، تماماً مثل ذلك الحاجز الذي حال بينه وبين الفرح في ذلك الصباح والذي يحول بينه وبين الفرح في كل صباح. لقد كانت الغربة، والدراسة المملة، ونشرات الأخبار وعناوين الجرائد والشوارع المتسخة ورائحة الفلافل، وقلة النقود، والطلبة المملون، وأزمة المواصلات، وصفارة الشرطي، لقد كانت هذه الأشياء كلها كريهة له، ولم يكن ليغض النظر عنها وينسى أنه إنما يقيم مؤقتاً في هذه المدينة التي لم يألفها منذ جاء إليها. وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة، فقد كان الطلبة ينتظرون الحافلات لتقلهم إلى الجامعة، ومنهم من يردد بصوت خفيض أغنية لوردة كانت قد وصلت حديثاً مع آخر طائرة، كما أشارت لافتة كتبها بائع الأشرطة الذي يواجه موقف الباصات. وقف مع الواقفين ينتظر صعوده إلى الحافلة، ولما طال مجيئها استقل سيارة نقل إلى العبدلي ليتابع المسير من هناك. في السيارة كان ثمة طالبتان تقطنان جبل اللوبيدة، كانتا ترتديان ملابس أنيقة ورائحة العطر تفوح منهما.

قالت إحداهما للأخرى:

- لقد بلل المطر شعري، يا للخسارة لن يبدو منظري جميلاً.

وعلقت الثانية:

- لقد أخذ والدي سيارتي هذا الصباح، لأن سيارته خربة، ثم سخرتا من مدرس اللغة العربية لأنه يجهد نفسه في أثناء الحديث، ولا يتكلم إلا باللغة العربية الفصيحة، وأشارتا إلى أن اللغة الفرنسية تبدو أكثر جمالاً، كالأزياء الباريسية، وكقصة الشعر الفرنسية التي غالباً ما تكون أكثر القصات ملاءمة لوجهها.

كان يتابع حديث الفتاتين، ولكنه في اللحظة ذاتها ينظر إلى قدميه، يشعر قليلاً بالارتياح فينظر من زجاج نافذة السيارة، ولكن الخارج لا يبدو واضح الرؤية، فثمة طبقة

خفيفة قد تراكمت على نافذة السيارة بحكم الاختلاف في درجة الحرارة، ولكنه يرى الشوارع خالية من حوادث الطرق ودماء الجرحى التي غالباً ما تبقى أثارها لساعات قليلة في الشارع.

على جانبي الشارع كانت البنايات ما زالت تكثر، وكان ينظر إلى هذه البنايات التي لم تكن قبل سنوات قليلة خلت على الإطلاق، وإنه ما زال يذكر تماماً كيف كانت الطريق بين دوار الداخلية والجامعة الأردنية خلوا إلا من المدينة الرياضية ومكاتب جريدة الرأي، أما الآن فالفنادق الكثيرة والعمارات السكنية الضخمة، والكلية العربية ومباني جريدة الشعب، والجسور الهوائية، والشوارع العريضة، ولكنها لم تبد له ذات قيمة أو ذات حضور، فقد كان يعاود النظر إلى قدميه ليراهما إن كانتا ما زالتا على ما هما عليه حتى مساء أمس. قبل حلم الليلة الماضية، الحلم الذي يتذكره الآن:

قدماه وقد ابيضتا ابيضاضاً لافتاً للنظر، وقد كبرتا أكثر ما يكون وفجأة كان العشب ينمو وينمو ويتطاول، إلى أعلى ثم ينفذ إلى أعمق أعماق قدميه. يحاول الوقوف فلا يستطيع، يحاول مرة أخرى فتتقصف الأعشاب ويبدأ الدم الأخضر.

كانت السيارة قد توقفت أمام بوابة الجامعة الأردنية، فيما أخذ الطلبة يركضون حتى لا يبللهم المطر، وكان هو يسير ببطء ينظر إلى قدميه تارة وطوراً إلى الفتيات اللاتي بدون أنيقات وهن يركضن أكثر مما بدون وهن داخل الحافلة.

فلاش باك

كانت نابلس هادئة تماما، فلقد انتهى ذلك الضجيج الذي تسببه باصات (ايجد) كل صباح حين تأتي لنقل العمال العرب إلى فلسطين، ولم يكن شارع فيصل يضج بالسيارات ذلك أن الطلبة لم يغادروا بيوتهم بسبب العطلة الصيفية، كان خالياً إلا من سيارات قليلة، وأما المحلات فما زالت مغلقة أبوابها، باستثناء بعض الباعة الذين كانوا ينتظرون السيارات التي تقل لهم الخبز، والفلاحات اللاتي يأتين من قرى سالم ودير الحطب وعزموط وروجيب ليبعن بعض ما أنتجنه من حليب وجبن ولبن. وكانت سيارة من سيارات حرس الحدود تجوب الشوارع ذهاباً وإياباً. في هذه الأثناء كان يغادر بيته من اجل الذهاب إلى مدينة حيفا ليحصل على بعض المعلومات من جريدة الاتحاد ومجلة الجديد اللتين تصدران في حيفا ويمنع توزيعهما في المناطق المحتلة، ولقد كان عليه أن يسير على الأقدام مسافة كيلو ونصف الكيلو حتى يصعد سيارة تقله إلى المدينة، وكان ينقل نظره بين القرى العربية النائمة وبين مستوطنة ألون موريه التي أقيمت حديثاً، ليرى الفرق بين البيوت التي بنيت بطريقة عشوائية وتلك البيوت التي بنيت بطريقة منظمة، ولأول مرة كان يرى القبح في الجمال والجمال في القبح،

ولم ينقذه من محاولة فلسفة الأمر إلا رؤيته أحد الناس الذين قد عادوا لتوّهم من المدينة، ولقد أخذته الريبة مآخذ شتى، فلماذا يعود أبو محمد إلى بيته الآن في الصباح المبكر، ولما اقترب منه لم يترك له أبو محمد فرصة ليبادره السؤال، فقد قال له: ثمة انفجار هز المدينة كلها، ارجع إلى بيتك. ولكنه تابع مسيره واستقل سيارة إلى المدينة، كان الناس يخرجون من بيوتهم ليعرفوا ماذا حدث، وكل منهم يسأل الآخر، ولكن أحداً لم يعرف ماذا حدث بالضبط وثمت أقاويل غير مؤكدة كانت تدور على الألسن، فمنهم من زعم أن هناك اشتباكاً حصل، ومنهم من قال أن باصاً للعمال قد فجر، وآخرون قال أن الانفجار وقع بالقرب من بيت رئيس البلدية، فيما كانت سيارة الشرطة تسير في الشوارع معلنة فرض نظام منع التجول على البلدة القديمة والأحياء المحيطة بها. وفجأة بدأ الناس يتراكضون صوب بيوتهم، فيما كان قسم من السيارات يسير في الطريق المؤدية صوب مستشفى رفيديا حيث تجمع عدد كبير من الناس، كانت الحركة قد هدأت رويداً رويداً، وبعد لحظات قدمت سيارات حرس الحدود لتفرق الجموع الكبيرة. وكان الخبر قد انتشر بين الناس، وبخاصة أن وكالات الأنباء قد عممته وأذاعته محطات الإذاعة. لقد فجر المستوطنون سيارات رؤساء البلديات في الضفة الغربية.

في منتصف الظهر كانت بعض السيارات تجوب شوارع المدينة التي لم يفرض عليها منع التجول، وكان التنقل يتم في الشوارع الفرعية، الجبل الشمالي، بليبوس، رأس العين، المقبرة الغربية، كان يجلس مع مجموعة من أولئك الرجال يثرثرون حول الذي حدث صبيحة هذا النهار، وعن الحكومة التي تقلب الدنيا رأسا على قدم حين يرجم طفل حجراً على سيارة وتدعي أنها لا تعرف شيئاً عن هذا الذي حدث، ولم يقطع عليهم حوارهم سوى صوت سيارة الإسعاف التي كانت تقترب من مكانهم، فيما ردد أحدهم:

- لقد مات الشكعة.

اقتربت السيارة، وحين أوقفها سائقها نزل منها رجلان، أحدهما شاب في العشرين، والثاني في الأربعين من العمر، كان القلق يبدو على وجهيهما وكان في يد الكبير كيس من الخيش مربوط من أعلاه، فيما عاد هذا ليحضر من السيارة فأساً ومجرفة أحضرهما معه لدفن من في الكيس. كان يسأل نفسه: ما الذي يريدان فعله؟ في تلك الأثناء لم يفكر كما كان يفكر دائماً حين يمر بالقرب من المقبرة الغربية في أمر بدا له عجيباً، ولعله سيبدو له أيضا في المستقبل، ولكنه في تلك اللحظة لم يبد كذلك، لم يفكر فيما كان يفكر فيه، ولم يسأل نفسه عن السر الذي يجعل بعض أغنياء المدينة يخصصون لأنفسهم جزءاً خاصا من المقبرة يدفنون فيه موتاهم، ويسيجون ذلك الجزء، ثم يزرعونه نخلاً، ولقد بدا مثل هذا التفكير ضرباً من الهبل إذ ثمة سؤال واحد كان يلح على تفكيره وهو: كيف يدفن الإنسان جزءاً من جسده ويبقى حياً؟

لقد كان الكيس يضم قدمي بسام الشكعة وفردتي حذائه، وكان الدم يكسوهما معاً. وحين انتهيا من دفن القدمين والحذاء، كان الرجلان قد غادرا وكان هو ينظر إلى المكان فيرى العشب وقد نما هنا، ويرى الأرض وقد اكتست العشب الأحمر، ولم يتساءل قط عن لون التراب المائل إلى الحمرة، فقد كان أدرك منذ زمن أن لون التراب إنما مال إلى الحمرة لأنه سقي بدماء الناس. ظل واقفاً للحظات، حاول النزول إلى قاع المدينة لكنه تذكر أن منطقة دوار تل الزعتر/ الحسين سابقاً، خاضعة أيضا لنظام منع التجول الذي فرض على المدينة هذا الصباح، ومع ذلك فقد غذ السير صوب شارع المطحنة، ليستقل من هناك سيارة إلى الحي الذي يقطن فيه، وفيما هو سائر كان ينظر إلى جانبي الشارع الخاليين إلا من مبان قليلة تبدو قديمة باهتة، ولم يكن منظر دفن القدمين وفردتي الحذاء الملطختين بالدم ليفارقة. كان يرى القدمين وقد بدتا تراباً وعليهما ينمو العشب، وينظر حوله فلا يرى سوى أقدام مورقة.

(مجلة الجديد ١٩٨١)

حلم عابر

تحدق في المرآة .. ها هو وجهك يشبه مثلثاً قاعدته إلى أعلى .. تفتح باب الغرفة – القبر .. تنظر إلى السماء .. ربما تمطر .. يرتفع صوتك: "سحقاً لهذا النهار" تضيف "لقد مللت الموت .. متى أعود إلى نابلس؟" تستدرك. ولكنه الاحتلال" تمشي في الغرفة وتسأل نفسك: والاحتلال يمتد حتى هنا والفرق أنك هناك تتحدى وهنا تصمت، فالتحدي هنا مرفوض لأنك ساعتها ستكون .. هكذا في نظرهم.

تنحدر الآن إلى قاع المدينة .. تبحلق في الوجوه علك تجد شخصاً تعرفه .. تتزعج هذا النهار .. إن العالم كله من الجنس الخشن .. هذا هو نهار الجمعة .. ما أسوأه من يوم لنا .. لنا نحن الذين لا نملك سيارة أو حتى ديناراً ندفعه من أجل التنزه في رحلة .. الوقت سكين حاد. ولكن هل تشعر هذي الجموع كما تشعر .. أنها تسير على الرصيف .. تمتثل للأوامر. سر مثلها. ولكن إلى أين تصل؟ هذي المدينة سوف تبتلعك. لست مميزاً ولكن السير دون تساؤل خنجر أخر. ابدأ إذن بقطع الشارع ولا تكترث للشرطي هذا ولشارة المرور تلك .. لا تكن كتلميذ مهذب في نظرهم. هنا يظهر لك أن بنايات المدينة الضخمة ليست جميلة .. حين يكون للمدينة قاع يجب أن تعيد النظر في كل شيء. هنا قاع .. لماذا قالوا: قاع ولم يقولوا: صخر. لماذا لم يقولوا: منحدر .. ليختاروا الاسم الذي يشاؤون .. الناس هنا تسير على الرصيف .. هذا هو المهم .. ترى من المخطيء أنت أم هذه الجموع؟ هل يظنون أنهم كل المدينة حتى يسيروا بصمت؟ هذه الطائرة التي يزعجك صوتها. تقول لك أن المدينة ليست كلها هنا. ثمة آخرون يعيشون في السماء. أنهم الآن في الطائرة يتجهون صوب أميركا أو فرنسا أو .. الخ اللعنة على هذه الطائرة كم تزعجك. بل اللعنة على الأسرة الواحدة. الذين في الطائرة يشربون الويسكي وأنت تخرج دون إفطار. تريد أن تختصر الوجبات هذا اليوم ..

يا الله كم أنت ممزق! من أين تأتيك هذه الأفكار السوداوية؟ اللعنة عليك فما الذي جعلك تغادر نابلس؟ تلك المدينة تحب أطفالها .. ليس جميعهم .. ولكن معظمهم يرسمون للزمن القادم خريطة جديدة .. الآن تقول أن نابلس جميلة .. وحين تكون فيها تقول .. ليخرس لسانك .. لا تقل شيئاً عنها .. هنا الناس تسير على الرصيف .. ولكنهم هناك يحاولون الخروج دوماً.

ولكن ماذا لو خالف هؤلاء أوامر الشرطي وقطعوا الشارع دون الاكتراث لصفارته المزعجة.

سحقاً لك .. سيسمعك الشرطي. ليسمع. هذه فوضوية .. اذن لتسر على الرصيف أيها التلميذ المهذب .. لم ينضج الوقت .. متى ينضج؟ في الصيف ليس الوقت حبة تفاح .. أنه شريحة من اللحم إن لم تضعه على النار بنفسك يظل نيئاً. أيه هذه الأمة تعشق الصمت والانتظار.. إنها قطعة لحم تحتاج إلى من يضعها. على أنها تصرخ وامعتصماه .. تنتظر حتى يفرغ المعتصم من ممارسة الجنس مع الأمة الجديدة. أنها تحب الفقر أيضا .. تتذكر كيف كان عمر يأكل ولا تتذكر قول أبي ذر .. رحماك أبا ذر كأنك لم تقل شيئاً .. إنها ترى أن المال مفسدة. حتماً سيمتدح هؤلاء قاع المدينة .. سيفخرون بأنهم اشتروا المعطف والبنطال بسعر زهيد .. يا الهك سيتباهون دون أن يعلموا أن فضلات أميركا تستر عوراتهم .. لتذهب أميركا الى الجحيم .. سيحتج البعض فها هي أثواب أناسها تستر عورات الآخرين. الله يستر على الذي يستر .. ليستر الله إذن على أميركا .. إنها تستر عورات الآخرين.

إلى أين تتجه؟ هؤلاء لا يتجهون صوب مكان محدد. ألا ترى أن قسماً يرتاح وهو واقف يستمع إلى صوت البائع. بعض منهم يتجهون نحو الجامعة، هؤلاء تقتلك نظراتهم .. إنهم يعيقون الآخرين .. سر مع السائرين إلى رأس الشارع .. لكنهم يسيرون ببطء. إنهم يسيرون عليّ أن أسرع. لا. انك لا تستطيع إلا إذا خرجت عن الرصيف؟

ولكن كيف ستجابه الشرطي وحدك:

- بربع دينار.
- بثلاثين قرشاً.
- بخمسة وثلاثين قرشاً.

مبروك عليك.

سيارة الشرطة تلاحق الأطفال. هؤلاء الأطفال بشعون جداً، ليسوا جميلين أبداً. سينزعج منك البعض.

- الأطفال جميلون دائماً.

- لا يا صديقي. انهم في بلادنا بشعون. ليس جميعهم هكذا، ولكن غالبيتهم. انهم بريئون أما أنهم جميلون فلا. هل يجتمع الجمال والبؤس. أعني هل يؤدي البؤس الى الجمال. هل يكون جميلاً من يلبس فضلات الأمم الأخرى.

تسير .. هذا الطريق طويل .. الناس الذين يأتون إلى هنا أقزام والا ما معنى وجود المنارة وسوق الجمعة .. عرفت أن سوق الخميس مخصص لبيع الدواب، فهل أوجدوا سوق الجمعة ليقولوا إنكم امتداد للدواب. سحقاً سحقاً ذات مرة عندما كنت طفلا كانت وكالة غوث اللاجئين توزع عليك وعلى الطلاب ملابس لها رائحة غريبة كنت تعتز بها. لم تكن تدري أنها فضلات الأمم التي أذلتك .. وها هي العادة ذاتها، وان اختلف مكان التوزيع. هناك كنت تقف حتى يأتي دورك والناس هنا يقفون أمام السيارة أمام الفرن .. و .. في سوق الجمعة.

هذه مدينة غريبة .. هؤلاء عبيد شاؤوا أم أبوا ..الشرفاء الآن يقبعون خلف الجدران .. إيه أي قرن هذا الذي تعيش فيه .. انه حتماً القرن العشرون .. ولكنه قبل الميلاد ..

- متشائم أنت.

- إنني أترك لك نصيبي من التفاؤل.

- حقاً ماذا لنا في هذي المدينة.

- سوق الجمعة والبنايات الصفراء التي خلفها الانتداب.

هؤلاء يسيرون بسرعة يريدون أن يؤدوا فريضة الصلاة .. ترى هل يصلون لرب السموات أم لرب الأرض .. ليس رب السموات رب الأرض .. على الأرض رب كل شيء باسمه. حتى معارض .. لا تكمل سوف تبتلعك البنايات الصفراء .. ذات مرة رحب صاحب المعرض بـــ .. ترى أين هو صاحب المعرض الآن. يقال أنه تلاشى .. الناس هنا قسم منها يتلاشى.

ها أنك الآن تجد شارعاً يتفرع من شارع القاع .. تخطو خطوات .. تبحلق في القادمين.

- لعله هو.

تقترب منهم ..

- انه هو.

لا تصدق.. ترى ما الذي أتى به إلى.. ترحب به ثم تسأله:

- ما الذي أتى بك الى هنا؟

- لا تسأل يا صديقي .. الضيق. معايير القبول الاجتماعية. على أية حال سأعود، حالما أجمع بعض النقود سأعود .. لن أمكث هنا طويلاً، هنا الحياة صعبة.

تسير معهم .. تطاردك الأسئلة .. هل تتحدث ... كثيرون ابتعدوا عنك .. يقولون انك وربما .. تبتلعكم شوارع المدينة.

- أين وجهتنا؟

- نذهب الى المقهى.

هذه المقاهي الرديئة كم تضم شباباً كالورد. ولكن أين يذهبون. لا بيت جيد. ولا رحلات .. انهم لا يملكون ثمن طعامهم فكيف يدفعون أجرة رحلة .. معظمهم من مدن الوطن المحتل. يأتون إلى هنا متفائلين .. وحال وصولهم يلعنون اللحظة التي خرجوا فيها.

- نذهب الى البار.

- أنا لا أشرب.

- بل يجب ان تشرب ودعه يحاسب.

- أحاسب.

- اذن لماذا تغادر بلدك؟ ألم تقل انك تريد توفير النقود.

- انها مرة في الأسبوع.

لست تدري ماذا تقول. ألف سؤال وألف إجابة .. حين يسألك الآخرون السؤال تخجل، ولكنك حين تسألهم يكونون أكثر جرأة .. سوف يقولون لك لا تُنظّر. لا تقل شيئاً تمارس نقيضه.

تصعد السيارة وأياهم .. هذا المكان يختلف كلياً عن الأماكن التي مررت بها صباحاً .. هناك قاع المدينة وهنا .. هنا هــ ..

تنظر اليه. تتذكر الأيام التي قضيتها وإياه في نابلس .. يلمح في عينك ألف سؤال. لا يصمت.

- هذه هي الدنيا .. اللعنة على هذا الزمن.

- هل أنت مرتاح؟

- انني مستاء استياء لا حد له. ولكن.

لا يكمل حديثه فالنادل جاء..

- ماذا تريدون؟

- أربع علب بيرة.

- بل ثلاث وانا أريد شايا.

- كما أنت.

- كما أنا.

تتحدثون عن الوطن البعيد القريب.

أحدكم يستمع فقط ولا يدلي بدلوه. الثالث يبرر مجيئه قائلاً أنه لم يجد عملاً. كذب العمل موجود ولكن الغنى غير موجود. وهؤلاء معظمهم يريدون أن يصبحوا أثرياء .. ترى هل سيحدث هذا معك؟

النادل المصري لا يأتي بالتصليحة إلا ليأخذ البخشيش. إنهم مثلك تركوا مصر وأتوا ليعيشوا هنا .. يتحملون الذل ويصمتون ..الذين يملكون شعوراً بالكرامة يعودون إلى مصر ليبدأوا حياتهم يا أبا النحس لماذا اتيت بسعيد" (١)

ها انك تراهم شباباً كالورد يعاملهم أبناء لغتهم كما يعامل الفرنسي العامل الجزائري .. هناك يحتقرون العرب .. وهنا المصري لا احترام له. لقد نجحوا في الأقلمة إلى ابعد الحدود .. ذات نهار تعارك اثنان بسبب الصعود إلى الحافلة، اشتركت فتاة في العراك، تعالت الأصوات .. يقال إنهم طلبة جامعة.

- انها مصرية

- لو كانت .. لما قاتلت.

أي زمن هذا؟

- أين وصلت؟

- انني معكم.
- نغادر.

النادل المصري أصبح كمقرور يرتجف. لم ينل البخشيش لعله شتم ..

- كم دفعت.
- بسيطة
- بسيطة تعب نهار وتوفير عمل نهارين.
- من أجل عيونكم؟
- إذن لماذا أتيت إلى هنا؟
- من اجل أن احتفل بكم؟
- والنادل.
- لم أعطه شيئاً.
- لعله شتمك. الذي يدفع الدنانير يدفع القروش.

تلتزم الصمت .. تفكر .. يأتون إلى هنا ليوفروا ويعودوا.

ولكن المدينة تصبح جزءاً منهم .. ترى هل يعودون، الأخوان يتصايحان كالديكة .. ثمة كلمات تسمعها من أفواه هؤلاء: برجوازي صغير .. بروليتاريا رثة. البخشيش .. طرق النضال الصحيحة . شرب البيرة من طرق النضال ..إنني اعشق البيرة .. اعشقها. تسيرون صوب قاع المدينة .. الغيوم تتلبد في السماء .. يسود الصمت .. تتناثر الغيوم .. تدندن. انت متعب .. هل تمطر؟ ليس الآن .. البيرة لا تساعد على المطر..

تودعهم ..تسير أنت الآن في قاع المدينة

- نصف دينار
- نصف دينار وشلن.
- مبروك

سيارة الشرطي تلاحق الأطفال من جديد .. يهرب قسم منهم ويختفي آخرون .. تشعر بغثيان. تنظر .. ثمة أطفال يحاولون قطع الشارع .. يرددون بصوت واحد:

- نريد أن نبيع .. نريد ثمن خبز نأكله.

هل أنت تردد معهم؟ ينظر الآخرون. تتذكر مدينتك .. يتساقط المطر خفيفاً .. يتجمع الشرطة .. حين يثبتون .. حين تتساقط الأمطار بغزارة .. تسير ..تقترب منك نابلس الجميلة.

(مجلة الكاتب صيف ١٩٨١)

إشارة إلى رواية إميل حبيبي "الوقائع الغريبة"

الانتظار

أشعل سيجارته بعد لحظات من جلوسه في زاوية المطعم وأخذ ينتظر زميله، بين الفينة والفينة كان ينظر في الساعة، ثم يعاود النظر إلى الصحيفة، مرت من أمامه فتاة فلم يكترث لها.

لم ينه سيجارته الأولى حتى أشعل سيجارته ثانية، كانت سحب الدخان تصعد في الهواء على شكل حلقات دائرية، وكان يتأمل هذا الوضع، يعود فينظر إلى الصحيفة للحظات، ويرفع معصمه لينظر إلى الساعة ثانية، حين أخرج الدخان من فمه نفخ بقوة، لعله كان يريد أن يلغي هذه الحلقة الدائرية اللولبية ويصل فجأة إلى أعلى السقف.

كانت الفتاة تتناول طعامها بشهية، حسدها على ذلك وفكر في أن يذهب ليحضر الطعام، لكن موعده لم ينته بعد، ولا بد أن يحضر الصديق.

أشعل سيجارة ثالثة، فنظرت إليه الفتاة. لم يكترث لها كثيراً، وأغلب الظن أنها تضايقت من رائحة الدخان، بعد قليل انتقلت إلى طاولة أخرى. كان منظره غريباً، أو هكذا يبدو. الذين جاؤوا بعده فرغوا من تناول طعامهم. قبل أيام أخذ يتردد مع شخص آخر، ولكنه لم يبد مسروراً.

ملاحظات قالها النادل:

كانوا ثلاثة يأتون كل مساء يتناولون عشاءهم، ثم يشربون قدحاً من النسكفيه ويغادرون. فيما بعد أخذ يتردد وحده. سألت عن صديقه فلم يجبني. أخذت العيون تنظر إليه دوماً، ذات نهار كاد يصرخ فيهم ولكنه بكى بشدة، ثم جلس يأتي كل يوم يدخن ويدخن ويدخن، ثم يغادر المطعم دون أن يتناول طعامه. قبل أيام أخذ يتردد مع شخص آخر، ولكنه لم يبد مسروراً ... كان حزيناً .. حزيناً.

قراءة على هامش الصحيفة التي تركها:

محمد الجميل الجميل هل أنا الذي ...؟ ذاك المساء تأخرت لرؤيتها .. ليتني الآن .. ليتني أنا .. الموت .. أنا الميت .. سوف أذهب هناك .. هذا الوضع زفت .. انهكتنا أحلامنا ... سوف نصبح حيوانات مستهلكة .. السيارة .. الرحلة .. الكولونيا المستوردة. محمد الجميل .. ذهب الجميل .. وأنا .. أنا سترة مستوردة. هل أنت مثلي يا سعيد .. ترى

هل تهرب من زمنك؟ هل تهرب من نفسك .. العمارات .. الخليج .. العودة يا سعيد .. أين أنت أنهكتني الصعلكة. هل تظنني المسؤول؟؟

وأنت أيها الصديق الجديد .. ما الذي أخرك، هل عرفت شيئاً عن محمد .. هل عرفت محمداً؟ هل ظهر لك في النوم؟ هل أخبرك شيئاً عني؟ تعال حتى نثرثر عن زمن مضى؟ زمن أتى ؟ زمن يأتي؟ الخيانة الهروب، الضعف المرأة، العبث البشري.

الجميل الجميل مضى .. أنا بقيت .. قدح من الشاي سجائر فاخرة .. إمرأة .. الجميل الجميل مضى .. أتى سعيد في أية زاوية تراه الآن قال شيئاً .. لو قال لأنقذني .. أنهكني التعب .. الصعلكة .. الصديق الجديد هل سمع شيئاً هل سمع شيئاً؟ الجميل الجميل هو ينهض من قبره .. لو أخذني معه؟ النادل هل قال شيئاً للصديق الجديد؟ هل جاءه سعيد وقال شيئاً. هل قال شيئاً؟ قال قال قال .. والدخان .. الفتاة هربت .. هل سمعت شيئاً .. الدخان .. الدخان هل يقتلني؟ لو هكذا فجأة .. لو ينهض الجميل .. الجميل ..

ما قاله الصديق الجديد:

كان يحدثني عن الخيانة واللاجدوى. ذكر اسم شخص قتل بعد أن تخلى عنه صديق ولم يأت في الموعد، لو أتى لما تم القتل، الثالث لم يدر أين هو .. لعله في زاوية مهملة، فيما بعد عرفت أنه ثالثهم، انه صديق محمد ترى هل هو ..؟ في هذا الزمن يلزم الحذر، لعله صادق ولكن ..

(الفجر الأدبي ١٩٨٣)

زمن للصمت

حين اقتربت من المخيم انبثق في داخلي شعور غريب، لم أكن أشعر به من قبل، فلقد مضى على سكناي في هذا المخيم وقت طويل طول رحلة العذاب والنفي، الرحلة التي عاشها أهل هذا المخيم الصغير، ولقد تساءلت عن سر هذا الشعور الغامض غموض مساء خريفي فلم أجد جواباً شافياً، ولقد تضاعف هذا الشعور وأنا أنعم النظر في الدور المتراصة التي تحيط بالزقاق الضيق الذي أمر عبره باحثاً عن المقهى، وكانت تساؤلاتي هذه المرة تعبيراً عن الشعور الغريب الذي يسكنني كلما أقترب من أهل هذه البيوت التي تبدو أشبه شيء بعلب الدخان تارة، وعلب الكبريت طوراً، مع فارق مهم هو أن علب الدخان وعلب الكبريت أكثر أناقة، وبالتالي أكثر جاذبية.

والحقيقة أني حين كنت أغذ الخطى باتجاه المقهى، انما كنت أبحث عن صديقي غلبان، فلقد مر شهر كامل دون أن أشاهده وأثرثر معه. وشهر كامل لنا يعني زمناً طويلاً، وبخاصة أننا ما كنا لننقطع عن بعضنا البعض هذه المدة، لقد كانت لقاءاتنا سابقاً شبه يومية، ولم يكن أحدنا يبتعد عن الآخر، وحين يغيب شخص منا يكون الآخر قد أقام الدنيا وهو يبحث عنه، كنا في لقاءاتنا نتحدث عن المخيم واللجوء، نسترجع زمن الطفولة فيحدثني عن بؤسه، ونتصور زمناً لم يأت فنتحدث عن مدننا التي ولدنا بعيدين عنها، لكنها كانت تسكننا أكثر مما يسكننا هذا المخيم الذي كنا نعتبره محطة عابرة لا بد ذات نهار وأن نغادرها إلى مكان أجمل.

وحين اقتربت من المقهى شعرت بحرج كبير، فلم أكن لارتاد المقاهي، بل وكثيراً ما كنت ألوم صديقي لأنه يجلس في هذه الأمكنة التي لا تعدو أن تكون مضيعة للوقت، ولم أكن لاقتنع بكلامه حين يقول لي أنها المكان الوحيد الذي باستطاعته أن يقضي فيه وقت فراغه في بلادنا، وهي بالتالي أفضل من القعود في البيوت حيث ضجة الصغار وصوت الجيران الذي يأتي من كل الجهات عنيفاً مدوياً، وبخاصة من جارهم أبو العبد الذي لا ينفك يقاتل زوجته باستمرار، ولا يترك شتيمه ما لا يقولها، وكان يقول لي أن أبا العبد هذا في صوته صورة مكررة عن أحمد سعيد والمذيعين العرب الذين يحررون أوطاناً بالكلام، وحين كنا نمر قرب السجون كنت أهمس له أليس هذا مكانا آخر؟؟؟ فيضحك ونحمد حكامنا العرب وبريطانيا العظمى الذين خصصوا لنا أماكن كهذه نقضي فيها سني عمرنا، تاركين المقاهي التي يكثر ذمها في اذاعاتهم وعلى صفحات جرائدهم.

وكان هذا الشعور بالحرج قد أبعد عني الشعور الغريب الذي انبثق في داخلي ساعات المساء، كما أبعد عني التساؤلات التي أثارها سيري عبر الطريق من بيتنا إلى المقهى، ولقد أخذت العيون تتطلع إليّ، وكأنما سكنتها الدهشة، فهذا أنا الذي ما جلس في مثل هذه الأماكن، والذي يحلف بحياته حتى من الذين يجلسون فيها بأنه ما جلس فيها يأتي هنا، ولم أكن لاكترث لنظرات الجالسين حين رأيت صديقي. ولقد أذهلني منظره لدرجة أنني بعد أن بادرته بالتحية جلست على كرسي مباشرة ونسيت أنني قلت، عندما قررت أن أبحث عنه، في المقهى، سنخرج معاً فوراً. لقد بدا لي كأنه يتضخم بسرعة، وبشكل لافت للنظر، تضخماً يقترب من نقطة الانفجار. لقد بدا وجهه أحمر احمر كوردة، ولقد كان العرق يتصبب من وجهه مع أنه جالس. كما أن عيونه كانت آخذة في الاتساع لدرجة تسأل فيها عن السبب في وضعه النظارة، كما أن رقبته كانت تتضخم لتلغي المسافة بين كتفيه ورأسه، لتوحي بأن رأسه متصل بكتفيه دون وجود رقبة. وعلى غير عادته بدا صامتاً صمت أبي الهول، ينظر إلى الآخرين ولا يبدي أية حركة، كما أنه لا يهمس بأي حرف، وعلى الرغم من أنني حاولت محادثته لإخراجه من هذه الحالة، إلا أنه لم يجبني إلا بأصوات غير مفهومة، أصوات أقرب إلى الهمهمة منها إلى الحروف المبينة، أصوات لا تبين عما يختلج في وجدانه، ولقد قلت في البداية: ربما كان متعباً من العمل، وأثر التعب على حالته النفسية، غير أن التعب لم يكن سابقاً ليحيله إلى كتلة من السكون كما هو عليه الآن، ومع أنه كائن بشري، إلا أنه لم يختلف في تلك اللحظات عن الكرسي الذي يجلس عليه، ولقد دفعني الفضول إلى تكرار الحديث، لقد أردت أن أعرف شيئاً ما عن هذا التغيير المفاجيء، ففيما مر من أعوام، وفي اللقاءات اليومية المتتالية كان هو نفسه يفاجئني بالكلام، لدرجة أني كنت أبدو أمامه تلميذا مهذبا لا يتكلم إلا حين يسأل وحين يسمح له بالكلام، أما الآن فقد انقلب الوضع رأسا على قدم. غلبان الشاب الحيوي الذي ما مل ولا كل. غلبان الذي عبر حدود غير دولة متنقلاً من مكان إلى أخر بحثاً عن لقمة عيش، غلبان الذي كان يقابل الطغيان ببسمة معلناً أن زمانهم لا بد زائل. غلبان الذي كان يخرج من همه اليومي بمعاشرة الآخرين ومحادثتهم ومحاولة إخراجهم من سكوتهم، الذي يدين الكون كله، حيث لا بيت ولا شعور بالاستقرار، وحيث الخوف والقلق. غلبان الذي ما كان ليصمت لحظة واحدة يجلس في المساء يراقب شباب المخيم، وهم يلعبون ورق اللعب، ينظر اليهم فقط لا يكلم أحداً، ولا يتفوه بأية كلمة، يستعير منهم ماضيهم الذي كان يعيبه حين يراهم صامتين، كأنما الطير على رؤوسهم. ويظل جالساً لساعات طويلة على هذه الحالة، كأنما ينتظر شيئاً ما لا يأتي.

بالقدر الذي كنت أراه فيه يتضخم، كانت الدهشة تكبر في داخلي، صحيح أنني لم أره منذ شهر، غير أن شهراً غير كاف لتغييره من حالة إلى حالة، وليغير فيه طباعاً ما، فالناس عندنا تقول: الطبع ما بطلع إلاّ بطلوع الروح، والطبع غلب التطبع، فكيف حدث هذا مع غلبان؟ لعله الاستثناء الذي يثبت القاعدة ويؤكدها. صحيح أن غلبان كان يشعر في لحظات ما بالملل، ولكنه كان يعبر عن حالة الملل هذه بأسلوب أخر غير الصمت، لقد كان يشتم وينزل كثيرين عن عروشهم ليرضي بشتائمه هذه بعض أصدقائه ويغضب آخرين، غير أن أحداً منهم لم يكن ليقاطعه، ولقد أصبح سيد الشتائم وأستاذها، لدرجة أنك إذا أردت أن تشتم تستعير منه بعض شتائمه، ولدرجة أنك تراهن الآخرين إن كان هناك شخص ما يفوق غلبان في ذلك، كما أنني لم أكن لأتصور أن شعوره بالملل أوصله إلى حالة الصمت هذه. لقد أخذت دهشتي تكبر وتنتشر في خلايا جسدي كانتشار الغاز المسيل للدموع الذي يستخدمه رجال الأمن هذه الأيام بكثرة للمحافظة على النظام. وكدت أصرخ في وجه غلبان قائلاً:

- يا رجل تكلم.

ولكنني التزمت الهدوء، منطلقاً من حديث كنا حفظناه، يقول أن الشديد من يملك نفسه عند الغضب، وأخذت لأسباب أخرى أقنع نفسي بواسطتها عن سر هذا الصمت، إذ أن التعب من العمل لم يكن سبباً لإقناعي بسكوته، فقلت لعل ظاهرة التسمم التي أصابت فتيات مدارس الضفة الغربية أثرت عليه تأثيراً كبيراً، فلقد أصيب كثيرون من سكاننا بالذهول حين سمعوا بالخبر، ولعل ذلك يعود إلى الإشاعات التي ستنجم عن ظاهرة التسمم، ومنها الإصابة بالعقم، فأن يهدم بيت، أو يقتل شخص أو يرحل شعب، فليس هذا كله بالأمر الخطير عندنا، ولكن أن تنقطع ذريتنا! كيف إذن سنقابل رسول الله حبيبنا يوم القيامة، كيف إذن وهو الذي قال لنا: تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة، ونحن العرب كلنا، لم نحفظ عنه سوى هذا الحديث، وإن كنا حفظنا أحاديث أخرى، فإننا لم نعمل إلا بما جاء في هذا الحديث. كيف إذن؟

ولكنني عدت وقلت أن ثمة أشخاصاً كثيرين أصيبوا بالذهول حين سمعوا هذه الأخبار، ولكنها لم تترك أثاراً خطيرة كتلك التي تركتها على صديقي غلبان، وأن كان أكثر حساسية من غيره، فليس من المعقول أن يكون فرداً مفرداً، ولعل هناك من هم أكثر حساسية منه من هذه الناحية، فكثيرون منا لا يكترثون لشيء في هذه الدنيا، يرحلون ويفقرون ويذلون، ومع ذلك لا يثورون للحظة، ولكنهم سرعان ما يصبحون كنحلة لا تعرف الهدوء حين يمس شخص ما سمعتهم فيما يتعلق بالذكورة، إن الرجولة كل الرجولة عندهم تقدر بما يخلفون وما ... ولقد اعتقدت اعتقاداً راسخاً بهذا الشيء نتيجة للتجارب التي مرت بنا في الأيام والسنوات

الأخيرة ... فالعرب كلهم لم يتظاهروا يوم قتل منا الآلاف في المدينة التي اسمها بيروت، ولعلهم كانوا يمارسون حياتهم بهدوء، فالمهم عندهم ذكورتهم، وليس غير.

ولقد آثرت أن لا أفلسف الأمور وأعقدها، وقلت: ما لي وللأمر، واقترحت على غلبان أن نخرج من المقهى ونمشي معاً في الهواء الطلق، ولعلني ظننت أن المشي سيطلق العنان لمخيلته وسيفك عقدة من لسانه، فلقد كنا سابقاً نخرج معاً، ونجلس تحت الأشجار ونثرثر ثرثرة لا تنتهي إلا حين يبلغ الضحك منا مبلغاً لا نعود معه قادرين على الحديث، ولكنه أعتذر دون إبداء أي سبب، ولما قلت له:

- الجو جميل حيث الربيع

أجابني:

- لا فرق بين الربيع والخريف.

في هذه اللحظات أدركت أن الأمور قد بلغت الذروة وأدركت أن غلبان لم يعد بقادر على احتمال أي شيء، فقد بدا لي أن صخرة ترقد على جسده. ومع أنني في البداية آثرت أن أكون فضولياً، إلا أنني وجمت حين اعتذر، ورفضت أن أكون كذلك، خوفاً من العواقب التي قد تترتب على الاستمرار في حالة الفضول هذه. أخذت أحدث نفسي: هل ثمة مشكلة عائلية يعاني منها؟ ولكنني لم اقتنع كذلك بذلك، فغلبان الشاب المرح، الذي كان يجعل الحجر يتكلم، كما يقولون، لم يكن ليصل إلى هذه الحالة بسبب مشكلة عائلية، فالمشاكل العائلية موجودة منذ وجد، منذ صحا على هذه الدنيا. فلكم كان يصحو في الليل على والده وهو يخاصم والدته، ولكم كان والده يطرده من البيت طالبا منه أن يترك المدرسة وان يعمل، ولكم كان والده يضربه بعد أن يعود من عمله في الكسارات خلال الإجازة الصيفية لأنه لم يحافظ على ملابسه التي تمزقت قليلاً، ولكم تنقل من مكان إلى مكان بسبب هذه المشاكل وهو يبتسم، وحين كان ينتقل من دولة إلى دولة من دول الطغيان لم يكن لينقم على أبيه الذي كان السبب في معاناته، وإنما كان يتبسم ويردد عبارته المألوفة: لا بد سيزولون، هذه العبارة التي أثارت حفيظة أحد أصحابه فقال له ثائراً: ولكنك ستزول قبل زوالهم، لقد بدا غلبان لي لغزاً محيراً، محيراً أبعد حدود الحيرة، وفجأة قلت: ليكن ما يكون وسوف أثيره، سوف أخرجه عن صمته، لن اقبل هذا الوضع، كما أنني لن أتركه، لأن مغادرتي المكان تعني هزيمتي وتعني أكثر من ذلك، تعنى أنني لا شيء، أنني غير كفء لمجالسة أحد، لقد شعرت حقاً بإخفاق جعلني اشعر بفراغ هذا الكون ولا جدواه. لعنت وشتمت من كان يشتمهم. أسهبت في الحديث عن ظاهرة التسمم وطلبت منه أن يبدي رأيه.

ولقد ذهبت أبعد من ذلك، فلقد تحدثت عما تشهده الساحة العربية ونبهت إلى احتمال انضمام الأردن إلى المفاوضات، واستطردت مشيرا إلى غير وجهة نظر، مسترشدا بأحداث تاريخية مهمة وهامة في الوقت ذاته، وأنا أظن أن تلك الأحداث ستعود به إلى الزمن الماضي فيذكر الأيام الخوالي، وربما تحدث عملية نفسيه ما، فتلغي حالته الآنية ليحتل الماضي مساحات من وجوده، سواء أكان الماضي الذي سينبعث مأساوياً أم مفرحاً، فليس الذي يهمني سوى خروجه من لحظته التي بدأت تقتلني رويدا رويداً، والتي بدأت تحتل مساحات العالم كله لي، قلت: ليشتم، ليتحدث عن الحب، أو عن الطفولة أو عن البؤس أو عن الرحيل، أو عن الدول التي عاش فيها، مع ما سيثيره هذا لدي من نقمة وشعور بالغثيان، ليتحدث عن المخيم الجديد الذي سكن فيه، ليختر اسما له، ليرسم صورة له ليصف البيوت التي سنسكنها، غير أنه لم يحرك ساكناً، وَعَنّ لي أن أتحدث عن أمر كثر فيه الحديث في أيامنا هذه، وجعل السنة كثيرة تنطق بعد أن كانت عاجزة عيية. ألسنة اتخذت من الأمر مدخلاً أخراً جديداً لمهاجمة إخواننا في الخارج، إخواننا كلهم دون تمييز بين من ضحى بدمه وبين من أخطأ، أو من ساهم في تمييع الأمور عن قصد لتخريب أوضاعنا بحجة مساعدتنا، هذه الألسن التي لم تفعل شيئاً ذات يوم، ولم تكن إلا كالطحالب التي لا تنمو إلا في الماء الفاسد، وتكلمت بالفعل فذكرت له اسم شخص يعرفه، شخص دعي كان ينادي دوما بشعارات نشعر حين يتفوه بها إننا أقزام، وها هو الآن يبشر بحل قريب، ليس يهم إن كان على حساب من ضحى. ولكنه لم يكترث، ولست أدري كيف أخذت بالحديث عما نشرته بعض المجلات، ولكني كنت أود أن ادخل الأمل إلى قلبه ظناً مني في تلك الأثناء بأنه بائس، فلقد قلت له: أن إخواننا المجاهدين في أفغانستان ينتصرون وينتصرون، وها هم سيزحفون عما قريب ليساعدونا فلا تيأس من رحمة الله، فالطير الأبابيل، التي كنا نعتقد أنها ظاهرة لا تتكرر تتكرر، ولكنه لم يعلق على الأمر هذا، بل أشعل سيجارة أخرى قبل أن ينهي السيجارة التي في يده وأخذ يدخن بيديه الاثنتين معاً.

ولقد هممت بالمغادرة، لولا حدث مفاجيء غير متوقع توقعت أن يخرجه عن صمته، وأنه سيشتم وينزل من يجلسون على العروش عن عروشهم، ولقد ارتبكت في البداية وحاولت الهروب إلا أنه ظل مستمراً في مكانه يراقب الأوراق المبعثرة والأشخاص الذين فروا ساعة سمعوا أصوات طلقات نارية، ولما تبينا أن الحدث المفاجيء لم يدم طويلاً، وأن مضايقات لأهل المخيم لم تنجم عنه، خرجنا مسرعين تحسباً أن في الأمر خدعة، وافترقنا.

في الطريق وأنا أسير إلى بيتي، لم يكن الخوف رفيقي، بل كان رفيقي صمته، صمت غلبان الذي سكن المخيم ثلاثين عاما خلا فترات قليلة كان غادره خلالها بحثا عن عمل في دول القبائل، يعود بعدها ساخطاً ناقماً لاعناً شاتماً مازجاً كل ذلك بالضحك. صمت غلبان

الذي عاش شاهداً على رحلة العذاب والنفي دون أن تنال منه الأيام الصعبة، وكنت أمشي وكان المساء يأتي ليجثم على صدر المخيم، فلا أرى أبعد من خطوة، ولا أرى سوى غلبان الغامض غموض الآتي، ولقد أخذ شكله يكبر ويكبر لدرجة أخذت أشعر فيها بفراغ هذا العالم ووحشيته، وتمنيت لو أن السم يقتلني، أو لو أن رصاصة طائشة تقضي على أسئلتي كلها، ولم أكن لأفرق بين السم والرصاص وبين ما حدث لمخيم من مخيماتنا المنتشرة في هذا البلد العربي، أو ذاك، أو في هذا الوطن الذي لم يعد وطناً إلا للخوف والقلق والصمت، فلقد خسرت عالماً هو غلبان الذي كان في صمته أكثر تعبيراً عن النفس منه في أثناء حديثه، وكأنما أدرك بلا أدنى شك أن هذا العالم أصم كصخرة وأن لا فائدة من الحديث.

ولقد أخذ الظلام يخيم على المخيم فيما كانت رؤياي تتراجع ولم يخطر ببالي أي شيء، لقد كان الظلام يتضخم في داخلي بالقدر ذاته الذي كان فيه يتكاثف حول المخيم، وكان سؤال واحد يدور بخلدي:

- ما هو سر صمت غلبان؟ وما سيفعل؟؟

ولم أكن لأتوصل إلى إجابة، لأنني أخذت أكرر السؤال غير مرة، بحيث بدا السؤال وكأنه طفل هذا الظلام الذي يلفني وغلبان والمخيم بلا استثناء.

(الفجر الأدبي ١٩٨٣م)

البحث عن بحر وشمس

في تمام الساعة السابعة مساء خرج والده يسأل عنه، ذهب إلى أصحابه واحداً واحداً وكان يسألهم السؤال ذاته:

- لقد مر يومان ولم يعد. ألم يأت عندكم. يضرب كفاً بكف، يدخن السيجارة تلو السيجارة ولا يستطيع الجلوس. كانوا يأتون له بكوب الشاي فلا يشرب سوى نصفه، يعتذر عن فعلته ويغادر إلى بيت صديق آخر لابنه، ذهب إلى المخيم المجاور بحثاً عن زملاء ابنه الآخرين. أخذ عناوين كثيرة لأصدقاء آخرين. وبدأ رحلة أخرى.

في البيت كانت أمه تنتظره ويدها على قلبها تجلس على عتبة الدار، وكلما تسمع صوت سيارة قادمة تنتفض واقفة عل زوجها يحمل خبراً. أما الصغار فقد ذهبوا إلى غرفتهم يذرفون الدمع. كانت الصغيرة تود أن تشاهد الحلقة الأخيرة من المسلسل، لكنها خافت أن يحضر والدها العصبي فيكسر شاشة التلفاز ويضربها.

بدأ المساء يلف جدران البيت بخيوطه السود، ولأول مرة تشعر الأم بثقل الليل.

- ترى لماذا فعل هذا؟ أين ذهب؟ هل اعتقل على عادة أبناء جيله. لكن الإثباتات تدل أنه ليس موجوداً خلف الجدران. ترى هل حدث معه اصطدام؟ كل المستشفيات تنفي وجود شخص بهذا الاسم.

في منتصف الليل جاء والده حزيناً مهموماً، وجد زوجته نائمة على عتبة البيت، والأطفال بلا غطاء. أيقظ زوجته لتصنع له فنجاناً من القهوة، وعادت لتسأله:

- هل ذهبت إلى أصدقائه جميعهم؟ ماذا قالوا لك؟ ألم يروه هذا النهار؟ ألم يروه أمس؟ ألم يقل لهم ؟ نظرت إلى يدها كانت اسوارتان من الذهب تلفان معصمها. تخيلته عريساً جميلاً. وبحركة لا إرادية نزعت الاسوارتين من يدها لتضعهما في يد زوجها.

- ماذا جرى لك؟ ما الذي تفعلينه.

- كنت وعدته أن أنقطه بالاسوارتين. أليس ابننا؟ نود أن نفرح به.

بكى الزوج دون أن تلحظ زوجته دمعتيه المنسابتين على خده، تطلع إلى صورته على الحائط وقال:

- لماذا فعلت هذا؟ لو قلت لنا أين ذهبت.

في الصباح جاءهم الجيران يسألونهم أن كانوا سمعوا خبراً أو عرفوا شيئاً: وجدوا الأب مهموماً حزيناً، لم يتكلم أية كلمة. الأم كانت تبكي. وحين أوشك الجيران أن يغادروا صرخت بأطفالها الذين لم يصنعوا القهوة للجيران، قال الجيران كلمات ليخففوا من ثورة الأم، ولكنهم لم يفلحوا في إيقاف الدموع الغزيرة التي ذرفتها عيناها. وأمام الجيران صرخ الزوج بزوجته:

- والله إن لم تكفي عن البكاء فسأهرب مثله، لاحظ الجيران استخدامه لفظة أهرب فأيقنوا أنه غادر بإرادته، طمأنوا الأم قائلين:

- لا بد سيعود.

وغادر الجيران. الرجال ذهبوا إلى أعمالهم والنسوة لممارسة أعمالهن المنزلية.

وخاطب الأب أبناءه:

- ألا تودون الذهاب إلى المدرسة؟

نظر الأطفال في وجوه بعضهم لا يدرون ما يفعلون. لم تجهز لهم أمهم طعامهم كالمعتاد. لم تصنع الشاي. لم توقظهم مبكرين. كان وقت المدرسة قد ولى.

ذهب الأب إلى المدينة ليبحث من جديد عله يسمع خبراً فيطمئن أمه، ويعودوا لممارسة حياتهم من جديد.

وظلت الأم جالسة على عتبة البيت تنتظر عودة ابنها.

أمه تروي حكاياته لجاراتها

الله يرضى عليه، كان يحمل الدنيا على كتفه، نقول له مثلنا مثل الناس فلا يعجبه كلامي، كان والده يلح عليه كثيراً بأن لا يخالط الآخرين فينفر من والده وقد يتصايحان، كثيراً ما هددنا بالرحيل، كثيراً ما كان يشكو من العائلة ويقول لو أنه خلق وحيداً. لو أنه لم يخلق، لم تعجبه تصرفات والده ولا تصرفات أخوته ولا تصرفاتي، قلنا له نود أن نزوجك، كان يرفض، لو أنه تزوج واستقر. الله يرضى عليه تركنا هكذا ولم يقل لنا أين ذهب، ربما هرب لأنه أصر أن يتزوج من فتاة رفضنا أن نذهب لخطبتها له.

كان مصراً على ذلك. قلت له: ليست جميلة فلم يعجبه كلامي. قلت له نود أن نزوجك فتاة جميلة، فقال عندما تصبحين رجلاً تزوجي الفتاة التي تودين، لست أدري إن كان

ينسج من أحلامه، قال أنه حلم أنه يسير مرتديا حلة خضراء ويمشي في حقول خضراء يمشي إلى ما لا نهاية.

وقال لي مؤخراً: سوف أهاجر. الحياة هنا مملة. فرحنا لذلك، قلنا عله يذهب إلى الخليج يعمل هناك، فيعود بعد عام أو عامين، يبني بيتاً ونزوجه، ربما نسي الفتاة، لكنه ذهب ولم يودعنا. لم يقل. خرج كالمعتاد، تناول إفطاره، شرب الشاي، مازح أخوته، ولم يظهر أي سلوك غريب.

نسيت أن أقول أنه كان يتصايح ووالده دائما. كان والده يود أن يمنعه من الذهاب إلى النادي، كان والده يشتم كل الناس فيهب واقفاً: لا تشتم الآخرين، ذهب والده إلى أصدقائه وطلب منهم أن يتركوا ابنه في حاله، وحين علم تصايح مع والده. كانا كالديكة يتنافران في الصباح وعند الظهر وفي المساء، فكر أكثر من مرة أن يستأجر بيتاً، ولكنه كان يعدل عن فكرته حين يلحظ حالتي، آخر مرة قال لي عندما أصررت على تزويجه من فتاة جميلة: حتى أنت؟ لم أكن أتوقع منك هذا، ذكرني بالخلافات التي كانت تتم مع أبيه، لعن عيشته منذ الطفولة. ظل يبصق على العمر الضائع. لست أدري إن كان أصحابه مثله. طول عمره تفكيره غير، الله يرضى عليه لو قال لنا أين ذهب؟

الأصدقاء يتساءلون

حين كان الأصدقاء يجتمعون كانوا يقضون أوقاتهم في الثرثرة عن سلوكه الغريب،

- هكذا فعلها فجأة.

هذا ما يؤرقهم، كان صديقاً ثرثاراً، لكنه في أخر أيامه التزم الصمت المطبق، حين كانوا يرونه كان يلاحظون انطواءه على نفسه، حتى أن احدهم قال له ذلك مباشرة، لكنه لم يجد إجابة سوى الصمت.

كان برجوازياً صغيراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. كان نزقاً قلقاً لا يلتزم بموعد. يستمع كثيراً. يؤمن بما نؤمن، لكنه لا يفعل شيئاً جماعياً. نقول له يجب أن تشاركنا فعلنا، فيجيب بالإيجاب. نطلب منه أن يلتزم، فيرفض ذلك بشدة، نحاوره فيعترف بأنه على خطأ. يأتينا. يسير معنا، يناقشنا، يتحدث عن الأوضاع بأسلوب علمي ولكنه، لكنه برجوازي صغير،

إنه حالم رغم أنه عملي. أنه متشائم رغم أن سلوكه اليومي عكس ذلك.

مؤخراً وصلته رسالة من صديق له لا أدري محتواها بالضبط، ولكنه حين قرأها علق:

- مساكين يحلمون.

أظنه تحدث لي عن هذا الصديق وحواره معه. كان يقول لي، أنهم يُنظّرون هناك لأنهم يفترشون مساحة الوطن العربي، لأنهم بعيدون عن الواقع الذي نحيا.

أظنه كان يعني حالة المفارقة التي يحياها الآخرون، تلك الحالة التي تجعلهم يحلمون ويحلمون فقط. كان برجوازياً صغيراً يريد أن يدمر العالم كله فجأة، ليبني عالماً آخر. كان يريد أن يختصر الطريق.

معه الحق في ذلك. كان نشيطاً جداً. صحيح أنه متشائم، ولكنه أكثرنا عملاً. يأتي من عمله إلى المؤسسة ليعمل. كل أصدقائه كانوا يلومونه. كانوا فاقدي الأمل في المؤسسة، لكنه كان يأتي ويعمل. استمع إلى إهانات كثيرة شتمه اقرب الناس إليه، لم يسيء إلى أحد.

يمازح الصغار والكبار فيعلق الآخرون:

- يريد صوتاً انتخابياً.

كان يذهب إلى السوق يجمع التبرعات، يشتري الكتب. يكتب الجريدة ويسطرها ويعلقها، كان نشيطا جداً. كان يتحدث عن بشر آخرين. في الأشهر الأخيرة أصيب بردة فعل رهيبة. لعله قرر أن يقاطع الناس كلهم، مرة قال: سوف أجلس في غرفتي وحيداً، لا أريد أن أحدث أحدا يأتيني عزرائيل فيقتلني أو أقتله، ولكنه كان يأتينا يومياً لنذهب معاً. أخذ يردد مقولات لم يكن ليرددها. بل أنه كان يسخر ممن يرددونها. في أيامه الأخيرة قال:

مجتمعنا متخلف اجتماعيا ولا أمل، ولا بد من معجزة، قلنا له تزوج، فقد تستقر بعض الشيء. ضحك وقال: لماذا؟ أمي تود أن تزوجني كذلك.

أنا عارف، هذا ليس كأهله. لو تركوه يفعل ما يشاء. هل تذكر يا جهاد حين جلس مكانك أخر مرة. تحدث عن الحياة كما يتحدث عنها كهل، لم أر شاباً في سنه متشائماً إلى هذه الدرجة، كان يشرب الشاي عندنا وينظر في الأرض طويلاً، كان ساهماً حزيناً. قلت له ما رأيك أن تعيش بيننا فرفض، قال إنه سيهاجر. قلت له: لماذا تهاجر ؟ لم يجب.

في أيامه الأخيرة كان مختلفا تماما. حين كنا نختلي معاً كان يحدثني عن الهجرة إلى غير رجعة. ولكنه كان يتراجع عن هذه الفكرة حين يلحظ الأرض المزروعة بالمعادن، ويضيف: لو أننا أسياد أنفسنا لهاجرت فوراً. صحيح أنني لا أفعل شيئاً، لكن وجودي يجعلني

أشعر أني أفعل شيئاً. كان يردد لفظة الهجرة بعد أن كان يحاربها. قال سأهاجر إلى أوروبا وأعيش متسكعا في شوارعها وباراتها. هذه البلاد قاتلة. كان يقول لي كلاماً كثيراً عن الأصدقاء والأهل والمؤسسة. حين كنا نعود من العمل كان يتأمل جبال بلاده بشكل لافت للنظر ويهمس:

- بلادنا جميلة لكننا لا نعرف كيف نستمتع بها. شتم العمر الضائع مرات كثيرة. لكنه أخذ يلتزم الصمت رويداً رويداً. فقد الأمل بكل شيء لكنه كان أكثرنا نشاطاً. لم يحل اليأس بينه وبين العمل. في البداية كان يناقش الزملاء في العمل. يحتدون معاً. في النهاية أخذ يردد: كلنا ضحية. كان يسأل دوماً عن مسافر ليحمله رسائل كثيرة. لست أدري إلى أين يرسلها. كنت أتوقع أن يفعل هذا. لم يكن يخشى شيئاً لدرجة أننا كنا دوماً نقول: أنه متسرع.

المهرة الجامحة

كان يكتب هذه العبارة على أوراقه بكثرة. لم يدر أحد سر هذه المفردة، غير أنه كان يحلم كثيراً ويحدث أحلامه للجميع: أرض خضراء، وشمس ربيعية وبيوت أنيقة، شوارع واسعة وأطفال ونساء ورجال يذهبون نحو البحر، يسبحون ويقضون أيام عطلهم، يعودون متأخرين في المساء دون خوف أو فزع، دون أن يراقب احد الآخر. دون أن يوقف جندي الآخرين ليسألهم عن ورقة يثبتون بها أنهم هم. كان يحلم كثيراً بمهرة جامحة. يرسمها ويتخيلها تضرب الأرض بقدميها مسرعة مسرعة.

(مجلة الكاتب ١٩٨١)

عادل الاسطة

وردة لروز

وردة لفائزة

قصص قصيرة

١٩٩٥

عادل الأسطة

مواليد مخيم عسكر ١٩٥٤. أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٧٢. التحق بالجامعة الاردنية وحصل عام ١٩٧٦ على بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها والتربية وعلم النفس. عمل بين عامي ٧٦- ١٩٨٠ مدرسا في مدارس مدينة نابلس وقراها. حصل عام ١٩٨٢ على الماجستير في الأدب الحديث والنقد. يحاضر منذ عام ٨٢ في جامعة النجاح.

سافر الى المانيا عام ١٩٨٧ وحصل عام ١٩٩١ على الدكتوراة في الأدب والنقد والتربية والعلوم الاسلامية من جامعة بامبرغ.

عمل محررا ثقافيا في جريدة " الشعب" بين الأعوام ٧٩ - ١٩٨٢ و ٨٦ - ١٩٨٧. وصيف ١٩٩٢.

صدرت له الكتب التالية :

١- القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة بين ٦٧ - ١٩٨١. (رسالة ماجستير) (نابلس ١٩٩٣)

٢- دراسات نقدية . (١٩٨٧)

٣- اليهود في الأدب الفلسطيني بين عامي ١٣ - ١٩٨٧ (١٩٩٣) رسالة الدكتوراه (باللغتين الالمانية والعربية).

٤- الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني (١٩٩٣)

٥- فصول في توقيع الاتفاقية (١٩٧٩). قصص قصيرة.

٦- الفارعة والشمس والبحر (١٩٨٧). قصص قصيرة.

٧- وردة لروز .... وردة لفائزة ١٩٩٣، قصص قصيرة.

٨- تداعيات ضمير المخاطب، رواية، ١٩٩٣م.

وترجم عن الالمانيه العديد من الدراسات، ونشرها في مجلة "الكاتب" المقدسيه خلال عام ١٩٩٢. وهناك نص أدبي تحت عنوان " ليل الضفة الطويل" (١٩٩٣)، ورواية بعنوان "الوطن عندما يخون" (١٩٩٥) .

الى

ناجي العلي :
الشاهد الشهيد

وضع المسدس بين رؤياه، وحاول أن ينام
ان لم أجد حلما لأحلمه سأطلق طلقتي
وأموت مثل ذبابة زرقاء في هذا الظلام
وبلا شهية

" محمود درويش "
" هي أغنية ... هي أغنية".

اشارة

كَتَبْتُ في التمهيد لطبعة رسالة الماجستير (نابلس ١٩٩٣) التي عنوانها "القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٨١/٦٧،:" انها ما زالت تشكل أساسا لما يتجاوز بعد، بشكل لافت، في حركة القصة القصيرة، وأن ما يطبع، في أكثره، ليس سوى تراكم كمي" وذكرت أسماء العديد من المجموعات القصصية التي صدرت مؤخرا ضامة بين ثناياها قصصا كتبها مؤلفوها في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، وينسحب هذا على المجموعة القصصية هذه نوعا ما، فما الذي تضيفه هذه المجموعة القصصية حين أدفعها للنشر غير هّياب؟

لقد نشرت، من قبل، مجموعتين قصصيتين هما " فصول في توقيع الاتفاقية" (١٩٧٩) ، و " الفارعة والشمس والبحر " (١٩٨٦)، وتضم الأخيرة قصصا كتبت بين عامي ٨٠ - ١٩٨٦، الأعوام التي كتبت خلالها أيضا الكثير من قصص هذه المجموعة الثالثة، المنشور أكثرها في جريدة" الشعب" المقدسية خلال عملي محررا ثقافيا لصفحاتها الثقافية ابان الأعوام ١٩٨٢/٧٩ و ٨٦/ ١٩٨٧. فهل تعتبر هذه المجموعة، اذن، مجرد تراكم كمي للنتاج الذي نشرته من قبل ؟ ثم ماذا تشكل من اضافة لحركة القصة القصيرة في فلسطين كلها ؟

سوف اترك الاجابة عن السؤال الأخير لأنه لا يحق لي، هكذا أرى، تقييم نتاجي الأدبي وتحديد موقعه ضمن النتاج الأدبي بعامة، ولأنني أيضا لا أرغب في ان أكون، امام الآخرين، ناقدا لقصصي. ولكن هذا لا يمنع من أن أنظر اليها بعين الناقد قبل دفعها للطبع، فأنا على يقين من أن الكاتب هو الناقد الأول لما يكتب، وبخاصة حين يدفع عملا ما الى الطباعة والنشر.

هنا ينبغي أن يكون هاجسه السؤال الأساسي : ماذا تضيف هذه الكتابة الى ما سبق طبعه، نوعا لا كما ؟؟

ليست هذه المجموعة، في بعض قصصها، سوى تراكم كمي لما نشرته في المجموعة الثانية، ولكنها في معظمها ليست كذلك. ثمة اضافات نوعية - هكذا أرى - تتمثل في أن كثيرا منها يقوم على المفارقة، السمة التي تميز حياتنا منذ وسط الثمانينات، تقريبا، بامتياز. المفارقة الصارخة في حياتنا كلها؛ فأنت تجد الثوري واللص في شخص واحد، وأنت تجد أيضا المنظر للصمود والبقاء على أرض الوطن أول الفارين الهاربين الراحلين حتى لو لم يكن هناك أدنى سبب لمغادرته وهجرته، وأنت تجد أيضا الاستاذ الجامعي الذي يتحدث عن المبادىء والاخلاق أول من يبيع ضميره أمام منحة دراسية قصيرة، فيقول ما لا يعرف ويشهد على ما لم ير، وتجده أيضا يحتج على تدريس رواية لبعض عبارات نابية ترد على لسان أحد شخوصها في الوقت الذي يحفظ من النكت البذيئة، بل ويطرب لسماعها، ما فيه من البذاءة أكثر، بما لا يقارن، مما ورد في الرواية. وأنت تجد أيضا الفتاة التي ترى في التعليم تحقيقا لشخصيتها اسرع من غيرها في قبول أي رجل يتقدم اليها خائفة من قطار الزمن يفوتها فتصبح عانسا.

هذا هو الهاجس الذي كان يطغى عليّ وأنا أكتب قصص هذه المجموعة بين عامي ٨٦/ ١٩٨٧. وهذا هو الهاجس الذي يلح علي وأنا أدفعها للطبع. فما كان سائدا، في حينه، هو السائد الآن بامتياز أيضا، حتى لكأن الانتفاضة لم تنفض فينا ما علينا من غبار الا لتكشف عرينا، ويزيد الطين بلة أننا نقف ومن كنا نتهمهم بالامس في الخيانة في خندق واحد، دون أن يكونوا هم تغيروا أصلا، وذهب الأمور بنا الى أبعد من ذلك فقدمنا لبساطير الجنود أغصان الزيتون في الوقت الذي ما زالوا فيه يشهرون أسلحتهم في وجوهنا.

سيلحظ القارىء ان قصص هذه المجموعة، الا أقلها، لا يأتي على ما يجري الآن من أحداث. لقد شاءت الظروف أن أغادر قبل بدء الانتفاضة بشهرين الى المانيا لاكمال دراستي العليا هناك، فحالت سفرتي هذه دون معايشة هذه التجربة الا في نهايتها، التي غايرت بدايتها كما يقول الكثيرون، وكما اكتشفت حين عدت بحيث ناقض المرئي المسموع، فقد كان ما أسمعه يشكل الجانب المضيء للانتفاضة، وحين عدت ورأيت كان الناس الذين فرضوا هذه المفردة " الانتفاضة" على اللغات العالمية يحرفونها متندرين " "أنت فوضى"، ولأنني، حتى أكون منصفا، أحب أن أصور وجهي الواقع، أثرت عدم الكتابة عن الجانب السلبي الذي رأيته، الجانب الذي لا يصور إلا الفتره الأخيره فقط، الفتره التي عشتها، خلافاً للفتره الأولى التي لم أعشها ذات الجانب المشرق. فأنا شخصيا لا أكتب الا حين أعيش التجربة.

آمل ان تكون هذه المجموعة قد أبرزت بعض ما فينا - وفيّ أيضا - من تناقض صارخ.

عادل ألأسطة
١٩٩٣/٤/٢٨

مديح

كان الناس، على الرغم من حر آب القائظ ، يسيرون على الأرصفة زرافات ووحدانا. وكان دوار المدينة الرئيسي، على عادته في فصل الصيف، مكتظا بالعربات وأصحابها الذين يهتفون بصوت مرتفع عارضين بضاعتهم. وعلى امتار بعيدةنوعا ما كان ثمة طفلان يركضان. وقد لفت هذا انتباه الآخرين فكف هؤلاء عن البيع والشراء، واخذوا ينظرون باتجاه هذين. وتساءل احد المارة، هل ثمة جنود يلاحقونهما؟ فأجاب آخر :
- بالتأكيد . ان هذا لا يحتاج الى اثارة سؤال.

وكان الأخير يعبر من خلال كلامه عن حالة يومية مألوفة منذ خمس سنوات. فقد كان هروب اثنين اسهل الأمور. فمنطقة الدوار تحديدا كانت تشهد حركات اخرى : اطارات مشتعلة وصوت رصاص وزامور سيارة الاسعاف، واحيانا هروبا جماعيا. وكان الناس يتساءلون دائما :
- كم قربانا قدم لهذا الوطن هذا اليوم.

لقد كان الاستثناء خلال السنوات الخمس هو مرور يوم بلا شهداء، او ممارسة المدينة لطقوس روتينية كانت عليها قبل هذه الفترة. وكان الناس قد اخذوا يتندرون قائلين :
- ان حياتنا هنا عطلة دائمة تتخللها ايام عمل .

ولم يكونوا يبالغون في ذلك . لقد كانت تمر عليهم ايام عديدة دون ان يتمكنوا من الخروج من منازلهم بسبب منع التجول المفروض، وقد قال رجل ذات نهار مازحاً : إن من حق نسائنا وأطفالنا علينا أن نجلس معهم بعض الوقت. واجابته امرأته، ولا يعرف المرء حقا ان كانت تعبر في قولها عن حقد دفين تكنه لزوجها، قائلة :
- اننا نحب ازواجنا ، وكذلك اطفالنا ، ولكن حين يكونون خارج البيت.

وكان احد المارة يراقب الطفلين، وهما يركضان، متعقبا خطاهما ، ناظرا الى المكان الذي جاءا منه، دون ان يعثر على اثر للجنود . ثم اخذ يتلفت الى بائع التفاح الذي كان ينادي :
- ثلاثة كيلو بخمسة شيكل يا استاذ .

وتوقف الاستاذ بالقرب منه واخذ يختار من حبات التفاح ما راق له شكله. وكان بالقرب من عربة بائع التفاح بائعان آخران يبيعان البندورة والخوخة، وكان احدهما يتفحص بضاعته ، قائلا :
- بضاعة اسرائيلية . انهم افضل مزارعين في العالم.

وبينما كان بائع التفاح يزن التفاح للاستاذ، كان هذا الأخير يختار حبة او حبتين حتى يكتمل الميزان، وقد كان محتارا بعض الوقت لعدم عثوره بسرعة على ما يروق له. وحين لاحظ البائع ، الذي كان يمدح البضاعة ، تردده - وكان هذا البائع طالبا جامعيا ذا توجه يساري - قال :
- خذ حبة بروليتارية ياستاذ. هل تريد التفاح كله برجوازيا ؟

وكان الاستاذ يبتسم ويقول له :
- ولكنها بضاعة اسرائيلية . اليست زراعتهم افضل زراعة في العالم؟

ولم يعقب البائع. وحين نقده الاستاذ ثمن التفاح كان ينظر حوله علّه يعثر على الطفلين الراكضين، وكذلك فعل البائع الآخر الذي اخذ يعقب قائلا :
- لعل هذا النهار يمر بخير، الله يستر.

فلقد كانت الايام الماضية تمر في ذهنه. كان الاطفال يهربون، وكان الغزاة يتعقبونهم، وحين ييأسون من الامساك بالهاربين كانوا ياتون الى العربات واصحابها. يضربون الأخيرين ويتركون البضاعة ملقاة على الشارع دون ان يسألوا ان كانت بضاعة اسرائيلية ام لا، وكانت ضحكات افواههم تسير جنبا الى جنب مع ضربات احذيتهم .

كان الاستاذ وهو يغادر، يقرأ هذا في عقل البائع الآخر، ثم أخذ يحث الخطى فارا من اشعة شمس آب اللاهبة، محتميا بظل بقايا اشجار شذبت حتى لا يختبىء الاطفال والهاربون بين اغصانها حين يلاحقهم ذوو اللباس الأخضر.

نابلس ١٩٩٢/٩/٢

اعجاب

ينظر اليها، تنظر اليه، ثمة اعجاب ما. احساس داخلي ما. لغة اخرى، تجلس وراء مكتبها، وحين يمر يتبادلان النظرات، يترددان في الحديث معا. " انها صغيرة السن" يقول. وكان دائما ينتقد الزواج المبكر للفتيات، وينتقد اكثر من هذا، الزواج الذي يكون الفارق في السن فيه كبيرا.

وتود هي لو تفاتحه في الأمر، ولكن والدها سوف يرفض بالتأكيد". ان والدي شخص متعصب للماضي بكل ما تحمله هذه المفردة، للانتصارات الاسلامية والعربية، وللعادات والتقاليد. وهذا الرجل لا احد يعرف سره، ثمة حيرة ما. ثمة وجهات نظر مختلفة، وفوق هذا فلا احد يستطيع تحديد انتماء له" تقول، وتتابع " ربما يكون الأمر مجرد تشويه ".

شيء ما في داخلها يدفعها نحوه، صبية في العشرين ترتدي احدث الازياء الاوروبية، ومؤخرا اخذت تترك شعرها ينساب على كتفيها تارة، وطورا تضمه لينساب على جهة واحدة.

وهو ينظر اليها، تعرف هذا، تتجاهله احيانا ويتجاهلها هو ايضا احيانا. وهي لا تكترث للفارق الكبير في السن. ثمة ما هو اهم من هذا : رأيه في التاريخ.

* تذهب الى صديق لها. تطلب منه ان يسأله عن رأيه في التاريخ العربي. فيقول لصديقها، دون ان يعرف انه مرسل منها بالتأكيد، كلاما لا يعجب والدها، وتعرف بهذا.

تمر بالقرب منه، تمشي سريعة، تلقي بنظراتها على الطرف الآخر، تتجاهله تماما، فوالدها له رأي آخر في التاريخ.

هو ينتقد الفارق في السن، ويعرف ان ليس هناك ما يجعل علاقة كهذه تنتهي ايجابا، وينسى الفكرة من اساسها.

وهي تنظر اليه باعجاب، ولكنها تتردد لتناقض رؤاه مع رؤى ابيها. تنظر الى ابيها باحترام، تريد رأيه في الموضوع، تنظر الى الشخص ايضا دون كلل، وتواصل ايضا ارتداء الملابس الاوروبية الآخاذة دون ان يكترث والدها المتعصب للتاريخ لهذا الأمر. ويمضيان. هو نحو الهرم، وهي نحو التاريخ والملابس البراقة.

نابلس ٢/٩/ ١٩٩٢

ثلاثة ايام حزيرانية
في حياة يوسف. م

صباح حزيراني -١-

انتفض يوسف .م حين جاءت الممرضة لتحول بينه وبين وضع اناء الماء تحت الحنفية. وكاد يمسك بشعر رأسها، وتمنى لو انه يجزه ويراها بدونه: هكذا صلعاء. وتساءل من اين اتت هذه البلية الآن. لقد مرت ثلاث ساعات وهو ينتظر دوره. وما كادت الساعة تبلغ الثامنة صباحا حتى ظل امام وعائه وعاء. ونسي ساعتها الصحو المبكر وتعب المساء وملاحقات مسؤول المياه وشرطة المخيم الذين ما انفكوا يغيرون ليلا على الأوعية المصفوفة ليمعنوا فيها تخريبا، وفي احايين كثيرة كانوا يجمعونها ويضعونها في سيارة ثم ياخذونها الى الوادي وحين هم بوضع الاناء تحت الحنفية جاءته هذه البلية لتفسد عليه فرحته التي لم تكن تبدأ لتنتهي . لقد طارت احلامه، وكانت اشعة الشمس اللاهبة هي التي بدأت تبخرها رويدا رويدا ، وما بقي منها طار مع وضع هذه البلية اناءها قبل انائه.

كانت ترتدي قميصا وتنورة بيضاوين منحتها وكالة الغوث اياهما ليتناسبا ووظيفتها في العيادة القريبة من عين الماء، وكان ثوبها يمنحها بعض الجرأة ، فمنذا الذي سيعترض عليها ان جاءت بالأباريق لتعبئتها. ولكن يوسف .م الذي كان يقف منذ الصباح ليبيع الماء حتى يحصل على بعض القروش خالف الجميع في ذلك الصباح. كان يقف وعلامات الشر تبدو على وجهه. لقد جاءت واعتدت عليه حين وضعت اناءها قبل انائه، ومنذا الذي يقنعه بأن مسؤول المياه في المخيم لن يذهب في هذه الساعة بالضبط ليغلق محبس العين « هذه اللعينة لو اجز شعر رأسها واراها صلعاء. ولكن هل سأذهب الى السينما هذا النهار. وما فائدة ذلك اذن».
كان يفكر في النقود ، وفي اصدقائه الذين يخدمون في المطاعم ليحصلوا على بعض النقود، ويدرك ان دخلهم مضمون، فكيف اذن يذهبون الى السينما ولا يذهب.

« اللعنة على هذه اللعينة. لو اجز شعر رأسها واراها صلعاء ... ولكن ...».

امتلأ غيظا وحقدا . وفكر لو انه يحول بينها وبين وضعها اناءها، ولكنه كان يتساءل : هل ساستطيع فعل ذلك ؟!

في هذه الأثناء كانت الممرضة ترفع الابريق الأول وتضع ابريقها الثاني، وكان يوسف .م يفكر، وفجأة صرخت على الشرطي القريب. اخذت تزبد وترغي وتتحدث بلهجة انسان عصبي، كانت الكلمات سريعة سرعة يوسف.م في اثناء هربه. وحين اقترب منها الشرطي متسائلا عما فعله قالت : لقد فعلها ، بصق في الابريق ابريق الصحة وهرب .

بعد عشر دقائق كان يوسف .م مقوداً الى مخفر الشرطة ويداه مقيدتان. والناس الذين كانوا ينظرون اليه، كانوا يضحكون ويهمسون : الله الله يا يوسف .م تتحدى الدولة ووكالة غوث اللاجئين. تبصق في اناء الماء المخصص للعيادة، وكان يوسف .م يمشي غير آبه . كأنه سلطان زمانه، وتخيل في هذه الاثناء نفسه بطلا. الم يكن الجميع معجبا بحركاته البهلوانية حين نظمت المدرسة مهرجانا رياضيا. لقد كان يقف في الاعلى ، على رؤوس الجميع من الطلبة الذين شاركوه في اللعب، وعلى الرغم من صوت المدرس المثير للضحك، الصوت الرتيب، فقد كان يتماسك حتى تحصل مدرسته على المرتبة الأولى. وها هي العيون تتطلع اليه ثانية، والشرطي الذي كان يقول للاشياء كوني فتكون، يسير خلفه، خلف طفل لم يتجاوز الثانية عشرة .
وفي المخفر حصل ما لم يكن يفكر فيه. قال : لعل الشرطي يقول كلاما يوبخني فيه على فعلتي، ولعله يطلب مني ان انظف ارضية المخفر؛ هكذا كان يفعل مع كل من يرتكب فعلة ما مخالفة للنظام، ولكن حين دخل الى الغرفة والشرطي وراءه ثم اغلق هذا الأخير الباب ارتعب رعبا لا يوصف. كان الشرطي يحمل كرباجا لم يكن يوسف .م ليتخيله على الاطلاق . وبدأ يضربه ضربا موجعا حتى سقط مغشيا عليه. في اللحظة التي افاق فيها لم يكن يوسف. م ليفكر في رؤية الشرطي اصلع كما تمنى ان يرى الممرضة. فكر في اشياء كثيرة، ولكنه في النهاية تمنى لو يرى الشرطي مرتديا زي امرأة . اي نعم. زي امراة، فذلك افضل شيء. وقال : يومها سازفه في الحارة، وفي حارات المخيم كلها، ومع ذلك فلم يفلح في تخيل الصورة. ولم يخرجه من تخيلاته سوى صوت الشرطي الذي كان يقول له: في المرة القادمة سوف احبسك في الحمام. اخرج وعد الى اهلك. في الطريق، لم يكن يوسف .م لينظر الى ألاخرين؛ نسي الماء والدرس والاصدقاء والسينما وكل شيء الا الشرطي الذي يرتدي زي امرأة. وحين وصل الى البيت نام نوما عميقا وفي اثناء نومه كانت حرب حزيران قد بدأت، وبعد اسبوع كان يسأل عن الشرطي.

لعله اراد ان يراه كما رآه حين وقف امامه رجلا ومحاربا.

نابلس ١٩٨٧/٧/٢١

صباح حزيراني -٢-

لما افاق يوسف .م في ذلك الصباح الحزيراني من النوم، وجد الرجال الذين زاد عددهم عن العشرين وقد أفاقوا كسالى شاحبي الوجوه، وأخذوا، للتو، يستمعون الى نشرة الأخبار وقد اصغوا جيدا الى صوت المذيع الذي لم تكن نبرته كما كانت في اليومين السابقين.

سار يوسف .م بين الفُرَش المطروحة ارضا بحذر زائد خوفا من ان يصطدم بأحد الرجال، وتوجه نحو الحمّام فوجده محجوزا. ونظر حوله فوجد ثمة نسوة ينتظرن، وأخذ ينتظر مثلهن. وللحظات أخذ يلعن الحرب التي بسببها ترك المخيم، وجاء مع أهله الى البلدة القديمة لينحشر في غرفتين كبيرتين مع اربعين فردا على الأقل. وقد سبب له هذا، وصوت الأطفال الذين ما انفكوا يبكون طيلة الليلة، صداعا شديدا. كما أخذ يلعن اللحظة التي قرر فيها والده الذهاب الى المدينة حرصا على ارواح عائلته. " لو كنا الآن في المخيم" قال يوسف .م هامسا " لبُلْتُ دون مزاحمة"، وأخذ ينتظر دوره وحين هّم بدخول الحمّام هّم طفل صغير بدخوله قبله، ودفعه الى الأمام، وكادت الحرب تنشب بينهما، لولا تدخل أم ذلك الطفل التي قالت : "بكفينا الحرب الدايرة".

وحين خرج يوسف .م من الحمّام لم يتجه صوب غرفة الرجال، فقد ساقته قدماه الى غرفة النساء التي لم تكن أحسن حالا من الغرفة الأخرى. لقد كانت الرائحة كريهة تملأ المكان، وخلافا للرجال فأن النسوة لم يستمعن الى المذياع . لقد كان صوت الأطفال يعلو فوق صوت المذيع الذي يبث أخبار الحرب. واتجه يوسف.م صوب الجهة التي تجلس فيها أمه، فوجدها تتحدث مع امرأة من المخيم الذي يقيم فيه، كان زوجها، في أثناء الحرب، مسافرا وأصرت يوم غادر والده المخيم ان تغادر مع العائلة. وكانت المرأة حزينة، فقد كانت تخشى من ان يعود زوجها ولا يجدها في البيت فيحاسبها على هذا التصرف حسابا عسيرا. ولم يخفف كلام أم يوسف.م من روعها حين كانت تقول : " انها الحرب، والوضع غير طبيعي". وكانت هذه، بدورها، تشكو من ألم بأسنانها، حال بينها وبين النوم طيلة تلك الليلة، وقد بدا الشحوب واضحا وضوحا بينا على وجهها، وحين سألت اختها عن الاسبرو، علّها تخفف من حدة الوجع، اعتذرت هذه قائلة : للأسف ما فيش. وذهبت أم يوسف.م الى المعبر الفاصل بين الغرفتين وصرخت على زوجها طالبة منه ان يذهب ويشتري لها دواءا ما. فرد عليها : " يا ولية، الساعة الآن السابعة صباحا، والبلدة مغلقة" وطلب منها ان تصبر قليلا، وان تحتمل الألم، فهناك ما هو أهم من الوجع، هناك الأخبار التي أوحت لهم في اليومين السابقين بانتصار قريب.

بعد فترة تقارب الساعة غادر الرجال جميعهم المنزل يحملون البنادق القديمة التي استلموها قبل بدء الحرب بيومين اثنين تقريبا. وكانت الأم ما تزال تنتظر عودة زوجها بالدواء، ولما فقدت الأمل بذلك لم تمانع في خروج ابنها يوسف .م بشرط ان يذهب ويحضر لها دواء ما يخفف من حدة المها المتصاعد.

كان يوسف.م مسرورا، فهو سيغادر هذا السجن الجديد، وسيرى الشرطة ورجال الدفاع المدني وهم يجوبون الشوارع، وسيجوب الشوارع مثلهم، وحجته في ذلك البحث عن الدواء. وما زال يوسف .م يذكر المعركة التي دارت بين المرأة والشرطي الذي لحظ ابنتها تنظر من الشبابيك فدخل البيت غير مستأذن، وكانت المرأة تغسل ورجلاها غير مستورتين. لقد هجمت المرأة عليه وضربته بحذائها قائلة : "انك رجل لا يستحي"، ولولا الحرب القائمة لقامت بينهما حرب أخرى.

غادر يوسف.م الحوش، حوش الأرامل كما كانوا يسمونه لكثرة الأرامل في ذلك الحي، وأخذ يسير في سوق الحدادين. وأول ما فعله أن سار يسارا ليرى مناظر الفيلم الذي كان يعرض في سينما (ريفولي) قبل الحرب، ثم سار باتجاه سينما (غرناطة) بعد ذلك، وكان يهمس :"انها فرصة" للخروج من البيت المكتظ بالسكان.

وكان سوق الحدادين فارغا من المارة، والدكاكين مغلقة، وكان يوسف.م الوحيد الذي يتبختر في الشارع. ويومها لم يكن يعرف للخوف معنى. ولم يلتفت كثيرا للرجال الجالسين على باب دكان الحلاقة وهم يستمعون الى المذياع. وحين سألوه : الى أين يا ولد، وكان والده من بينهم، أجاب : اريد ان أشتري دواء لأمي. وطلب منه هؤلاء ان يخبرهم بما يرى حين يعود. وقد تمنى يوسف.م لو أنه كبير ليحمل بندقية مثلهم، ولكنه، مع ذلك، كان يرغب في ان يرى مناظر الأفلام المعروضة أكثر من هذا كله، فقد كانت هذه الرغبة تلازمه منذ فترة، وما من مرة كان يذهب فيها الى المدينة الا وذهب الى السنما ليمارس هذه العادة، وكان حين يعود الى المخيم يخبر زملاءه بأسماء الأفلام المعروضة.

سار يوسف.م باتجاه اليمين، قاصدا دوار الحسين، وكان الوحيد الذي يجوب الشوارع. بحث عن صيدلية فما وجد واحدة تبيع. لقد كانت جميعها مغلقة أبوابها. وهّم في هذه الأثناء ان يتابع سيره ليتابع رؤية مناظر الأفلام في سينما العاصي، ولكنه تراجع أمام سماعه لزامور الحظر، وهّم يعدو هاربا، لكنه توقف حين لحظ امرأة بالقرب من مكان تنظيف السيارات، تقف ومعها ابناها الصغيران. واتجه نحوها وأخذ يسألها ليعرف منها شيئا ما، يخبره لأولئك الرجال الذين يحملون البنادق، وسألها : من اين حضرتك؟ فاخبرته انها من قلقيلية التي احتلها اليهود، فهربت مع من هرب من سكانها، وكادت دمعة ما تسقط من عينيها وهي تتحدث.

وقد تركها يوسف.م وحيدة دون ان يعرض عليها الذهاب معه الى الغرفة التي يقيم فيها، فلا هو صاحب البيت، ولا البيت يتسع. وأخذ يخُذ الخطى مسرعا باتجاه الرجال الجالسين أمام دكان الحلاق. وحين اقترب منهم سألوه : آه ماذا رأيت ؟ أجابهم بما رأى . ولم يكد يكمل الاجابة حتى كانت كفّ احد الرجال تلطم وجهه، وكان الرجل يقول له :

طابور خامس. ولم يحرك والده، الذي أخذ يضحك، ساكنا. ولم يفهم يوسف.م معنى هذه العبارة، ولكنه ما كاد يقترب من الحوش حتى كانت الطائرات الاسرائلية تسقط اوراقا تدعو أهل المدينة الى الاستسلام وعدم المقاومة. ونظر حوله فوجد الرجال وقد أخذوا يهرعون من أماكنهم وهم في حالة ذعر. وسار باتجاه البيت، ناسيا المرأة والاوراق والدواء والرجال وكل شيء، الا العبارة التي ألصقها به ذلك الرجل.

صباح حزيراني -٣-

كان يوسف.م مساء ذلك اليوم الذي اتهم فيه بأنه طابور خامس يراقب ما يفعله الآخرون. فقط لاحظ كيف اجتمع الرجال في البيت، وأبصر كيف أنهم أغلقوا الأبواب اغلاقا محكما، بدءا بالباب الخارجي للحوش وانتهاء بباب المنزل. وخلافا للآخرين الذين لم يصدقوا ما ورد في الورقة البيضاء، كان يشك في انّ ثمة امرا غامضا ما ليس لصالح العرب. كان يستمع الى الآخرين وهم يقولون : انها حرب اعلامية، ويراقب حركات وجوههم، وهم يستمعون الى المذياع، ويعجب كيف انهم، على الرغم من اختلاف نبرة صوت المذيع، ما زالوا عند رأيهم بأن النصر قادم. ولولا أن الطائرات أخذت تقصف أطراف المدينة، لظل ايمانهم بالانتصار لا يتزحزح قيد أنملة.

أطفأ الرجال النور، وأخذوا يتحدثون بصوت خفيف، ولم يحاول يوسف.م اخراج اي صوت، وكذلك فعل الصغار الآخرون، ولم يدر متى غط في نوم عميق، فقد أفاق، وبسرعة، تسلل الى غرفة النساء. كانت المرأة التي حضرت من المخيم واجمة، كأن الحرب لم تعنها على الاطلاق، فقد كان همها ان تعود الى بيتها، فقد يكون زوجها عاد في هذه الأثناء. وكان الشيء الوحيد الذي يشغل بالها هو عودة زوجها ورضاه منها. لقد ملّت مبادلته الشتيمة بالشتيمة، وآثرت الرضوخ لكل مطالبه مقابل ان تربي أطفالها، حتى انها لم تعد تكرر اللازمة التي حفظتها عن ظهر قلب : سلامات ياراحة البال، تركتيني ورحت فين.

حين اقترب يوسف.م من أمّه، طلبت منه هذه ان يذهب ويسأل أباه علّه يعيدهم الى المخيم، وحين أبلغ أباه بهذا هبّ الرجال مذعورين : من يغادر مسكنه الآن. وكان يوسف ينظر اليهم دون أن يبصرهم جيدا، فقد كان دخان السجائر يتضاعد من جميع الجهات، وتحولت الغرفة بسبب التدخين الى محششة حقيقية. وهمس يوسف.م: "لعلهم لم يذوقوا طعم النوم. وكان يستمع الى أصوات بعضهم وهي ترتفع : معقول، وأين الظافر والقاهر؟ ولم يصدق كثيرون ما سمعوا، وظلوا قابعين في الغرفة، بل أن /احدا منهم لم يجرب الاتصال بالغرف العليا من البناية لمعرفة ما يحدث.

في الساعة التاسعة صباحا كانت احدى السيارات تجوب شوارع المدينة، معلنة ان المدينة قد سقطت، وأن لا جدوى من المقاومة، وكان الرجل الذي يتحدث بالعربية يطلب من الناس أن يرفعوا الاعلام البيضاء وأن يسلموا ما بحوزتهم من اسلحة في دار البلدية.

وقد انقسم الرجال الذين يحملون السلاح، في البيت، فيما بينهم، فمنهم من صدق ومنهم من كذب، ومنهم من رأى ان تسلم الاسلحة ومنهم من عارض ذلك. هناك من قال : علينا ان ندفنها فمن العار ان نقوم بتسليمها، وهناك من قال : ان الجيش قد يكون سيطر على القوائم التي سجلت فيها اسماؤنا، واذا لم نسلم الأسلحة فسوف نسجن. وقّر قرار أكثرهم على تسليم الأسلحة، والشيء الوحيد الذي شغل بالهم، في هذه الاثناء، هو من يقوم بتسليم الاسلحة. فلم يجرؤ أحد منهم على فعل ذلك. وكان يوسف.م يستمع الى هذا الحوار كله.

فجأة قال لهم يوسف.م الذي تمنى قبل أيام لو كان كبيرا ليحمل بندقية أنه على استعداد لفعل ذلك، كان مزهوا، فها هي امنيته ستتحقق. ولم يتردد الكبار في ذلك، فيوسف.م مجرد طفل، ولن يطلقوا عليه النار، كما أنهم لن يقتادوه الى السجن، وحتى الرجل الذي ضربه بالامس، وأسماه : طابور خامس، وافق على ذلك. وسار يوسف.م وقريب له آخر يرفعان البنادق وعلى مقدمتها شارات بيضاء.

كانت الطريق ما بين سوق الحدادين والدوار فارغة الا من قطط تجوب الشوارع، وسار يوسف.م وقريبه كما القطط. يحملان البنادق ويضحكان، وكأنهما ذاهبان لاستقبال مسؤول كبير، فغالبا ما كان يوسف.م يعد للقيام بهذه المهمة حين كان في المدرسة. وحين وصلا دوار الحسين فوجئا بجنود لم يألفا وجوههم، فقد كان الشحوب باديا على وجوههم. وحين رأى هؤلاء الطفلين أخذوا يضحكون، فبادلهم يوسف.م الضحكة بابتسامة، وواصل سيره صوب مبنى البلدية.

لاحظ يوسف.م كيف تلقى البنادق تباعا، ومع ان الرجال اوصوه وقريبه ان يتأكدا من شطب اسمائهم، الا انهما لم يكترثا اطلاقا للأمر.

وعادا من حيث اتيا.كانت شمس حزيران ساطعة فلم يحاولا التلكؤ والتباطؤ، وأخذا يهرولان باتجاه البيت، فيما كانت نظرات الجنود تلاحقهما. وفي الطريق كان يوسف.م يتساءل عن رجولة الرجال الذين طالبوه ان يكون رجلا منذ ولد، وكان يسأل قريبه سؤالا واحدا : هل تعرف معنى طابور خامس ؟ وتذكر ذلك الرجل الذي يقبع الآن في البيت مع النسوة، ذلك الرجل الذي صفعه قائلا : يا طابور خامس .

أهكذا ، فجأة ، يا آنسة ؟

اهكذا، فجأة، يا انسة؟

كان هذا ما يدور في خلدي وانا استمع اليها ذلك النهار.
ببساطة قالت :
- كما ترون. انت ادرى
قلت لها :
- ولكنه قرار يخصك انت.

كانت قبل ذلك باعوام تطلب من اهلها ان يسمحوا لها بالدراسة في عمان، وحين كانوا يترددون كانت تقول :
- انا لست صغيرة بامكاني ان اتصرف. انا في الثامنة عشر من العمر.

ذات نهار جاءتني وقالت لي :
- ثمة موضوع اريد ان اقوله. لا احد يستمع لي الآن، او الأصح انك الوحيد الذي استطيع ان ابوح له باسراري.
قرابة ما كانت تربطنا، وكنت اتحدث عن المرأة والزواج والاختيار حديثا فيه قدر من الكرامة الانسانية.

قالت لي :
- انه شاب من قطر عربي، ولكني اعرف ان اخي يرفض ذلك . وانا التقيت به في الكلية في عمان. اخشى... اخشى.
وقلت لها :
- ارى ان من الافضل ان يفاتح اهلك بالامر وان تتحدثوا بوضوح، لو عرف اخوك بالامر ماذا سيفعل؟؟
قالت :
- بالتاكيد ليس من اجابة سوى النفي ... الرفض ... ثم هو قد ... قد يفعل شيئا معي.
حدثتها كثيرا، عن الاقناع، اقناع اخيها بان لا مناص من الاستماع، وليبدا الشخص الذي يرتبط معها بالمواجهة ... ليكن كل شيء واضحا، فالغموض، ايتها الانسة، كما كنت اكرر، يمكن ان يسبب لك من المشاكل ما ليس في الحسبان.

ذات نهار كانت قد قررت ان تلتقي بالشخص وتنهي العلاقة، اذ لا جدوى فهي تعرف اخاها جيدا.
قلت لها :
- لماذا تتعلم الفتاة؟
اجابت :
- حتى تستقل برأيها؟

وجلست في البيت. كانت الاعوام تمر ... اجتمع معها بحكم القرابة، ونتحدث احيانا حديثا عابرا... وكنت الاحظ انزواءها : تنظر الى اختها فتحسدها ... لماذا ؟ لا ادري ... وكنت اتساءل : الأنها الكبيرة ولم تتزوج؟ اهكذا يصبح الزواج كل شيء؟ وتساءلت يومها : اهكذا، فجأة، يا انسة؟.

كانت تقول لي انا تعلمت لان الشخص المتعلم يمكن ان يحيا حياة هادئه واذا كان لي ان اختار زوجا، فساختاره شخصا متعلما، هذا شرطي الوحيد.

بعد مرور خمس سنوات من تخرجها في الكلية، جاءها شخص يطلب ودها، وبحكم القرابة قالت : اسألوا عن الشخص.

قلنا لها : هو عامل، انهى الدراسة الثانوية، البعض يقول انه يشرب الخمر واصدقاؤه فلان وفلان، ثمة كلام يقال عنه.

وكنا في الغرفة خمسة اشخاص، نريد ان ننقل لها وجهة نظرنا حتى نستمع الى رأيها ، فهي فتاة متعلمة، ونقرأ الروايات العاطفية، وكانت قبل ذلك تتحدث عن حرية الاختيار. وفجأة انزوت في ركن البيت وقالت :
- كما ترون. كما ترون.

كانت في الخامسة والعشرين من العمر، وكان الزمن يترك علامات ما على وجهها.

في زاوية الغرفة كانت شهادة الدبلوم التي حصلت عليها، وفي الجهة المقابلة كانت الريح قوية لم انتبه على قوتها الا حين كانت الشهادة التي قبعت داخل اطار تصدر صوتا مزعجا.
نظرت الى الفتاة وتكلمت بهدوء :
- اريد منك رأيا صريحا . اتوافقين ام لا ؟

وفجأة كانت الفتاة تختفي، لم أرها نظرت تحت الطاولة لعلها اختفت تحتها فلم ارَ شيئا، وامعنت النظر لعلني اعثر على شيء، على مسخ ما، ولكني لم ار شيئا، وكانت الفتاة تختفي فيما كانت الرياح تحرك اطار الشهادة.

نابلس ٢١/ ٧ / ١٩٨٧

الروائي

يصدر الروائي عمله الأول فلا يلتفت اليه احد. يشتم الثقافة والمثقفين ويقرر احراق كل ما كتب،ولكنه، فجأة، يقصد الجامعة، يحاول ان يحصل على الشهادة الجامعية الأولى فيفعل وينجح. يتراجع عن قراره الأول ويتابع المسيرة. في الجامعة يتصدر الجلسات ويعود الى لعبته المفضلة : التنظير والكتابة. يدعو الطلبة الى الصمود على ارض الوطن ويشتم امريكا والدول الرجعية، ويكرر العبارة - الظل : سوف تنتصر الاشتراكية، سوف تنتصر، وسننتصر نحن ايضا. ويكتب الروائي روايته الثانية، وحين يلتقي في قاعة، وناقد ناشيء، كان كتب حديثا مقالا عن روايته الأولى، ليتحدثا عن الادب يثور الروائي، ويخاطب الجمهور طالبا منه الالتفات الى الأدب الجماهيري وعدم الاستماع الى هذا الناقد البرجوازي، ويصفق الجمهور طويلا.

يكتب الروائي روايته الثالثة، يتحدث عن العمال والطبقة العاملة، ويجالسهم كل صباح : يتجه معهم كل صباح الى المصانع الاسرائيلية ويعود في المساء ليدون ملاحظاته، ويكرر شتيمته لامريكا والدول العربية الرجعية وانظمتها الفاسدة.

ذات نهار يسافر الروائي. يرحل ليكتشف العالم الجديد، ويمازحه القارىء :
- يا كولومبس : انها بلاد فاسدة

فيعقب :
- ولكني مسلح بالوعي . انا لست نمرا من ورق.

يغيب الروائي، ويتنقل بين الولايات، وذات نهار يعود. ويلتقيان. يرحب المقيم بالقادم ويسأله :
- بالتاكيد ستقيم هنا. لا اعتقد ان ثمة مكانا اخر يمكن ان تجد عليه متسعا .. مكانا تقول فيه رأيك بصراحة.
ويبتسم. فيما يتحدث الكاتب :
- هل تزوجت؟! وهؤلاء اليسوا اولادك؟؟

ويضحك الكاتب. وحين يحدد القارىء موعدا للقاء اخر يخوضان فيه حديثا كان انقطع منذ اربع سنوات، يعتذر الكاتب الروائي ذلك انه سيسافر غدا الى الاردن وسيبحث هناك او في الدول العربية الاخرى عن فرصة عمل، فالجامعات هنا في حالة فوضى والحياة لا تطاق. ويتابع :
- وهناك ساصدر روايتي الجديدة التي اخترت لها عنوانا جميلا لافتا كنبات بلادي الجميل.

نابلس ١٩٨٧/٩/٢٢

الديكة الاكاديميون

كل مساء يتوافد الديكة الاكاديميون، يجلسون على المقهى المتعارف عليه، ويبدأون لعبتهم المفضلة: طاولة النرد. ينغمس اثنان في اللعب فيما يتابع الآخرون اللعب بفضول زائد، ورويدا رويدا تفتر الهمة وتعتري المشاهدين حالة من الملل، يعبر احدهما عن ذلك فيقارب بين الحجارة، ويقوم بحركة تعيد الفوضى اليها. يغلق الطاولة بعصبية، ويلعن الديكة الصغار الذين عكروا صفو القن هذا النهار، ويضيف - لو ان القن خلو من الديكة، لو انه لا يضم الا الدجاج ونحن.

يتنهد ديك لم يمض على تناوله طعام الغداء الا ساعة، ويهمس:
- لم انم هذه الظهيرة، اللعنة على زعيمنا. لم ينصفني هذا العام ويضحك الديكة الباقون. فيما يعقب ديك ديك :
- لماذا لم تنتخبه ؟!

فيرفع صوته كمن يترنح راغبا في الاسترخاء :
- اللعنة عليه ولماذا لا ينتخبني انا . الست باسبق منه. الست باعرف منه. لقد كان كدجاجة ولكن ...
ويصمت الجميع حين تتسع الحلقة، يطلبون النراجيل ويرحبون بالقادمين الجدد. ويحلف الديك المتثائب ان لا احد من الحاضرين سيدفع طلب زعيمه.

تمر دجاجة فيمعنون النظر. يقول احدهم :
- اعتقد انها عندنا، في القن الذي نقيم فيه.

ويضحك الجميع حين يعقب الديك الذي يشبه الدجاجة :
- يا كلب الأثر. يا كلب الصيد

ويتابعون احاديثهم، يتحدثون عن الديكة الصغار، والدجاج البلدي، ودجاج المزارع الذي لا ياكل سوى العلف الامريكي. يتحدثون عن الديكة التي تركت العنان لريش رأسها ينمو بغزارة والديكة التي لا تعرف سوى المكاكأة. والدجاج الذي تحول الى ديكة، والديكة التي ستتحول الى دجاج حين تنتقل من سيطرة الديك الحضاري الى سيطرة الديك الدكتاتوري، يخوضون في موضوعات لا يختلف عليها اثنان، يتذكرون ماضيهم ويتباكون عليه، ولا يتقنون سوى ذلك. يتصايحون ومن بعيد ينظر الديك الحضاري اليهم وينهق بهدوء :

- ديكة، ديكة دجاج. ستتحولين الى دجاج دجاج ايتها الدجاج الديكة.

حين يوشك وقت الجلسة ان يمر يفطن الديكة الى الديكة الآخرين الذين عكروا صفوهم. يخوضون في شهاداتهم وابحاثهم التي نقلوها ويقررون ان يصدروا بيانا في هذا الشأن. فمن غير المعقول ان لا تحترم اخلاق الديكة واعرافها ومواثيقها. ولا يتوانون لحظة في الحديث عن مصدر شهادات الديكة القادمة من براميل النفط، فهؤلاء كتبة نسخة نقلة. ويقطع ديك حوارهم هذا، فيتحدث عن نيته في تغيير اثاث قنه، فقد رأى ان بعض الديكة قد استوردت ريشا ايطاليا جميلا ولكنه يلعن ارتفاع الاسعار وضيق اليد والقروض التي لم تنته، فيما يتحدث آخر عن ناقلته التي تحتاج الى استبدال، فهي مصنوعة في العام قبل الفائت ولا يليق به، ديكا اكاديميا، يحمل شهادة عليا عليا وقدم من بلاد العلف الأمريكي ان لا يقتني ناقلة حديثة حديثة.

ويوافقه ديك سمين على ذلك، ويتمنى لو انه يحقق دخلا اكثر اذ سيفعل ما سيفعله زميله الديك القادم من هناك، ويتنهد شاتما الديكة المسؤولين الذين حالوا بينه وبين السفر، وبالتالي حالوا بينه وبين رؤية البلاد الغربية التي ستؤهله وتمنحه شهادة عليا يستطيع من خلالها ان يحقق دخلا يمكنه من استئجار قن آخر واقتناء سيارة انيقة وادخال دجاجة ثالثة الى قنه الضيق.

ولا يقطع عليهم حديثهم سوى ديك المقهى الذي اخذ يعلن ان وقت الانصراف قد حان، ويذكرهم ان الديك الحضاري في هذه الايام قلق، والأجدر ان ينصرفوا، وينصرفون. يتفرقون ايدي سبأ. وحين يرون الديك الحضاري يغضون الطرف، فيما يدلفون بهدوء كل الى ناقلته، وفي القن يستلقون على فراشهم متعبين، فقد كان يومهم حافلا بالبحث والتحضير والقاء المحاضرات وقبل ان يغطوا في نوم عميق، في انتظار اجازتهم التي سيقضونها هذا العام في مكان جديد، مكان لم يذهبوا اليه من قبل، يتمتمون كلاما غامضا لا تسمعه دجاجاتهم. ويتمنون لو ان الديكة الصغار تهدأ قليلا ولا تعكر عليهم الجو لتحول بينهم وبين قضاء الاجازة التي يرغبون في ان تكون في موعدها المحدد.

نابلس ٢٢/ ٩/ ١٩٨٧

مســـــاء

كانت الساعة السابعة مساءا حين اخذت اذرع طرقات المدينة محاولا تبديد حالة الكآبة التي اعترتني هذا لنهار.
- لقد رفضوا السماح لي بالسفر.

قلت : لعل افضل شيء هو السير في منتصف الطريق، فهذه الارصفة كاذبة وليس لها مأمن، الطريق، الشارع، السيارات كلها، النهر وضفتاه خربتان، تراب أيل للسقوط، واخذت اسبح.

قادتني قدماي الى مكتب محام كنت اعرفه يوم كنا طلبة، صعدت الدرجات ببطء ملحوظ. لم التفت الى الفتيات الانيقات ولم الاحظ اللائحة التي كتب عليها اسم المحامي، وفجأة وصلت الى سطح العمارة، نظرت الى المدينة رأيتها فارغة الا من بعض المارة. عدت الى حيث انشد وطرقت الباب.

قال لي مرحبا : ادخل . فدخلت وتحدثنا قليلا ثم قلت : لقد رفضوا اعطائي وثيقة سفر.

فقال : ولماذا لا تسافر من هناك : عبر النهر. فقلت : كل الضفاف أيلة للسقوط، ولا اريد ان اغوص في مستنقع . قال : جرب فقلت : لا داعي، فالتجارب كثيرة. وقبل اسبوع عاد زميلان لي كانا أرادا السفر من الاردن. وحين سألتهما عن ذلك قالا : ان أجهزة الامن هناك شددت عليهما ورفضت تجديد جواز سفرهما. ولأنهما زميلاي في النقابة فما حدث معهما سيحدث معي أيضا، ولذا قررت ان اختصر الطريق.

في هذه الاثناء دخل علينا السيد المبجل قمت فسلمت عليه وتحدثنا. سألته عن عمله فأجاب : كما انا، عامل . وسألته عن مراسل الجريدة في المدينة، الجريدة التي انشئت لتكون بداية لانشاء مؤسسات موازية، فقال: اخو المراسل القديم. لم المه او اعاتبه على اقدامه على النشر في الجريدة، ولكنني اخذت في الحديث عن الرجال الذين يباعون ويشترون، فقال عن جمعية صبرا وشاتيلا وما فعله اعضاؤها. لقد سرت اشاعة في الضفة، ان اثنين من تنظيم يساري يجمعان المال لأهالي صبرا وشاتيلا، وكانت لهما علاقات نسائية متعددة، جمعا المال وهربا به الى الخارج. ولما قلت له : ان هذا يحدث دائما وفي ظروف شعبنا لا استغرب، وعلينا ان نرى الصورة كلها، لا الجانب الأسود منها. صمت واجاب : نعم، يحدث هذا.

قلت للمحامي انا سأذهب : ولكني اريدك في موضوع خاص. جلسنا معا في الغرفة الثانية، وقال لي : الا تعرفه. قلت : بلى. قال: يريد ان يجري معي لقاء للجريدة الصادرة حديثا. ابتسمت وودعته.

في طريقي من نابلس الى القرية حيث كنت - وما زلت - اقيم، كنت ارى، فقط، سوقا للخضار يمتد ويمتد. وكانت الفاكهة تذبل وتذوي، وحين اخذت اهمس بصوت مسموع. - انهم يبيعون انفسهم انهم يبيعون انفسهم. الرجل بمائة دينار.

قال لي الرجل الثاني الذي يجلس الى جانبي:
- اتق الله يا رجل. اتق الله.

وتابعت همسي غير آبه:
- لقد كانو يرفعون شعارات تزلزل الجبال ، يا سيدي، كانوا يرفعون شعارات تهز الجبال، نعم تهز الجبال.

نابلس ٢٨/ ٧/ ١٩٨٧

ظهيرة

كان الطبيب يقول، والحزن يتغلغل في ثنايا الكلمات التي يتفوه بها، انظري :
- شتراسن يونغه تعني ارب ستريت.
- Arab Street :Shtrassen Junge
ويتابع :
اهكذا نحن في نظركم .

واخذت افكر في هذه المفردات، وانا اسير في الشارع ظهيرة اليوم التالي .

قلت : لعل الحياة قاسية. واخذت، ولاول مرة، اجد عذرا لابي الذي ما انفك، منذ اربعين عاما، يشتم الجميع بلا استثناء: جيرانه ومعارفه وزوجته واولاده حيث عرف عنه في المخيم بأنه نوري المخيم."ابي نوري" وكررت العبارة، وتقاتلت معه مرارا، ثم فجأة اخذت اجد له عذرا. لقد هدته الايام: بريطانيا والاردن واسرائيل والتقاسم الوظيفي.
واخذت اكرر: شتراسن يونغه تعني للامريكيين والانجليز اراب ستريت.

واضيف : هكذا نحن اولاد شوارع. وقلت : ساقول للسيدة الالمانية المبجلة هذا الكلام، ساقوله لها حين تزور بيتنا في المخيم مرة اخرى .

واخذت انتظر الحافلة التي تقلنا الى الجامعة. كانت الجامعة تضج بالاصوات، وانا اهرب منها ولا اعود اليها الا في موعد المحاضرات، وحين اخذت ذات نهار اصيح وانا داخل المحاضرة على هذا الذي يجري، وجدت تفهما من قسم كبير من الطلبة. كانوا جميلين جدا، وقالوا : نحن نريد حريتنا، ولا اعتقد اننا سنخرج من هذه الفوضى الا اذا حصلنا على حريتنا. وقلت لهم : ولكني اخشى ان تتحول الحرية الى فوضى، فشاعرنا قال : حريتي فوضى اني اعترف .

في الطريق قبل ان استقل الحافلة، كان السيد المبجل يستقل سيارته. رآني قادما فتوقف ليقلني معه. سألته عن عمله - ان كان وجد عملا - فقال : سنفتتح كلية جديدة وسأكون مسؤولا فيها.

حين وصلنا الى مبنى الجامعة، ودعته وغادرت، واخذت اعود بذاكرتي الى الوراء:
شاب متحمس يتحدث عن الوطن والتفاني في خدمته، يتهم بالشيوعية، ثم تتبدل الايام فيصبح صحفيا، يتحدث عن الوطن والنضال الوطني، وحين التقيته في المؤسسة اخذ يتحدث عن ايامه الخوالي حديث شخص خجول من ماضيه. تحدث عن الواقعية والواقع والعقلانية، وذات نهار قيل : انه طرد من المؤسسة لانه اختلس مبلغا كبيرا من المال.
كنت اسير وكان يسير نحو المؤسسة الجديدة الموازية، وكان الطلبة. يحتفلون ويغنون وينشدون. لم اوجه اللوم الى والدي، كان احترامي له يزداد ويكبر، وكنت انتظر السيدة الالمانية لأسألها : هل تعرفين فلانا.
كان الطبيب يقول، والحزن يتغلغل في ثنايا الكلمات التي يتفوه بها.
انظري.
- شتراسن يونغه تعني اراب ستريت .
وكانت صورة السيد المبجل امام ناظري، ولكنها لم تكن الصورة الوحيدة.

نابلس ١٩٨٧/٧/٢٨

مساء الليلة المنصرمة

-١-
مســـاء

مساء الليلة المنصرمة اضاء حارتنا قمر جديد ... فرحت جارتنا ورفعت يديها الى السماء ثم اخذت تبتسم فيما طلبت من ابنائها ان يصلوا على النبي الكريم.
مساء الليلة المنصرمة كانت الاسرة تجلس في خلاء البيت الذي اضاءه القمر الجديد، وكان افرادها يهمسون :-
- سوف اسهر حتى الصباح .
- سوف العب الطاولة، فالقمر الجديد يضيء حارتنا .
- سوف اقرأ القرآن الليلة حتى الصباح
وكنت وحيدا استمع الى نشرة الاخبار. كان المذيع يقرأ خبرا ينم عن حقد رهيب تجاهنا. وكان صوت الام يرتفع. كانت تدعو ربها ان يحفظ ابناءها من غدر الزمان وخيانة الحكام العرب.
مساء الليلة المنصرمة كان الخوف ينمو ويكبر، وكان صوت المذيع يمجد الحاكم وكانت المرأة، ترفع يديها نحو السماء ليحفظ الله لها ابناءها من صوت المذيع وصورة حاكمة .

-٢-
صباح

صباح الليلة المنصرمة كنت اغط في نوم عميق. كان بيت جارتنا هائجا ومائجا. الام التي كانت تبتسم في المساء كانت تبكي في الصباح. والذي اراد ان يسهر حتى الصباح نام في الصباح. وكانت الطاولة تضيع فيما كان الثالث جاثيا على ركبتيه .

-٣-
ظهيرة يوم تلك الليلة

كنت قد انهيت عملي في المؤسسة حين غادرت متجها نحو السوق. كان مكتظا على عادته. فيما كانت قدمي تتحرك بصعوبة. وبالقرب من بائع الحلوى انتصبت ام رياض امامي. بادلتها التحية، وقالت وهي تبتسم :

- رياض يهديك السلام
- هو الان في امريكا
- ترك البنك واخذ يتابع دراسته
- ومؤخرا ارسل لي صورة
- ها هي
- انظر اليه وريغان

- حصل على المرتبة الاولى
- وانا في انتظاره
- سيعود عما قريب ليزورنا

كانت الشمس في كبد السماء، وكان الحر لاهبا. ذلك يوم حزيراني قائظ. ودعتها واخذت اذرع الطريق فيما كانت الاصوات تعلو وتعلو، ولم تتلاش الا حين اخترقت طائرة من صنع امريكي الحاجز الصوتي. وعلى مقربة من موقف الباص، حيث كنت متجها اليه، كان ثمة طفل يبكي وكانت أمه تلعن الطائرات وصانعيها.

-٤-

عصر يوم الليلة المنصرمة

فجاة جلست على كرسي المكتب ... تناولت قلما وورقة واخذت اخربش ... حاولت كتابة مقال عن مسرحية بريخت « محاكمة لوكللوس » و « حوارات الموتى» ولكنني فشلت ولم تجد اقوال استاذي الفيلسوف نفعا، لقد طارت منذ اللحظة التي غير فيها رأيه بعد الحصة الاولى فشتمته وشتمت الفلاسفة وآثرت ان اتحدث مع طفلتي (روز) التي لم تتجاوز الثالثة من العمر. قالت لي :

- ها انك ترى . لقد كبرت

وتابعت :

- اصبح الان عمري خمسة وعشرين عاما.

واضافت :

- ولم يطرق باب بيتنا خطيب

وعبثا حاولت ان اتكلم، فقد اخذت في الافاضة : نحن الفتيات ندرك عمق المأساة، مأساتنا نحن انتم لا تفكرون كثيرا في امرنا. في الحي الف فتاة ومائة رجل. الم تفكر يوما في الكتابة الى (دي كويار) مثلا تعرض عليه مشكلتنا. نحن لا نرجم حجارة، ولا نهدد امن الدولة، ومع ذلك فانها تسلبنا شبابنا، والذين يهاجرون لا يعودون، ستقول لي انك تفكر في كتابة قصة عن عوانس الحي، نعم ستكرر الحكاية ولن تكتب قصة، واذا فعلت وكتبت فماذا ستجدي؟! هل تحاكم (لوكللوس) العظيم وتنتف لحية (الفيلسوف)؟ وفجأة غططت في نوم عميق. لقد كان الجو حارا. فذلك يوم حزيراني، يوم قائظ.

نابلس ٧/ ٧/ ١٩٨٧

أربع قصص قصيرة

-١-

الصديق

الى "أكرم هنيه"

كم يبدو عبد الله متعبا هذا الصباح، لكأنه لم ينم تلك الليل، حاول ان يسترجع احلامه: كانت حياته شريطا من البؤس والشقاء والفوضى. ولكنه شريط انتهى بالسعادة، جميلة عبارة الكتاب: ثم تشرق الشمس، فهل تشرق الشمس ؟ هو الآن يقترب من الثلاثين، وربما تجاوزها قليلا، ولم يحقق شيئا. لكن هل تشرق الشمس؟ تناول الجريدة التي ارسلها بائع الجرائد واخذ يقرأ عل خبرا سعيدا ينتشر بين ثناياها. عل، ولكنه اصيب بالفاجعة.

- لا خبر.

كانت امه نائمة، لم تقم كعادتها لتصنع له كوبا من القهوة. علها تستغرق الآن في حلم جميل وما هو حلمها؟ ان ترى ابنها شابا حقق ما ينبغي ان يحققه الشباب. ذهب الى المطبخ، اشعل البوتوغاز وصنع القهوة. في تلك اللحظات كان يردد بينه وبين نفسه:

- هل تأتي المكافأة ؟

امه حلمت انها اتته، ولأول مرة اخذت تحثه على الكتابة. في ايام سابقه كانت تقول له: سنرى الى اين تقودك كتابتك؟ وحين اخبرها بعد سنين عديدة انه ربما ينال جائزة فرحت، وراحت تحثه على الكتابة. هذه الأم اليس من حقها ان ترى ابنها يحقق ما يحقق الشباب ؟

- هل تأتي المكافأة؟

بعد ان انتهى عبد الله من ارتشاف القهوة وضع الفنجان في المقلوب، وبعد لحظات تناول الفنجان مرة اخرى. قبل ان ينظر فيه ضحك بصوت عال. ضحك وضحك وضحك. ثم همس :

- ان تكون علمانيا وتؤمن بالخرافات . ولكن ... وتابع :

- لكن الاصدقاء وامي قبلهم ، هؤلاء ما زالوا ينتظرون. وعدتهم بحفلة غداء، وعدتهم برحلة وعدت ... وعدت.. وعدت.. والاهم : امي. امي التي ما زالت تنتظر. ترى ماذا ستقول لي حين تفاجأ بأن الجائزة لم تأت. لعلها ستعود وتقول : سنرى الى اين تقودك كتابتك؟ ايتها الام كم انت رائعة على اية حال.

عاود النظر في الفنجان، همس :
- تأتي اولا تأتي .

لم يقرأ فنجانه، فتلك عادة لم يألفها وعاد يضحك :
- هذه اخرتها ان تقرأ الفنجان. ينظر في الساعة. كان الشهر قد انتهى، والجائزة لما تأت، لما تأت. مر زمن طويل. طويل كاطول ما يكون. فجأة انتفض من مكانه، ذهب مسرعا نحو المطبخ غسل الفنجان وقال :

- حتى لو اتت فما الفرق ؟

وابتسم :
- ان تقرأ الطالع. سحقا له من زمن .

-٢-
المدينة

المطر ..المطر يهطل بغزاره، وثمة شاب وشابه يسيران معا، تارة تسبقه وطورا يسبقها، همس :
- الحمد لله ان الجو ماطر.
تجيب
- لولا المطر لابتلعتنا عيونهم.

يسيران معا، يقطعان الشارع تلو الشارع، يبحثان عن مكان اليف.
- البلدة القديمة
- فيها نشعر بالاستقرار.
- لست ادرى لماذا؟
- لعلها الطفولة.

فجأة يرتفع صوت ما، تبدأ حركة غير عادية، يمشي وتمشي ينظران في كل الجهات : حجارة في الطريق، صبيان يحومون كفراشة، واشخاص يقمعون كل شيء. يركضان، تتسخ ملابسهما، يهمس :
- لم نكن نتوقع هذا.
تجيب
- حدث عادي في مدينة محاصرة.

كانت العيون تتراجع، وكان المطر عاديا، لكن الغزاة بدوا كانهم وحش كأسر. ردد عبارتها :
- حدث عادي ولكن.
كانت نبرة الحزن تطغى على الكلام وكان المشي هدفهما الوحيد في تلك اللحظات.

-٣-
زمن الهزائم

يبدو عبد الله متعبا هذا النهار، يجلس وراء مكتبه، ينتظر شخصا ما، شخصا ما. يتابع النقر على الطاولة، يستمر في اخراج الهواء من فمه، ويسأل :
- هل يأتي شخص ما ؟ قلب كوب الشاي، وقال :
- هكذا تبدو الامور.

وتابع :
- ان تضطر لقول ما لا تقتنع به. واستمر :
- وتدافع عن قولك هذا.

امسك بوجبة الطعام التي احضرها والقى بها على الأرض، وفجأة اخذ يصرخ بعنف :
- يا لقمة العيش التي قهزت بمطلبها الانام .. وتابع :
- واذل مطلبها العزيز.

ثم بدأت دموعه تنهال بغزارة ...

- ثمة خطأ ما.. ثمة خطا ما. كانت الحروف التي نطقها تغرز في جسده عميقا عميقا. وكان الشهداء يصطفون حوله ساخرين :
- حقا ثمة خطأ ما .

-٤-
« الرسائل »

كانت الساعة العاشرة مساء، انهى قراءة كتاب عن الحرب الاخيرة وقام ينظر الى السماء كان الجو صافيا، فشعر بالكآبة :
- سيكون الجو باردا هذه الليلة.

ادار قرص المذياع، كان صوت المذيع خافتا فلم يرتح له. اغلق المذياع، ولعن الزمن :
- ثمة اخفاقات كثيرة.

كانت الحرب الاخيرة صدمته العنيفة وكان فشله الدراسي عاملا محطما، وكان فقدانه ... وذهب الى حيث اخفى الرسائل :
- ليس افضل من قراءة الماضي.

حين انهى قراءة الرسائل كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة .. اطفأ النور، وجلس في الفراش وحيدا وحيدا فيما كان يردد عبارة واحدة :
- هذا العالم مهزلة .

وفي النوم كان الاصدقاء الذين ذهبوا يحتلون مساحة الحلم، وكانت دموع الفتاة غزيرة مثل مطر كانون. وهو : كان يحاول ان يطرد الكآبة، لكن عبثا حاول. كان يسأل نفسه: لماذا انا حي حتى الآن؟ وكان الشك يتضخم في نفسه لدرجة الانفجار. في الصباح قرر ان يحرق الرسائل ويمضي.

نابلس ١٩٨٣

هكذا اذن يا فاطمة

« الى ابو ذراع »

كانت الساعة الرابعة صباحا حين انهيت صلاة الفجر في ذلك اليوم من شهر رمضان، واذ لاحظت ان الفجر يوشك ان ينبثق، لملمت حاجياتي وقلت : اقصد المقبرة، مقبرة المخيم حيث دفن زوجي خلسة، فاقرأ آيات من القرآن الكريم، واهديها الى روحه الطهور، روحه التي ما انفكت تحلق في سماء المخيم منذ ثلاثة شهور حيث قتل غيلة ولم يابه به احد من الناس لانهم - اي الناس - شغلوا عن امره بأمر رئيس البلدية القتيل.

كان الظلام يلف المخيم، غير ان ذلك لم يضف عليه طابعا من السكون، فلم يكن الناس نياما، وثمة اضواء باهتة تشع من بيوتهم المتراصة بعصبية. سرت وحيدا اتحسس طريقي فقد كانت المصابيح مطفأة على غير العادة. وهمست في سري : لو لم اقصد زيارة القبر لكانت المصابيح مشعلة. اخذ الطريق بين البيت والمقبرة يطول كاني اسير فيه للمرة الاولى. هل هو السير في الليل ام هي الوحدة التي جعلته يبدو طويلا هكذا؟ واخذت احملق في الظلام علني اعثر على شخص امرأة من الناس اللواتي يخرجن في هذه الأيام لزيارة قبور ازواجهن، وعبثا حاولت، غير ان صوت محرك سيارة دلف الى اذني فجأة. قلت : لعله جارنا ابو احمد يدير محرك سيارته. ولم اذهب بعيدا غير ان شخصا اخذ يصرخ بلهجة غريبة لم آلفها: قلت انه ليس صوت جارنا اذن، وتوقفت في مكاني غير آبهة لشيء، وسرعان ما ادركت انهم هم، ولكني تساءلت : ماذا يريدون منا هذا الصباح؟ الا يريدون ان اتلو آيات من القرآن على قبر زوجي وأهديها الى روحه الطهور. ثلاثة شهور نفقت وكأنها ثلاثة قرون، هكذا افتقدناه؛ افتقدنا طلعته البهية، افتقدنا ابتسامته العذبة وصوته الجهوري. كان رجلا ولا كل الرجال. في الصباح يوقظني لنشرب القهوة معا، ثم يطلب مني ان اوقظ الاطفال من اجل ان يتناولوا فطورهم ويذهبوا الى المدرسة، وبعد ذلك يطلب مني ان اسجل له ما نحتاج اليه في نهارنا.

ماذا يريدون منا هذا الصباح؟ الا يكفي انهم اختطفوا مني رجلي الذي كان لي الزوج والأب والأخ والصديق خلال الأعوام الأربعين، رجلي الذي شعرت بفقدانه انني فقدت كل شيء في حياتي. ولم اكن لاشعر بمثل هذا الشعور يوم فقدت امي وابي. ابدا لم اكن لأشعر بمثل هذا الشعور :

- وين رايح ؟
- عند زوجي.
- وين زوجك.
- عند الله.
- ماذا يفعل هناك؟
- يفعل ما فعل. اذا اردتم روحه ثانية فاذهبوا اليه عند الله وخذوها.

وتابعت طريقي كان يكفي أن استفزهم قليلا لكي الحق به، ولم اكن لأكترث لهذا. وعلى العكس كنت جد مسرورة، لو فعلوا ذلك في تلك اللحظة. لولا ان صوت الطفل اخترق اذني يطلب من امه قطعة من الخبز ذكرني بحفيدي الصغير الذي بدأ امام ناظري وكأنه يطلب مني قطعة من الجبن، وتخيلته يتعلق بثوبي طالبا وملحا في الطلب، حفيدي الذي بدا رجلا كجده، ملامحه ملامحه وروحه روحه ولهجته لهجته، هو هو ، الخالق الناطق، وتذكرت كلام زوجي عنه. كان يقول : الخالق الناطق صورتي وانا طفل. هكذا قال لي اخي الكبير.

في الطريق لم تكن صورة زوجي لتفارقني. الليلة التي لما تنقضِ، وانا ذاهبة الى زيارته، زارني عابسا. لم يكن كما الفته. لم يحدثني طويلا، على الرغم من انه مكث طويلا. كرر عبارة واحدة. هكذا اذن يا فاطمة!! وبدت كانها دورة اسطوانة. هكذا اذن يا فاطمة هكذا اذن يا فاطمة. وكانما بدأت جدران البيت كلها ترددها، فلقد اخذ الخوف ينفذ الى قلبي حتى ملك علي كياني، وحين عزمت على زيارة قبره كان الزقاق يردد : هكذا اذن يا فاطمة هكذا اذن يا فاطمة. وكنت أغذ الخطى متلفتة يمينا وشمالا، وكان يغشى عليه ولولا صوت الغرباء او لا، وصوت آخر دلف الى مسامعي فيما بعد. صوت جارنا الذي صرخ : لوين في هالصباح المبكر يا ام محمد؟

فحمدت الله، وقلت : اقصد قبر زوجي، زارني عابسا. قال عبارة واحدة ذكر فيها اسمي وتساءل : هكذا اذن، واختفى. كانه لم يكن. واخذتني الظنون مآخذ شتى فقلت ازور قبره، واقرأ ايات من القرآن الكريم، واهديها الى روحه الطهور.

وتابعت طريقي مسرعة بحيث وجدت نفسي امام القبر، وفجأة : اخترق صوته اذني: هكذا اذن يا فاطمة! وقال كلاما آخر، غير اني لم اسمع سوى اصداء العبارة. وفقدت الوعي ولم اصح الا وانا في بيتي، على الفراش.

احاول الان ان اتذكر ما قاله بالضبط فلا اقوى على استرجاع حديثه، يسألني الناس عما جرى فاجيبهم باختصار : هكذا اذن هكذا اذن ، وكأن ما في نفسه انتقل الى نفسي فلا يفهمون ما قصد اليه، وبدوت وكأنني الوحيدة التي فهمت ما قال، غير انني في الوقت ذاته كنت عاجزة عن نقل مشاعره الى الآخرين.

كنت استمع الى ما يقوله الآخرون، ولكنه في كثير منه لم يرق لي. ففي الليالي التي اعقبت مقتله، كانت روحه الطهور تأبى ان تفارق المخيم، كأنما تريد ان تحرسه. هكذا كان العارفون به يقولون، ومنهم من ذهب

مذاهب شتى، فثمة من تندر قائلا انه يابى الا ان يظل صاحب الختم المعتبر، على الرغم من ان الناس لم يقصدوه في اثناء حاجتهم الى ختم المختار لأنهم كانوا يدركون انه يرفض الذهاب الى دائرة الحاكم، وعلى الرغم من انه لم يستخدم الختم لغرض شخصي، واذا كان بوسعه ان يثرى، الا انه ابى، واثر الفقر على الغنى الذليل. وثمة من كان يرى انه كان يحتفظ بالختم ليكون مختارا في الزمن القادم، الزمن الذي نريده، لا الزمن الذي يراد له، وهؤلاء حين يتحدثون عن اندفاعه في ذلك اليوم الذي صعدت فيه روحه الطهور الى السماء يقولون: اراد ان يستحضر زمنه هو.

ولم اكن لأقتنع بهذا الذي يقال في مخيمنا، لم اكن لأقتنع، فانني بزوجي ادرى، وبتفكيره اعرف، كما انني لم اترك اذنا صاغية لأفواه اقاربنا الذين يقطنون في المخيم المجاور. هؤلاء الذين كانوا يأتون عصر كل اثنين وعصر كل خميس ليشاركوني في احزاني، فقد زعم هؤلاء انه تقمص شكل نسر، يقف كل صباح على ماسورة لاقط البث التلفزيوني ليصرخ شاتما اهالي المخيم كلهم، صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساءهم، وذهب احدهم الى انه يفعل ما يفعل لأنه غاضب من الناس الذين لم يشاركوا في جنازته يوم صعدت روحه الى بارئها، وكانه غير مقتنع بما يزعمون من ان الغرباء حالوا دون ذلك، ليشتمهم لأن ثمة حالات مشابهة كانوا فيها يخرجون ويشاركون فلماذا لم يشاركوا في جنازته هو؟

وفي اثناء حديثهم المتكرر هذا اخذت استرجع اللحظات الأخيرة في حياته، اذكر بالضبط انه قال لي انه سيخرج مع الخارجين ليشارك في جنازة رئيس البلدية القتيل ولن يحول دون مشاركتة احد الا الله. وكان يتذكر علاقته برئيس البلدية؛ صحيح انها علاقة عابرة الا انها كانت ودية. كما اخذت استرجع اللحظات التي قررنا فيها دفنه، واللحظات التي تمت فيها مراسيم الدفن في الطريق الى المقبرة من اجل مواراته في التراب، اخذ يطل برأسه من النعش ينظر ويهتف:

امهلوني قليلا .

امهلوني قليلا.

اريد المشاركة في جنازة رئيس البلدية القتيل.

ولكنه رأى اناسا قليلي العدد خلف نعشه، زوجته وبعض اقاربه. وحدق مليا لعله يعثر على اصدقائه، الا انه افتقدهم وافتقد ابا احمد اقرب الناس اليه. لعله تذكر كلمات صديقه الذي حين استمع الى خبر مقتل رئيس البلدية القتيل اخذ يصرخ: مش معقول سأدفنه بيدي هاتين، سأحمل نعشه وحدي، لقد ساعدني قبل فترة لمداواة ابني، يا للخسارة ! ولا ادري ان كان ذلك اثر عليه. فصحبته لأبي احمد تتجاوز المنفعة المادية، ولم يكن ليتوقع ان ابا احمد سيشغل عن جنازته ابدا حتى لو مات ابنه في ذلك اليوم. كانت العلاقة بينهما حميمة وحميمة جدا.

وفجأة اختفى . خمنت انه عاد الى التابوت مؤثرا الموت، فلم يكن الحديد الذي اخترق جسده اشد ايلاما على نفسه من تخلف صديقه ابو احمد. وحين وصلنا الى المقبرة، واقتربنا من الحفرة، بدانا مراسم الدفن. فتحنا التابوت، فلم نعثر على جثته. وكاد الجميع يصاب بالذهول، كأنهم في حلم. كأن كابوسا ثقيلا يضغط على صدورهم، فاين ذهبت جثته؟ وكيف ذهبت؟ ولماذا فعل ذلك؟ تذكرت امنيته: اود ان اشارك في جنازة رئيس البلدية القتيل. وقلت : لعله ذهب ليشارك في الجنازة، جنازة رئيس البلدية القتيل. وكنت اضمن انه قال للغرباء قبل ان يخترق حديدهم جسده ان يؤجلوا ذلك للحظة، ليوم واحد على الأقل.

وتساءلت : ولكن كيف يخترق حظر التجول؛ ان دجاجة لو حاولت فلن تنجح، فكيف نجح؟

ولم اقترح على اقاربي الموجودين ان يبحثوا عنه في شوارع المدينة بين الجموع الغفيرة التي امت المدينة قادمة من كل صوب، من القرى والمخيمات واحياء المدينة ودوائر الحكم والمدن القريبة والبعيدة والنواب مختلفي الجنسية الذين جمعهم الموت على الرغم من خصامهم الظاهري، وانهم لم يسمحوا لنا بالتجول والخروج من المخيم. ولم اتساءل كيف خرج هو ؟ فقد كان خارجا عن المألوف. واقترحت عليهم ان نبقى واقفين حتى يعود، غير انه لم يفعل ذلك ولم يعد ابدا . وظلت الحفرة حفرة، والتراب على جوانبها بانتظار عودة جثته.

كدت يومها اصاب بالجنون وبكيت اياما وليالي طويلة. ولما لم اقو على مقاومة التعب، غططت في نوم عميق وهناك رأيته. كان عابسا، قلت له : لماذا فعلت هذا ؟ فلم يجب. قلت له : هل شاركت في جنازة رئيس البلدية القتيل، فالتزم الصمت. وقلت له : القبر بانتظار جثتك، فهرب لحظتها دون ان يمكنني من متابعة كلامي. فقط كان تفوه بعبارة واحدة؛ عبارة واحدة اخذت تتردد في شتى انحاء المكان، وكأنها اصبحت دورة اسطوانة: هكذا اذن يا فاطمة ... هكذا اذن !!

الأحد الأول من كانون

حين غادر علي المنزل لينفق الوقت الباقي من يومه الشتائي الطويل ووصل الى المدينة اخذ يذرع الشوارع ذهابا وايابا . ولأول مرة تمنى لو انه يترك حياة العزوبية والى الأبد .ولعله في هذه اللحظه لم يابه لكل الكلام الذي يتفوه به المتزوجون الذين ما يفتأون يلعنون اليوم الذي تزوجوا فيه، اليوم الذي كان سببا للاستماع الى شكوى الزوجة وصراخ الاطفال والارتباط المنزلي منذ ساعات مبكرة. وفي المدينة لم يعثر على احد من اصدقائه في الشوارع. لقد كانت سماء المدينة مثقلة بالغيوم، وكان كانون عام ١٩٨٧م هذا يعد بامطار غزيرة جدا خلافا لكانون الاعوام الثلاثة المنصرمة.

امعن النظر في الساعة المثبتة على اعلى العمود المقام في وسط المدينة، وتململ مبديا ضجره. كانت الساعة الرابعة، وعليه ان يقضي ساعة اخرى قبل ان يحين موعد الحافلة التي تقله الى الحي الشرقي من المدينة حيث يقطن منذ عام تقريبا . - ساعة اخرى - زمن آخر.

ودلف الى البلدة القديمة. كان يمعن النظر في الجدران ووجوه الناس عله يجد ثمة اختلافا. لقد تشيأت وجوههم الى درجة يصعب معها التفريق بين البائع والمبيع، ولم تعد المدينة كما خبرها منذ اعوام، فأهلها الذين كانوا يثأرون دائما لابسط الاسباب واصغرها ما عادوا كذلك، ولم يعد يثيرهم اي شيء على الاطلاق. وكأن ما كان يجيش في قلوبهم من مشاعر فياضة قد نفذ وانتهى الى الابد، ولم يعد الناس سوى دمى متحركة كأن قوة خفية تسيرهم كما تشاء لا كما يشاؤون.

في تلك الاثناء كانت شوارع البلدة القديمة شبه خالية، اذ لم يبق فيها الا اصحاب المحلات وبائعو الخضار. وحتى هؤلاء اختفوا فجأة ولم يعد يرى احدا منهم. كان القوة الخفية اسدلت الستارة امام المشاهدين وحجبت عنهم الممثلين. ويبدو ان بائع الخيار تحول هو نفسه الى خيار، وكذلك بائع البندورة. اذ فجأة بدأت العربات وكأنها مثقلة بالبضاعة، وكأن شيئا مما كان عليها لم يبع. وهمس :-

- هل تأثروا بالمواد الكيماوية التي تنضج البندورة والخيار، فتحول الباعة الشبه البضاعة التي يبيعونها. لعل المواد الكيماوية انضجت بشرا آخرين سرعان ما يتحولون الى خيار وبندورة وبطيخ شتائي لا طعم لها ولا فائدة ترتجى منها. حشيش . مجرد حشيش يملأ المكان.

وحملق حوله، ولعن في سره اللحظة التي خرج فيها من بيته.
- هذه مدن تسعة.
- ولكن هل هو المطر ؟

تذكر المدينة في سنواتها المنصرمة. كانت مدينة يحسب لها الف حساب، ومّر امام ناظريه شريط طويل. احداث السموع والمظاهرات التي عمت المدينة والاحتلال الاسرائيلي منذ ايامه الأولى حتى عام الخروج عام ١٩٨٢ م. الطلبة ، اطارات السيارات المشتعلة. الجنود الذين يملأون الشوارع. وفجأة قطع الشريط واختفت المدينة. لم تعد المدينة جبل النار كما اطلقوا عليها. اصبحت جبل الثلج، وكأنها هي جبل الشيخ الذي يظل مكسوا بالثلوج لفترة طويلة من العام. لقد تحولت الى ابنية مهجورة تعشش فيها الأفاعي والصراصير والعناكب وتسكنها الشياطين. وحاول ان يتذكر وجه اصدقائه وان يستمع الى اصواتهم الهادرة. عاد الشريط امام ناظريه، ولكنه سرعان ما انقطع مرة اخرى ليحدق حوله فلا يجد احدا منهم في الشوارع.
هل فجرت المدينة قنبلة ما؟؟ ماذا حدث؟؟ ماذا حدث؟؟

وتمنى لو انه الآن خارج هذه المدينة فبعد ساعة سيكون في بيته الذي غادره قبل ساعتين، وعليه ان يقضي في داخله اربع عشرة ساعة يوميا. وكأنه ارنب من ارانب هذه المدينة، بل انه واحد منهم، كما كان يقول، ويتابع موضحا كلامه: «لا فرق، اذ سرعان ما نختفي حين يحط الجراد».
- اللعنة.

ارتفع صوته، واخذ ينظر حوله عل احدا لم يسمعه، ارتاح قليلا فقد نجا من اتهام عجيب لو سمعه احد من اهل هذه المدينة فسيقول : شاب خرف يهذي. وفجأة هبطت امرأة وطفلة من السماء. اخذتا تسيران امامه. حدق في وجه الطفلة مليا: « وجهها وجه ابيها. خالد نفسه. كأنه الآن امامي. ثمة حواجز تحول دون رؤيته. والطفلة هل تذهب اليه هناك لكي تراه، ام ان والدتها تحول دون ذلك ؟».

للحظة فكر في ان يسألها، ان يسأل امها ولكنه تراجع وقال : في الحافلة سأسأل الطفلة، اذ كان عليهم الثلاثة ان يستقلوا الحافلة نفسها، ذلك ان الأم كانت تقيم في الحي الذي يقع في منتصف الطريق بين بيته ودوار المدينة. وفي ما هم يسيرون كان يتساءل « وجهها وجه ابيها خالد نفسه، ثمة حواجز كثيرة تحول دون رؤيته. والطفلة هل تذهب اليه لرؤيته ام ان والدتها تحول دون ذلك». ولم يأبه كثيرا للذي كان يدور على السنة المارة، فما الذي يهمه الآن من ارتفاع أسعار االحاجات. وسواء كان الارتفاع يصدق او لا يصدق ، وسواء اعادت المياه الى مجاريها ام لم تعد. تلك اللازمة التي كان يكررها الباعة. فان وجه الطفلة كان يوحي له بان الحياة على قدر كبير من التعاسة.

- هذا زمن البندورة والخيار.
- وزمن الخطط التنموية.
- وزمن الموظفين.
- فرج الله قريب.
- وفرج الحكومة الاردنية اقرب.
- ستعود المياه الى مجاريها.
- والقاذورات ستعود ايضا.

وكانت الفتاة تعبث بشعر امها وتحدق في البعيد. فجأة بدا وجه ابيها يحتل الجدران كلها، كأنه استشهد ذات نهار في مدينة بعيدة وأحيوا هذه الذكرى باصدار ملصق، وسرعان ما اختفى كل شيء فجأة. الملصق والضحكة، واللسان الساخر.

وحدق حوله، في هذه اللحظة كان يتمنى لو يسمعونه وليقولوا ما يقولون. اسألوها. من سيعيد المياه الى مجاريها. وهل تعي في هذه اللحظة كيف تجري المياه لتدرك بعد خمس سنوات انها ستعود الى مجاريها ».

بين بوابة البلدة القديمة والمكان الذي تقف فيه الحافلة عادة كانت المسافة قصيرة، ولكنها اخذت تطول شيئا فشيئا. هبط الغزاة الذين جاؤوا من آخر الدنيا، كما يقول الناس، ليذكروا باحتلال المدينة عبر الحواجز التي اوجدوها في نفوس الناس. لعلهم ظنوا ان الحاجز النفسي سقط يوم زار انور السادات القدس. وتساءل : « أي الطرق اسلك. نحن نملك الطرق كلها ولا نملك اي طريق ».

وبعد لحظات من التردد والحيرة سلك اقصر الطرق، ولم يأبه للغزاة. لقد اراد ان يسقطهم من الذاكرة كما اراد ان يلغي حضورهم في المكان. وحدق في الطفلة. « وجهها وجه ابيها خالد. ولكن من الذي يحول دون رؤيتها له ».
لم يبصر وجه امها في هذه اللحظة. ثمة تداخل عجيب حدث. كان احد الغزاة يحمل الطفلة وهي تعبث بشعره.

« ان كان الكلام صادقا فلا شك ان ما اراه ليس حلما. انه حقيقة، وما الفرق بين وجهها وبين وجه هذا الغريب»... ولكن ... ».

تذكر الأم قبل ان تصبح اما. فتاة ترتدي بنطلون الجينز وقميصا أحمر اللون، تسير مع زميلاتها في ساحة المعهد. تتحدث بصوت مرتفع عن الوطن والتحرر الاجتماعي. وفي النصف الأول من كانون، ترتب للاحتفال المهيب. تبدأ بتوزيع الصور والكتب، وترتب المقاعد التي اتى بها من قاعات التدريس. وتلقي كلمة و تضع الكوفية الحمراء حول رقبتها. حدق في وجه الأم، وتساءل :
- ايعقل ؟؟

لقد شحب وجهها وهزل جسمها، وبدت انسانا آخر. ينظر الناظر اليها فلا يرى الا بقايا انسان، وكانما لم يبق منها شيء.

كان الغزاة يذرعون الطريق ويحملون بأيديهم اشياءهم الجامدة الباردة، وبدت المدينة كأنها مسكونة بالبنادق. واجهات المحلات التي كانت مضاءة اصابها عطل مفاجيء، والناس الذين كانوا في داخلها اختفوا فجأة بعد ان دب السكون في جسومهم واختفت، من ثم، المدينة، فلم يعد لها من وجود سوى في ذاكرته، فكر : حركة صغيرة كفيلة ان تجعل رأسه ساحة معركة حقيقية.

كانت عينا الطفلة تحدق في وجوههم، ويدها تعبث بشعر امها. وكانت الحافلة تنتظر العائدين الى بيوتهم. « استقل الحافلة، وكذلك فعلت الأم وطفلتها. جلست في المقعد الذي امام مقعده. وكانت الطفلة واقفة تحدق في عينيه. وهو ايضا يحدق في عينيها. وجهها وجه ابيها خالد. هو الآن يقبع في غرفة باردة. هل يتذكرها ؟؟ لعله يتذكرها للحظة ثم يغض طرف ذاكرته ... اذا كان ما يشاع صحيحا فلا شك انه محق حين يبصق على اللحظة التي عرف امها فيها ... كيف انجب زواج كهذا؟؟ زواج بغال ؟؟

كان يفكر وهو يحدق في عيني الطفل. ولم تكن الأم لتنظر في عيني الطفلة ولم تكن الأم تنظر خلفها. تعرفه جيدا. فقد كانت تحدثه باستمرار عن العائلة واشمئزازها منها. وهاهي الآن تعود اليها.

« هل حقا ما سمعته هذا الصباح ؟؟ ينكر ابوته للبنت؟؟ وما ذنبها؟؟ ربما يبالغ الناس في الأمور، وحين تقع الضحية تكثر السكاكين؟؟ ربما... ربما».

فجأة توقفت الحافلة، واختفت الأم، كأنها لم تكن، كان يرى الطفلة محمولة في الهواء دون ان يرى الحامل. كانها تسير في الهواء، يرى وجه ابيها خالد. ولا يأبه لكلام الصباح. وكان الركاب ما يزالون يتحدثون.

احدهم كان يحدث زميله عن اساليب جديدة يتبعها الغزاة لافساد الناس. شبكات الساقطين التي بدأت تكثر وتنوع الاساليب. شبكات مخصصة لبيع الحشيش على الناشئة حتى يتعاطوه بكثرة. وأخرى مخصصة لتوزيع الحبوب. وثالثة لتوزيع افلام الجنس.

كان يحدق في جانبي الطريق فيرى الغزاة على الأرصفة زرافات ووحدانا. كان الضجر يكبر ويكبر. وللحظة تضخم وكأنه اصبح بالونا منفوخا بحجم المخيم والمدينة والقرى المجاورة. وحين كان يطير في السماء صرخ السائق : المحطة الأخيرة. هرول مسرعا باتجاه البيت لينفق ما تبقى من ساعات المساء بين جدرانه الباردة، فيما كان وجه الطفلة يظهر امام ناظريه بوضوح، وكان يسأل نفسه هل ستعود المياه الى مجاريها ؟؟ ...

نابلس ٢٦/٣/ ١٩٨٧

المرحلة

(١)

كانوا ثلاثتهم
يثرثرون عن احلامهم الممكنة
علقت صورتهم
وودعتهم واحدا واحدا
- اولهم اعدمه اخوته ساعة الفجر
- بكت دمعة واستبشرت
- ثانيهم قضى عمرا خلف جدران اقيمت
- لتحمي رأس سفاح من مقصلة.
- ثالثهم تركوه عطفا لتقتله المرحلة.
- تبكي دمعة وتأتيني مساء
- نثرثر ساعة، نقطر حزنا
- ثم نحلم عنوة بسيف يقتل القتلة .
- هذا المساء دخنت سيجارتها ورفعت صوتها
- معلنة وضع حد لزمن المهزلة.

* * *

(٢)

تجلس في البيت كل نهار، تنظر في الصور المعلقة، تستعرض الوجوه جميعا .
- ترى اين انتم الآن ؟

كانوا في الزمن الماضي يملأون البيت، والآن تملأ صورهم الحائط. تخرج كل عام لتلتقي بهم أسبوعيا وتعود الى البيت الذي اصبح جزءا منها. تسأل نفسها :
- لماذا لا تهاجر وتعيش معهم؟
منذ عامين لم تستطع الخروج. لقد حاولت مرارا ولكنهم كانوا يرجعونها ،
- انك امرأة خطرة .
تذرف دمعة، ترفع صوتها :
- منهم لله .

تنتظر رسالة كل اسبوع. وحين تتأخر الرسالة عن موعدها تجلس على الشباك تنتظر اطيافهم مع المساء. منذ فترة بدأ الشحوب يلازم وجهها :
- تأخرت الرسائل كثيرا هذه المرة.
- ماذا دهاك؟
- لم يرسلوا اية رسالة ؟
- لعلها مشاغل الحياة.
- او لست امهم.
- لعله البريد !

زفرت غيظا، نظرت الى الحائط - الله يرضى عليهم. لو يعرفون قلب الأم.
- يا امرأة. قد يرسلون.

قامت تصنع الشاي. قلت لها : اريد المغادرة فالطقس رديء، والليل خيم، والمواصلات صعبة. قالت :
- نشرب الشاي.
- اخشى ان أتأخر .
- تنام هنا.
- لا يعرفون في البيت، وقد تسود حالة من الفوضى والقلق.
- تشرب الشاي. وانت لماذا اصبحت تمر مرا سريعا. انك مثلهم. حين اراك أراهم.

نظرت الى صور ابنائها، لا اعرفهم كثيرا، غير اني سمعت الكثير منها، تفرقوا ايدي سبأ، عرفت اماكنهم من عناوين الرسائل التي اكتبها لهم باستمرار ... لاول مرة الحظ ان الفحم غير موجود، قلت :

- لقد اصاب الفقر منها ما اصاب !

وتساءلت :

- ترى ما النهاية !

كان الجو غائما، وكانت القطط سيدة الشارع والحي، ارتجفت وانا جالس، وكان صوت القطط يذكرني بطفولة المخيم في الشتاء ..

- هل هم ؟ هل هم ؟

في الزمن البائد كان الطغاة يمرون ليلا ليسترقوا السمع علّ شخصا يستمع الى اذاعة ممنوعة، والآن يجوب الغزاة الشوارع لاعتقال الباحثين عن حريتهم.

جاءت، شربنا الشاي، ثرثرنا للحظات، وطلبت مني ان اعود ثانية لاكتب لها رسائل. اتفقنا ان اعود الجمعة صباحا. وغادرت الحي الذي تقيم فيه من البلدة القديمة. لقد كان فارغا الا من القطط. ومرت بمخيلتي صور شتى لهذا الحي، ابو زيد الهلالي والسيف الذي تعلقه المرأة كذكرى لجدها والبوابات التي كانت تغلق عند المساء .

- ترى ما الفرق؟ البوابات مغلقة. انها بوابات القلب.

حثثت الخطو وعلى الرغم من ان الساعة لم تتجاوز السادسة مساء، فقد كانت الشوارع المضاءة خالية من الناس ولم تكن هناك سوى قطط قليلة تتحرك في الشوارع باحثة عن بقايا اشياء علها تجد فيها ما يسد رمقها.

- اذن هل هو البرد الذي جعلهم يعودون مبكرين. ام اجساد النساء.

لقد اغلقت المقاهي ابوابها باكرا.

- هل هو زمن الموت المبكر؟

كان علي ان اسير طويلا، وكان علي ان لا أتأخر في جو كهذا. ومع ذلك لا استطيع. ان البيت سجن.

- هذه حالة من الموت. اننا مسكونون بالخوف. مغرمون بالغرف المغلقة ولكن .. وضعت يدي على جيبي اتحسس الهوية. وواصلت السير.

في المساء اخذت افكر ماذا سأكتب هذه المرة لابنائها، هل اسألهم عن مدنهم؟ ولكني آثرت النوم منتظرا الموعد. يوم الجمعة صباحا ذهبت، كنت فرحا لأني سأكتب لها رسالة، قلت انني أفعل شيئا على اية حال في زمن العجز والكساح، وفي ظل الفوضى والخواء، الشوارع ذاتها، ما الذي يختلف فيها عن مساء أول امس. كانت المدينة، مثل هذا الوقت، في زمن مضى، مدينة، ولكنها الآن ذات شوارع فارغة.

طرقت الباب طرقات عديدة فلم تجب. صرخت بأعلى صوتي، ولكن دون جدوى. واخذت اتساءل !

- هل حدث شيء

- اهي نائمة ؟، هل نسيت الموعد، هل انتحرت ؟، ماذا جرى لها اذن ؟

عدت اطرق الباب من جديد، صرخت كثيرا، اطلت امرأة من جاراتها وقالت :

- لا احد هنـا،

اين هي ؟

- لقد ذهبت.

- اين؟

- الى القدس.

- لماذا .

-جاءتها برقية. ولم ندر ما السبب؟

- الم تسألوها؟

- ذهبت مسرعة.

وهمست في سري :

- لولا المطر لذهبت الى القدس لابحث عنها.

سرت ناحية المقهى، كان خاليا الا من صاحبه، جلست قليلا وغادرت. ذهبت الى البيت على امل ان اعود اليها مرة اخرى. وحين عدت بعد يومين دخلت فوجدتها جالسة تنظر في صورة ابنها بعد ان انزلتها عن الحائط، تبكي ثم تسأل الصورة:

- ترى هل حدث لك شيء؟

- سألتها ماذا حدث؟

اخرجت ورقة صغيرة كانت وصلتها قبل ان تذهب الى المدينة:

- ان ابنك اصيب بحادث سيارة، يرجى الحضور فورا.

- وهل سمحوا لك بالخروج؟

- لا.

لماذا ؟
- طلبوا مني ان ... وبكت.
فهمت قصدها. واكملت :
- مجانين .

قمت اصنع الشاي لي ولها، خجلت هل اكتب لها الرسائل. كان الشحوب يترك على وجهها علامات كثيرة. وبدت اكبر من عمرها بعشرين سنة.

لم تنظر الى كثيرا. كانت عيناها تنظران الى الصورة وتقطران دمعا، وحين أخذت تلعن الزمن حاولت ان اقول لها شيئا يخفف عنها آلامها، ولكني آثرت الصمت. وسيطرت علي حالة من العجز. وقلت لها نكتب للآخرين الرسائل على اية حال، ثم نفكر في الأمر.

(نابلس ١٩٨٣)

طريق من اجل ارتشاف
قهوة الصباح

(١)

سار باتجاه قاع المدينه ، في الطريق كان منظر الجالسين على الشرفات يسرق انظاره« سعيدون اولئك الذين يجلسون بين اهلهم » همس بينه وبين نفسه.
- يا للقلادة التي فوق صدرك ! علق على الفتاة التي كانت تستعد لركوب سيارتها، واضاف :
- ليتني قلادتك
ولكنه تراجع عن هذه الأمنية حين نظر الى امام، ثمة قلائد كثيرة ذكرته بمصيره. قارن بين القلائد وقال : في المرة القادمة سأقول لها ليتني صديقك. لقد ذكرته العلامات على القبور برحيله الأبدي.

(٢)

القى تحية الصباح على صديقه، شربا الشاي معا، وبعد لحظات تكلم صديقه.
- اتدري اين خالد ؟
- لا
- منذ متى لم تره؟
- منذ اسبوعين
- كنت مسرورا انك لم تسأل اي سؤال بخصوصه.
- ولكن اين هو ؟
- لقد ...
ولم يكمل .. صمت برهة وقال :
- ساحدثك في الطريق
اخذ يبحث عن مفتاح الغرفة، لعن اكثر من مرة.
لقد رأيته قبل قليل : اجال بصره ثم لعن بطريقة حادة - انه في يدي ومع ذلك ابحث عنه.

(٣)
هذيان

الليلة رأيت المدن تغرق في بحر من القاذورات والفضلات تختلط فيها المعلبات الفاسدة مع جبنة البقرة الضاحكة وزجاجات الببسي كولا الفارغة وتجرف التلفزيونات الملونة والثلاجات وفتيات كثيرات يصرخن احداهن تضع يديها على رأسها لتمنع سيل الماء الجارف من مس شعرها وثانية القت بملابسها الخارجية ظانة انها في البحر الميت وارتفع صوتها تنادي صديقها حنا لينقذها هكذا تقول ولكنها تريده ليمارس معا لعبة لا تمل ثم فجأة وجدتني اتعارك مع احد السائقين الذي اصر على اخذ خمسة قروش زيادة وحين حاولت ان اشهر سلاحي هجمت الشرطة الرسمية علي وجردتني منه واذا بخريطة اخرى مرسومة على الجدار واقتادوني الى زنزانة ووضعت وحدي لعل شخصا سبقني فرسمها وتحتها عبارات نصها لقد قرروا اعدامي في الساعة الرابعة صباحا والذي اصدر الحكم مواطن من بلدي كنت قد حذرته مرارا من التعرض لاخوتي الذين يتجهون الى البحر.

والليلة التي قبلها رأيت العمارات في المدينة تحتها سكاكين حادة مكتوب عليها ان من حاول لمس زجاج هذه العمارات لخدشها ولتنغيص حياة اصحابها ستشرب من دمه فهي ما زالت بجاجة لدم الكثيرين من الفوضويين ثم اقتربت من السكاكين وابتعدت فاخترقت جسدي وبكيت اذ تذكرت اخي الذي اتى واتهموه انه يحاول العبث بامن الدولة وظهر لي يركب فرسا يسير مسرعا ويطير احيانا وخلفه عروسه التي كان يحلم فيها في حياته وتبدو في اجمل صورها واختلط دمي بدمه ثم

(٤)
حديث الصديق

« تلك عادة قديمة ولكنها جميلة لولا انك تاتيني ونخرج كل صباح معاً الى العمل لأصابني مس من جنون .. ايام كنا اطفالا في المدرسة في مخيم عين السلطان كنا لا نذهب الا بعد ان نجمع انفسنا .. ولكن شتان بين الزمنين.. صحيح ان طفولتنا بائسة ولكن هم اليوم اكبر ..

- ولكن لم تخبرني عن خالد.

- لقد استشهد.

- واين ؟

في هذه المدينة ؟

مع ذلك فقد عقدت الدهشة لسانه، لم يصدق، ظنه يهذي، فمنذ اسابيع وحالته النفسية ليست حسنة.

- لعل الكوابيس عادت اليك.

- ليتها كوابيس .. انها الحقيقية، انه لم يستشهد ولكنه غادر ولا ادري اين هو ؟ ربما اتجه الى لبنان هذا ما رجحته صديقته.

- الم يكتب لك ورقة ؟

- ليته فعل ذلك ! كنت سأحتفظ بها : الشباب لا يحتملون الحياة في هذه المدن الرديئة فيخرجون منها. لم يحتمل الكذب .. كل صباح يسمع كلاما وطنيا ولكنه لا يستطيع ان يفتح فمه .. و .. وأشياء كثيرة.

(٥)

كوابيس الليلة

ظهرت صورة اخي وقد كتب على جبينه اياك ان تأكل جبنة لافاش كري واياك ان تزور البحر الميت الا بعد ان اعود ثم ظهر لي خالد ملفوفا بالعلم .. ونهض من نعشه وجلس على منصة الزفاف واخرج لسانه مستهزئا بي ثم سالني هل تعشيت؟ واخرج من قلبه جبنة من النوع الفاخر وقال لي انني آكل باستمرار ولا ينقصني شيء واذهب باستمرار نحو الأنهار الجميلة حتى البحر الميت اصبح بحرا حيا. واخرج من مكان في وسطه علبة جبنة البقرة الضاحكة والقاها قربي وقال تفطر وتتغذى وتتعشى منها ولا تكثر من الأكل فتجوع وتذهب رحلة الى البحر الميت في بلدك ولا تنسى ان تصطحب تلك الفتاة الجميلة فهن حضاريات اكثر منا اليس كذلك ولا تنسى ان تظل هنا واياك ان تغادر الى مخيم عين السلطان فهو خاو والحياة هناك لا تطاق فلا شرطة يضايقون الشعب لأنهم يريحونهم فورا ولا تسخر مني. لست منظرا ولا تنسى الشاعر الذي سينظم قصيدة لينشرها في مجلة انيقة الطباعة فيصبح شاعرا وطنيا ويأخذ ايضا مكافأة قد تصل في هذا الوقت الى ثلاثين دينارا فيشتري بالدنانير بدلة انيقة تناسب سيارته الجديدة التي اشتراها بنقود القصائد السابقة.

وحاولت. ان أساله لماذا غادرت دون ان تخبرني فقال لأنك عقلاني ومنطقي وموضوعي ولانك ترى ان الذين يموتون تذهب عليهم وحدهم فيخسرون جبنة لافاشكري ورحلة يوم الجمعة كما انهم يخسرون ركوب سيارة بيجوت قلب الأسد ولن يتمتعوا بمشاهدةالمباراة الرياضية على الستاد كما ان لعبة الطرنيب لم تتم لهم ويخسرون ايضا الجاتوه المزوق وقطع الفطيرة التي ستوزع بمناسبة الذكرى الأولى لزواج سعاد وسعيد. ثم فجأة وجدته يطير وحاولت ان اسأله ماذا اقول لأهله فلم يكترث كثيرا وعاد مع امه فبصقت على صباحي ثم طار وظهر فجأة حاملا اباه فرأيته على احسن صورة وعجبت اذ والده نحيل ذو لحية كثة فاذا به ممتليء الجسد حليق الذقن يلبس الحرير ويبتسم لأول مرة وطار واذا بي اغرق واستنجد بالاخرين ومع الصوت صحوت واذا انا على فراشي.

(٦)

- انني خائف

- اضغاث احلام.

- لكن لو انه ترك ورقة .

كان المصريون يقفون بانتظام ينتظرون ان يفرجها الشرطي عليهم، وحين قال احدهم ان الساعة الثامنة فلماذا لا يتم صرف تصاريح الاقامة، صرخ الشرطي به ولوح بعصاه ثم ساقه امامه، وقال له: تنظف المركز كاملا والا كسرت رأسه وسفرتك الى مصر.

- ارأيت يا صديقي.

- لا تلم خالدا، بحث عن كرامته فاتجه الى لبنان، هؤلاء المصريون ما زالوا يموتون كل نهار. « قارن منظرهم بمنظر تلك الفتاة التي رآها وهو ينحدر الى قاع المدينة .. لمح الوطن حصانا جامحا يجرف في طريقه كل الضعفاء .. ورأى خالدا يحمل سيفا ويهوي به على رأس الشرطي والمصري معا، ثم لمحه يسدد رمحا وسكاكين باتجاه هؤلاء الجالسين.

قبل ان يدخل مكتب الشركة، نظر الى الشرفة فرأى خالدا يجلس عليها الى جانب حبيبته يرتشفان القهوة ويقبلان طفلا جميلا اسمياه وطن. تمنى ان يجلس الجلسة اياها، ولكنه تذكر ان عليه طريقا طويلا يجب ان يقطعه.

عمان (٣/٧/ ١٩٨١)

ثلاث قصص قصيرة

(١)

« المحرر ينشر قصيدة »

جاءني متعبا حدثني عن المدن الرديئة والرشوة والبقرة الضاحكة والناس الضاحكين، وبين كل جملة واخرى يصمت، وطال الصمت بعد ان لفظ اسم المحرر الأدبي في جرائدهم، عاود الحديث عن السيارات الحديثة الأمريكية الصنع، وقال :

- ان احدى مجلاتهم خصصت عددا عن أدب الأرض المحتلة.

لاحظ ابتسامة على شفتي فقطب حاجبيه ثم ابتسم بعد أن طاطأ رأسه وتمتم..

- جبنة لافاشكيري

ارتفع صوته متحدثا عن المحرر الأدبي والشاعر البوهيمي: « لقد ذمه الشاعر بقصيدة، تحدث فيها عن الذي باعه في الجريدة يوم الأحد مقابل المزايا التي حصل عليها بعد الاستنكار .. غرفة واسعة ومقاعد مريحة اشجار باسقة ينظر اليها كلما شعر بملل، وسيارة حديثة واسكان وجرائد ومجلات ملونة ثم .. لعنة على الحياة الماضية لعنة على الفقر والفقراء ».

- انهم يشترون ضمائر الكتاب بالدنانير النفطية، والمحرر يسرق بعض المقالات ينشرها في صحافة غير مقروءة لكنها تدفع بترودولار.

وتابع :

- ليس هذا هو المهم . لقد نشر لي المحرر الأدبي قصيدة مؤخرا، الحقيقة انني استغربت كثيرا، لقد اعطيته قصيدتين منذ عام، نشر الأولى منذ اسبوع ولم ينشر الثانية. قلت لعلها لم تعجبه ولم أساله عنها مطلقا، لما نشرها بحثت عن السبب، تذكرت ان الانتخابات على الأبواب. ضحكت كثيرا: انه ذو ضمير حي، لقد اعجبته القصيدة واعجبته انا، او لست صاحب صوت انتخابي، لست ادري ربما جلب لي مكافأة فلقد سمعت مؤخرا انه اعطى بعض الناشرين مكافآت، سيكون الرابح على اية حال لو دفع المكافآت من جيبه. غدا سوف يصبح ذا منصب وتتعدد سفراته لحضور المؤتمرات.

صمت للحظات وتابع :

لقد افلسوا يا عزيزي انهم اليوم يتاجرون بالأدب فقط، لم يعودوا يبدعون ولوا مرة واحدة، سيارات حديثة ، مكاتب ضخمة وجرائد ملونة.. و .. وجبنة لافاشكري، واصدار بيان يستنكر فيه كل ما يمس بأمن النظام ..

(٢)
« المكافآة »

حين لحظ اسمه بين عشرات الأسماء سر لذلك .. سوف يشتري كتابين وقميصا وبنطالا وحذاء .. « شكرا للكلمة .. اليس كذلك .. غدا سوف يأخذ مكافأة على مقال نشره عن الشعر،

للحظات كان الفرح يملأ عليه جوانبه بل لقد استمرت حالة الفرح لما يربو على عشرين ساعة..

في الصباح حلق ذقنه وارتدى بدلته وسافر الى مكتب المجلة ليستلم المكافأة. سار في شوارع المدينة العاهرة، لم يكترث لشوارعها ولمحلاتها الكبيرة ، لقد كان متلهفا لبلوغ مكتب المجلة، وقف قرب محطة السيارات واخذ ينتظر قدوم الباص بلهفة، نظر الى الساعة « انها التاسعة، لقد تأخرت ، لعنة على مؤسسة النقل التي لا توفر للمواطنين المواصلات باستمرار .. المهم ان اجد المحاسب ». سوف يشتري بنطالا وقميصا وكتابين وحذاء، هذا هو العالم المتحضر، انهم يكافئون الكتاب، « في المدن البعيدة نشرت مئة قصيدة ومئتي مقالة ولم اكافأ حتى بعدد من الجريدة ».

نظر الى الشارع الذي يأتي منه الباص فلمح فتاة جميلة، همس « لو انها تأتي معي نقضي النهار، : وسأعطيها المكافأة، لعنة على الكتب والقمصان و ... والشرق البائس. قدم الباص، دفع الركاب وشق طريقه ليصعد .. " انه يريد ان لا يتأخر كم دينارا سيدفعون ». نظر الى شوارع المدينة .. انها جميلة ولا شك، ولكن هل هي الصدفة التي جعلت المدينة وبالذات احياءها الراقية تتجه نحو الغرب؟ نظر الى اللافتات المعلقة على ابواب المحلات التجارية الضخمة فوجد حروفا عربية ولكنه لم يفهم معنى الكلمات، تساءل : لعلهم يريدون اثراء اللغة! ولام نفسه لانه شرقي حالم .. قرأ بعض الكلمات : بوتيك سيزار، ميرلاند هوتيل، ديبلومات ثم غض الطرف اذ تذكر ما حدث لصديقه الذي سأل البائع عن نوع لا يعرفه من انواع الفاكهة، فكانت اجابة البائع : لا يلزمك ما دمت لا تعرف اسمه .

نزل من الباص .. دخل الى البناية لاستلام المكافأة .. سلم على المحاسب وقال له ان له مكافأة على مقال نشره في المجلة .. بحث المحاسب في الاوراق عن اسمه .. ثم كتب له شيكا بمبلغ خمسين دينارا .. تناول الشيك وبحلق فيه . « مبلغا وقدره خمسون دينارا » ثم نظر مرة اخرى، اصيب بحالة من الاضطراب، فهل يستحق مقاله هذا المبلغ ؟ نظر الى البناية الضخمة، تذكر الحرب التي تقوم على الحدود الشرقية للوطن العربي، تذكر القاص الذي اعاد نشر قصة في ملحق خاص عن الأدب كان نشرها قبل اربع سنين.

وقال :

- لهذا لا يبدعون .. الدنانير .. والمكاتب الضخمة.. والسيارات الحديثة والاسكان في الجهة الغربية من المدينة، والسفر لحضور المؤتمرات التي تعقد له ... ثم اوقف سيارة خاصة تقله للمصرف ليسلم الشيك ويستلم النقود

و .. ويشتري حذاء .. و أخذ يترحم على الذين يموتون في ساحة المعركة على البوابة الشرقية. نظر الى الشيك وأخذ يتساءل:

- لعلهم يريدون مقالا عن ادب الحرب.

(٣)

« المدينة »

حين وصل الى المدينة بدأ يستعيد ملامحها الأولى : ثمة فارق كبير .. اربع سنوات مرت ولم يرها..

- ماذا حدث ؟
- لعلها .. لعلها .. نظر الى الابنية الضخمة فسر :
- ان تبني هذا الكون شيء عظيم.

كانت اللافتات المزدانة تخطف بصره واخذ يقرأها واحدة واحدة .. بوتيك نبيل، ماما هيو ، شركة سنج يونج للمقاولات، بقالة فلسطين، شارع حيفا ..

دهش كثيرا وطلب من ذاكرته ان تستعيد نشاطها، فكر ان يذهب الى البقالة ليشتري ماء صحة وعصير فواكه اجنبي، فلقد سمع كثيرا عن مزايا العصير الأجنبي .. تذكر مدينته فقال: المدن الكبيرة جميلة خاصة اذا لم تكن محتلة، في المدينة السينما الناس، المكتبات، الحدائق العامة و ... والفتيات الجميلات.

تابع القراءة :

بنك الأردن الخليج، البنك الوطني الكويتي ، مصرف الرافدين، فرع البنك العربي، مدموزيل رنا، وكالة ساعات ستزن، محلات عوض للصرافة، شركة نابلس للصرافة .. و .. وجاتوه الأعراس.

لفت انتباهه اللباس العربي الأصيل « الدشداشات »، لم تكن هذه الظاهرة منتشرة قبل ثماني سنوات بل قبل أربع سنوات، آه لعلهم يريدون ان يحافظوا على عروبة المدينة، ترى هل يذكرونك يا جسرا خشبيا اصبحت فيما بعد حديديا.

تذكر مطاعم الواحة حيث الجلسة العربية الأصيلة فحيا العروبة وجسر العودة ثم تمنى لو انه وصل الى الفندق ليستمع الى المذياع : منذ الصباح والحرب مشتعلة في الجنوب، هناك يقترب الوطن وتكون الجسور الحقيقية يا جسرا خشبيا .. ووجد تفسيرا لخلو المدينة من الناس هذا النهار، اذ لم تكن الشوارع مزدحمة كالعادة، انهم يجلسون على العشب في الاحراش وتنتقل المدينة الى الريف حيث يكون الاستمتاع بأكل البوظة التي صنعت خصيصا في المانيا لنهار الجمعة .. ولعن الذين عربوا اسم الجبنة لأن ذلك سيفقدها ميزة مهمة.

- اين سأذهب الآن ؟ الى الفندق . ماذا سأفعل في هذه الساعات الطويلة اشترى صحيفة أخذ يقرأها،
- ليتني .. لم احضر .

نظر الى مكان .. ثمة ناس مجتمعون يتدافعون .. « هذه سينما » نظر الى المناظر المعلقة فوجد صورا لفتيات جميلات في اوضاع مختلفة، ثم غادر بسرعة لئلا يراه شخص يعرفه فيتهمه باللااخلاقية. واخذ يستمع الى صوت خطيب الجمعة من على منبر الجامع، كان الصوت قويا، لاحقه حتى وهو يبتعد عن المكان، كانت الخطبة تتحدث عن المعتصم والمرأة العمورية فتذكر ما يحدث وتساءل: ولكن اين المعتصم ؟ القى بالجريدة على الشارع وداسها برجله ..

صعد درجا يؤدي الى مقهى . في الطابق العلوي، وجد بعض من يعرفهم، رحبوا به وطلبوا له ميرندا طعم البرتقال الصافي وكرروا معا : م .. م .. ميرندا، وارتفع صوت احدهم في اللحظة التي ارتفعت يده الى اعلى : هندريمي وعلق آخر: المهم ان يفوز فريقنا هذا النهار في كرة القدم هل تأتي معنا ؟ لقد اشترينا التذاكر بالسوق السوداء.

ظهرت امامه صورة ما يحدث في مكان آخر، لعن الزمن الرديء وقال: اذا حدث مثلما حدث هنا فليكن الطوفان، ودعهم وهو مصاب بحالة نفسية رديئة، لعن نفسه لمجيئه الى هذه المدينة وبين لحظة واخرى يكرر :

- ليتني لم .. ليتني .. ليتني .

عمان (١٩٨١)

عادل الأسطة

فسحة لدعابة ما

قصص قصيرة

١. فسحة لدعابة ما.
٢. ينعى صغيره.
٣. اكتشافات جبر الفلسطيني في العيد.
٤. محاولة كتابة: إلى روز.
٥. صباح مبكر.
٦. يكتب إلى ابنته: إلى فائزة.
٧. تلبثة.
٨. دقات الباب الثلاثة.
٩. هنٌ .. هنٌ.
١٠. عزيزي خميس.
١١. أسترجع صورة منزلها.
١٢. تبادل أدوار.
١٣. زبيبة الفلسطينية.
١٤. ما يقوله شايلوك !
١٥. بورتريه: مدخل نابلس.

ملاحظة:

قصص هذه المجموعة مستوحاة من انتفاضة الأقصى، باستثناء قصتي تلبثة ودقات الباب الثلاث، ولكنهما تنتميان إلى الزمن الكتابي لباقي القصص.

١. فسحة لدعابة ما

فجأة، بعد أكثر من خمسين يوماً من الحصار ومنع التجول، فجأة يكتشف أن هناك فسحة من الوقت لدعابة ما.

يجلس، منذ الأيام العشرة الأخيرة من حزيران ٢٠٠٢، يجلس يومياً، ما بين العاشرة صباحاً والثانية عشرة ظهراً، على شرفة منزله، ويعود في السادسة مساءً ليواصل الجلوس حتى الثامنة. يراقب في هذه الأثناء المجنزرات والدبابات الإسرائيلية التي تمر من أمام المنزل. يراقب الناس الذين يختلسون فترة من الوقت، في أثناء اختفاء الآليات العسكرية، ليبيعوا وليشتروا. تأتي الحافلات محملة بالخضار والفواكه واللبن، تقف مقابل منزله، ويخرج الناس من بيوتهم، وقد يخرج هو أيضاً ليشتري ما يحتاج إليه. ولا يغادر منزله إلا كلما رفعت قوات الاحتلال حظر التجول لساعات محدودة لا تزيد عن أربع ساعات. ويحدث هذا مرة كل أسبوع أو كل عشرة أيام، وامتد مرة مدة أسبوعين. ومنذ نهاية حزيران حتى الأيام العشرة الأولى من آب لم يذهب إلى المدينة إلا مرات عديدة قد لا تزيد على أصابع اليد الواحدة. غدا الناس سجناء منازلهم. وأصبحوا أسرى، أو رهن الإقامة الجبرية. شعب بأسره رهن الإقامة الجبرية.

يجلس على كرسي مصنوع من البلاستيك، يضع مقابله كرسياً آخر ويمدد رجليه. ينفق ساعتين بالكامل صباحاً، وساعتين كاملتين مساءً. قد يظل وحيداً، قد يجلس معه أقاربه صغاراً وكباراً. وتظللُ الشرفةَ شجرتا نخيل زرعهما أبوه، وحين يمازح أباه يقول له: إنك تشبه ذاك الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً وكان مصيره النار، فلما قتل الرجل المائة دخل الجنة. وأنت الذي لا يصلي ولا يصوم، أنت الذي باع حجته في الطريق، قبل وصوله إلى منزله، أنت الذي ذهبت إلى الحج وأديت الفريضة لأنك سائق باص ليس أكثر، أنت الذي شرب كذا وفعل كذا وعرف كذا، أنت حين زرعت الأشجار المحيطة بالمنزل مثل ذلك الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً، ثم غفر الله له حين قتل المائة، وإذا كان الله سيغفر لك، فإنما سيغفر لك لأنك زرعت الأشجار فقط.

يجلس على كرسي مصنوع من البلاستيك، يضع مقابله كرسياً آخر ويمدد رجليه، وهو لا ينظر إلى هذه وتلك، إذ أولاً، في هذه البلاد لا جدوى من النظر إلى هذه أو تلك، وثانياً إن الحصار المفروض على الناس، ومن قبله الاحتلال فبداية الانتفاضة الثانية، يترك آثاراً على الدماغ فيحاصر العقل ويحاصر أيضاً القلب، ويترك هذا كله أثراً على الناحية العاطفية. ولقد أراد أن يوضح هذا لأولئك الذين يفسرون سبب جلوسه الجلسة نفسها، إذ كان يلحظ أن المخيلة تذهب بهم مذاهب شتى لم تخطر على باله.

ساعات المساء، وهو جالس يتذكر يافا، تهب رياح مسائية تحرك سعف النخيل، ويبدو صوت الرياح وهي تضرب سعف النخيل أشبه بأمواج البحر المتلاطمة. يداعب أباه قائلاً: كأنني أجلس على شط يافا التي ولدت أنت فيها. يبصر ميناء يافا، يتخيل نفسه واقفاً، مساء، على السور ينظر إلى البحر وإلى البعيد. ويتمنى لو ينام، لو يغفو حتى الصباح، ولكنه يغادر الشرفة إلى منزله، فالحشرات تأتي لتلسع جسده، تأتي لتزعجه أكثر مما تزعجه الحشرات الإنسانية العنيدة ذات الفضول، أو الحشرات الإنسانية التي تأبى إلا أن تواصل فرض سيطرتها عليه.

تمر الدبابات من أمام منزله. تلاصق السور فلا يفصله عنها سوى أمتار قليلة، سوى مترين على أكثر تقدير. تارة يقوم من مكانه، وطوراً يجلس. تارة يخاف من جنون جندي، من جنون مفاجئ، فيبتعد، كما يفر الصغار والكبار من الشارع، وطوراً يظل جالساً على كرسيه قائلاً: ليطلقوا النار، فما الفرق بين موت وبين حياة مثل هذه.

ينفق أكثر من خمسين يوماً على هذه الشاكلة. يجلس يومياً الجلسة نفسها، ولا يخرج عن طوره إلا أحياناً قليلة، قد يلعب فيها لعبة الطرنيب أو طاولة الزهر. يحدث هذا أحياناً نادرة جداً، وإن كان يلحظ أخاه وجيرانه يمارسون اللعب منذ السادسة مساءً حتى الحادية عشرة غالباً. يفكر في أن يقرأ رواية يوسف القعيد " أيام الجفاف "، ولكن ما جدوى إعادة قراءتها. إنه قرأها منذ عام ١٩٧٩ يوم أعادت دار الأسوار في عكا طباعتها، وما زال يتذكر فكرتها: مدرس مصري يذهب ليدرس في قرية نائية فيعاني من الوحدة ويبدأ يكتب الرسائل لنفسه ليسلي نفسه. ينفق أربعة أعوام من عمره ويكاد يقترب من الجنون. وهو، لا يقيم في قرية نائية، ولم يمض على الحصار سوى خمسين يوماً. لا يشعر بالوحدة ولا يقترب من الجنون، ولكنه يعيش الحصار، ويكتب قصصاً ومقالات، لا لكي يسلي نفسه، وإنما لأنه اعتاد أن يكتب وأن ينشر ما يكتبه. ثمة ما هو مشترك بينه وبين بطل رواية القعيد، وثمة ما هو مختلف. ثمة سجن سببه العزلة، عزلة الريف عن المدينة، وثمة سجن سببه الاحتلال الإسرائيلي.

يجلس يومياً الجلسة نفسها، يشاهد المدرعات والدبابات والسيارات العسكرية الإسرائيلية. يشاهد الجنود الذين تظهر أحياناً رؤوسهم. يشاهد سيارة عسكرية يجلس فيها ثلاثة جنود، وخلفهم يجلس جندي مدجج بالسلاح. تتوقف السيارة بضع دقائق، ينظر الجنود في خارطة ما، ثم يواصلون سيرهم. ليس ثمة ما يضحك. تبدو الأوضاع محزنة. أحياناً يغض الجنود النظر عن الأطفال الذين يلعبون في الشارع وعن الرجال الذين يجلسون على عتبات بيوتهم أو في ساحاتها، وأحياناً يطلبون من هؤلاء الانصراف إلى منازلهم. قد يكتفون بالكلام، وقد يطلقون قنبلة صوتية أو يطلقون الرصاص الحي في الهواء. تارة يبدون رحماء

متسامحين، وطوراً قساة غلاظاً، إذ قد يعتقلون هذا أو ذاك. تارة يمرون دون أن يحادثوا الناس، وطوراً قد يحادثونهم، وحدث مرة أن وزع جندي ما العصير الإسرائيلي على الأطفال. وشرب كبار وصغار من علبة العصير التي يبلغ حجمها حجم علبة تتسع للتر ونصف تقريباً. شربوا ومدحوا الصناعة الإسرائيلية، فنحن، يقول الناس، لا نستطيع أن نذم الإنتاج الإسرائيلي لأن اليهود محتلون.

ذات يوم، بعد مرور أكثر من خمسين يوماً من الحصار، توقفت سيارة جيب أمام الشرفة. استدعت الشرطة أخاه وبدأت تتحدث معه، ولما وقف، من بعيد، يراقب ما يجري، استدعاه الضابط الإسرائيلي. كان هذا يتحدث العربية، وإلى جانبه يجلس جندي آخر يضع نظارات خضراء، ويحمل بندقية بيده. سأله عن مكان عمله، ثم سأله عن الأحوال. قال له: كيف ترى الأوضاع؟ أجابه ببساطة: أنت تعرف، ولكنني أعتقد أننا متضايقون وأنكم أنتم أيضاً متضايقون. كلانا محاصر، وكلانا يشعر بالضيق. لا أنتم تحيون حياتكم ولا نحن نحيا حياتنا. وسأله الضابط، هنا، عن الحل من وجهة نظره، فأجابه أيضاً ببساطة: تنسحبون من الضفة الغربية وقطاع غزة، ثم تفتحون الأبواب للعمال حتى يعملوا في مصانعكم ومزارعكم. وهنا قال الضابط: لقد انسحبنا، ومع ذلك استمرت العمليات، فأجابه: لقد انسحبتم من المدن ولم تنسحبوا من المناطق كلها. وأضاف: لقد حصلتم على ٨٠% من فلسطين، فاتركوا لنا هذه العشرين بالمائة. وما ذنب هؤلاء الناس جميعاً؟ وسرعان ما قال الضابط: نحن أيضاً نقول ما ذنب هؤلاء. إن شخصاً واحداً يقوم بعملية يؤثر على ألف شخص. أليس كذلك؟ وهنا أجابه: انسحبوا من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧، واتركوا العمال يعملوا وسوف تجدون أن ٩٠% من الناس ضد العمليات، وستعمل السلطة على كبح العمليات. وبينما هما يتحاوران جاء طفل صغير ليصغي إلى الكلام. هنا خاطب الضابط قائلاً: هذا الطفل كان صباحاً في الشارع، أمسكه جندي وضربه كفين. وتأكد الضابط من الكلام حين سأل الطفل، وخاطبه قائلاً: هذا ممنوع، مرة ثانية اترك أباك يذهب إلى حوارة ليشكو الجندي إلى مسؤوليه، وسوف يحاسب الجندي. أنا أعدك أنه سوف يحاسب. وأخذ الضابط يستفسر عن سكان العمارة، وبعد أن انتهى من ذلك، وكان يدون المعلومات على دفتر خاص، أخذ يسأل عن الجيران، وقد امتنع عن الإجابة قائلاً: نحن أصلاً من يافا، ولا نعرف سكان هذه البنايات. نحن مهجرون منذ عام ١٩٤٨. وغادر الضابط المكان.

يعود إلى مكانه. يجلس على مقعد ويمدد رجليه. يضعهما على كرسي آخر. يصغي إلى تعقيبات أخيه وأمه والصغار. يتذكر قصيدة محمود درويش " جندي يحلم بالزنابق البيضاء " ويهمس: هذا أيضاً يحلم بالزنابق البيضاء. مد يده للمصافحة فمددنا أيدينا أيضاً. صافحنا يده على الرغم من كل ما يجري منذ ٢٠٠٠/٩/٢٨، وكل ما يجري منذ عام ١٩٤٨، وعلى الرغم من كل ما جرى منذ

اجتياح نابلس في أول نيسان منذ عام ٢٠٠٢. ويهمس أيضاً: طردنا من مدننا، عشنا حياة اللجوء، أقمنا في المخيمات، وعشنا الاحتلال منذ عام١٩٦٧ ، وها نحن نشاهد الدمار الذي يلم بالمدن وبالشوارع وبالأرصفة، ها نحن نحصي شهداءنا كل يوم، وننظر إلى العائلات تشرد والأطفال يفقدون الآباء، وها نحن نشاهد كل ما أنجزناه يدمر.

ويبتسم: " " أترك أباك يذهب إلى حوارة حتى يشكو الجندي الذي ضربك ". ويهمس: يا الله كم هذا الضابط أخلاقي ورحيم ورؤوف. يا الله كم هو حريص على طفولة أطفالنا ".

ويبتسم: " نحن نعرف هذا. نعرف أن لاجئي نابلس من سكان يافا واللد ". ويعقب ساخراً أو جاداً أو ساخراً وجاداً معاً: يا الله اغفر لهم خطاياهم، فإنهم يعلمون.

ويواصل جلسته يومياً. تمر أيام أخرى والحصار هو الحصار، والدبابات تمر من أمام منزله. وتارة يلعب الأطفال كرة القدم، وطوراً يهربون. وتارة يبقى الرجال يواصلون لعب طاولة النرد، وطوراً يختفون. ويتذكر، يتذكر حواره مع الضابط ويهمس: ثمة فسحة، ثمة فسحة في الحصار، لدعابة ما. ويقول: يا أبانا، يا أبانا اغفر لهم خطاياهم فإنهم يعلمون. ويشدّد على العبارة الأخيرة. ويشدد عليها، لأنهم يرددون ما نردده، لأنهم يعرفون أن اللاجئين هم من يافا ومن اللد ومن غيرهما، ومع ذلك يواصلون احتلالهم ويواصلون محاصرة هؤلاء وغيرهم.

وهو، هو يواصل جلسته يومياً. يجلس على كرسي ويضع مقابله كرسياً آخر، يمدد رجليه ويستمتع، مساء، بحفيف الأشجار، ويحن إلى يافا، ويمزح مع أبيه: لو لم تفعل خيراً في هذه الدنيا سوى زرع هذه الأشجار، لو لم تفعل خيراً غير هذا فإن الله سوف يغفر لك، وسوف تكون مثل من قتل تسعة وتسعين رجلاً فلما قتل الرجل المائة غفر الله له. ويخاطب الجندي: مهما أتحتم للعمال من فرص عمل، ومهما حسنتم من إنتاجكم، مهما قدمتم لنا من جبنة صفراء، وعصير برتقال وتفاح وجريبفورت، مهما أتحتم لنا من فرص، فلن يغفر الله لكم، لن يغفر الله لكم لأنكم زرعتم هذه المخيمات التي ما زلتم تلاحقون أبناءها وأبناء غيرها.

وهو، هو يواصل جلسته، وينتظر أن يكون هناك خبرٌ ما لعل شعب الله المختار يفرج على (الغويم) ويترك هؤلاء يبيعون ويشترون لمدة أربع ساعات ليس أكثر، ولكي يذهب والد الطفل إلى حوارة ليشكو الجندي إلى ضابطه.

٢٠٠٢/٨/٢

٢. ينعى صغيره

منذ شهرين وهو يداعب صغيره، يستنهضه علّه ينهض كعادته، ولكن الصغير يخلد للنوم كما يخلد صاحبه في المنزل أيضاً منذ شهرين لا يغادره إلا إذا فك منع التجول من سلطات الاحتلال، وقد يغادره عصياناً للأوامر وانصياعاً لأمر القيادة الوطنية، وقد ينجو من مطاردات دبابات الاحتلال ومدرعاته وقد يضطر لمداراتها حين يشاهدها في المكان الذي يكون فيه.

ابتدأت الحكاية في الاجتياح الثاني الذي بدأ مع نهاية حزيران من العام ٢٠٠٢، حين أصغى إلى صوت جندي في دورية إسرائيلية يطلب من المواطنين في نابلس أن يلتزموا بيوتهم وألا يغادروها إلى حين. يومها، مساءً، حث الصغير على النهوض فلم ينهض، ويومها، مساءً، نام وهو يشعر أن حركة الدماء في شراييه هو الكبير ليست على ما يرام، ثمة ضربات غير منتظمة، كأنما هناك فقاعات ما، ولما نهض في الصباح داعب الصغير لعله يصحو فما صحا جيداً وسرعان ما غفا.

ومر أسبوع، مر أسبوعان، مر ثلاثة أسابيع وما عاد الصغير يحب النهوض، كأنما خضع للأوامر العسكرية، وكأنما أخذ يكرر ساخراً: " على هذه الأرض ما يستحق الحياة " كأنما هو حزين على ما أصاب المدن الفلسطينية من دمار، وكأنما هو أيضاً حزين على الشهداء والجرحى الذين لا يمر يوم إلاّ وازدادوا عدداً.

ولم ينس الكبير أمره. لم ينس أمره على الرغم من أنه انشغل بأمرين اثنين: متابعة نشرات الأخبار التي يبثها المذياع ويقدمها التلفاز، وقراءة بعض الروايات ودراستها. أخذ الكبير في هذه الأثناء يمارس عادات قديمة كانت تترك أثرها الواضح على الصغير، كانت تستحثه على النهوض فينهض سريعاً قوياً صلباً، كان مطيعاً كأنه يقول: هذا الشبل من ذاك الأسد، وبما أنك نشيط وقوي وصلب فلن أكون إلا صورة عنك. وحين عرض التلفاز الإسرائيلي في هذه الأثناء قصة " مدام بوفاري " تابعها الكبير، لأنه يتابع المسلسلات التي تقام أساساً على قصة كاتب كبير. أخذ يتابع مسلسل " حديث الصباح والمساء " الذي يعرضه التلفاز الأردني منذ نهاية تموز، لأنه مبني على رواية نجيب محفوظ الكاتب العالمي، وحزن كثيراً في هذه الأثناء لأن التيار الكهربائي انقطع لمدة أيام مما حال بينه وبين مشاهدة بعض الحلقات، ورغب عن متابعة مسلسل " أرابيسك " لأسامة أنور عكاشة لأنه شاهده من قبل، ولأنه بعرض في ساعات العصر حيث يكون مشغولاً بقراءة بعض الكتب. وحين كان يتابع مسلسل " مدام بوفاري " نهض الصغير، نهض كما لم ينهض من قبل، ولكنه نهض وبكى.

كانت دموعه بيضاء بيضاء، ولم تكن قريبة من لون الماء الذي لا لون له، لم تكن

مثل لون العسل الفاتح. وكان يشاهد دموع الصغير التي كان لونها يتأرجح من فترة إلى أخرى. تارة تكون بيضاء بيضاء ناصعة البياض، وطوراً تكون كلون العسل الفاتح. ولكن الصغير عاد بعدها إلى النوم. استغرق في النوم، وشغل نومه عقل الكبير لفترات. قال الكبير: لعلها الحرب، لعله الحصار وأصوات الدبابات والمجنزرات التي تمر على الشارع المحاذي لبيته فيشعر، وهي تمر، كأنما تمر على قلبه. قال: لعله الموت غير المعلن، فنحن، منذ شهرين، لم نخرج من منازلنا إلا ساعات معدودة كل أسبوع أو كل عشرة أيام. قال: لعله الشعور بالخسارة للمرة كذا، فمنذ وعى على هذه الفانية، وهو ابن شعب يحاولُ شيئاً، ولكن دون جدوى، يحاول مُلكاً، ولكن الملك كله يدمر، ولا عُذْر. لا عذر، ولم تجد جهود القيصر نفعاً، لأنه الحليف الأول لعدو الشعب الذي ينتمي هو إليه.

مؤخراً تذكر مجموعة " الولد الفلسطيني " لمحمود شقير. لم يرغب في أن يعيد قراءتها ليوثق الجملة التي قرأها، في القصة التي قرأها، القصة التي تجري أحداثها إثر حرب حزيران. يقترب الرجل من زوجته ليضاجعها فلا يستطيع، ويعقب الرجل أو المرأة أو السارد: يحدث هذا زمن الحرب. مؤخراً تذكر القصة وقال: لعل حالة الصغير حالة نفسية. لعله حزين على هذا الدمار الذي ألم بالمدن والقرى والمخيمات، لعله حزين على نابلس وهي تتحول إلى مدينة مهجورة لمدة أسابيع وأشهر، لعله حزين على كبيره الذي يمكث في منزله ولا يغادره، وهو الذي اعتاد أن يغادر منزله يومياً عدا يوم الجمعة.

وقرر أن يرثي صغيره. قرر أن يعلن وفاته حتى الأبد. لقد أحزنه ما ألم بالصغير، ولم يقل حزنه عليه عن حزنه على ما ألم بالوطن كله منذ عامين. فالصغير، على الرغم من كل ما يجري، كان يؤنسه ويشعره أنه هو ما زال على قيد الحياة، وأنه ما زالت فيه دماء تنبض، وأحياناً، وهو يصغي إلى صوت الرصاص مساءً، كان يستبد به المجون وتذهب به المخيلة إلى أشياء ربما لو قَصَّها على الناس لقالوا عنه: إنه مجنون ولا يبالي بما يجري. إن تفكيره كله محصور بالصغير. ولكنه تذكر ما قصه عليه صديقه عام ١٩٨٢، يوم كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف بيروت بالقنابل الفراغية الأمريكية الصنع، وكان صديقه يعد رسالة الدكتوراة في أمريكا. قال صديقه له عن صديقه: لقد اتصلت الليلة بصديقي في أمريكا، ولما قلت له إنهم يقصفون بيروت بالقنابل الفراغية الأمريكية الصنع، قال لي: وها أنا، وأنت تتكلم معي، أقصف أمريكا في أمريكا. هم يقصفون ونحن نقصف. وتذكر القصف الفلسطيني أيضاً. تذكر ردّ المسلحين على الجنود، ولكنه تذكر أيضاً القصف الشامل الذي يمارسه الشعب كله. وقال: إذا كانت الذخيرة نفذت، فإن ثمة ذخيرة لدينا لا تنفذ أبداً. إن ثمة ذخيرة تؤرق أيضاً الإسرائيليين، وتذكر توفيق زياد. رزق توفيق زياد بطفل في السبعينيات من القرن العشرين، ويومها أرسل إلى (كينج) برقية يخبره فيها عن إنجابه عربياً جديداً.

وأحزنه، وهو يرى الصغير نائماً، أحزنه أنه سيخسر المعركة، في ربيع ٢٠٠٢ وصيفه – أي صيف العام – مرتين. وها هي خساراته تتضاعف. وأخذ، خلال الشهرين، يمارس عاداته القديمة.

يصحو من النوم، يشرب الماء الدافئ، ويصنع القهوة ويشربها على مهل. وحين يسخن الماء يذهب إلى الحمام. يحلق ذقنه، ويغسل جسده، ويصنع القهوة من جديد، وفي هذه الأثناء يداعب الصغير كما كان يداعبه من قبل، ولكنه يلحظ أن الصغير يمعن في إغراقه في النوم، كأنما يريد أن ينام إلى الأبد، فما جدوى الصحو والبقاء في المنزل دون الخروج من جدرانه. وحين يلحظ الكبير عدم استجابة الصغير له يتركه وشأنه. لعله يخرج يوماً عن حالته التي ألمت به. لعل مزاجه قد تعكر ولا جدوى من الإلحاح عليه. القضية في النهاية قضية مزاج.

وينصرف الكبير إلى أشغاله. يقرأ في كتاب. يصغي إلى نشرة أخبار، يجلس على الشرفة وحيداً. ويمدد ساقيه إلى الأمام وينظر إلى البعيد. وقد يزوره زائر ما. قد يسأله عن الأحوال وعما يمكن أن يحدث. قد يتحدثان عن الحصار الذي طال. عن العائلات التي قتل أبناؤها ودمرت منازلها. عن (شارون) وما يمكن أن يفعله، وعن ردود أفعال حماس. قد يتحدثان عن الحرب الأمريكية القادمة وعن مهاجمتها العراق. وقد يصغي إلى أبيه يتحدث عن صدام والأسلحة التي يمتلكها، وقد يرد على أبيه بعبارة واحدة: إنك ما زلت تحلم أيها الخبير العسكري. إنك تتحدث عما تتمنى أن يكون. وقد يزعجه صوت دبابة قادمة تصوب نحو منزله مدفعها، فيضطر تارة إلى البقاء مكانه، ويضطر طوراً إلى مغادرة المكان حيث يدلف إلى المنزل، فهؤلاء قد يروق لأحدهم أن يقتل من يجلس على الشرفة. وحدث هذا، في أيام الانتفاضة، غير مرة. حدث في رام الله، وحدث في طولكرم، وفي الانتفاضة الأولى قتلت جارته أمام منزلها. لقد اصطادها قناص رغب في أن يقتل.

حين تقترب الساعة من الثانية عشرة يغادر الشرفة. يذهب إلى المطبخ. يفكر في أمر الطعام. ما الذي ســيطبخه اليوم. ومنذ شهرين عادت به الذاكرة إلى أيام الدراسة الجامعية، يوم تغرب لأول مرة. كانت وجبات الطلبة تتكون من (الفور B). هكذا اختصر الطلبة الكلام حين سئلوا عن طعامهم. (فور B). بيض، بطاطا، بندورة. بيلوبيف. وحين يسأل زميل زملاءه ما الذي يرغبون في طبخه هذا النهار يضحكون: وهل يحتاج هذا إلى سؤال. أنت تعرف الجواب، وغدا، حين يكون دور أحدنا، ستسألنا السؤال نفسه وأنت تعرف الجواب: (فور B). ولم يعد، بعد مرور أسبوعين، يفكر في أمر وجبة الغداء. ثمة لحمة في الثلاجة، وثمة رز وماكرونة وثمة بندورة وفلفل، وحين ينقص الخبز فالرز جاهز وكذلك الماكرونة، وحين يبدأ الطبخ يتذكر الصغير، ويسأل نفسه: لعله، حين أكثر من المنبهات، ينهض من

نومه. لعله يصحو، ولكن دون جدوى. يحاول الصغير النهوض، تدور دورته الدموية، تمتلئ أوردته بالدماء. ويتمدد، ولكن عبثاً يحاول الوقوف. إنه يزحف زحفاً. لعله مصاب بفقر الدم، لعله يعاني من خلل ما، لعله مصاب بالسكري دون أن يدري. لعله. لعله. ويتركه الكبير وشأنه. ينسى أمره لينصرف إلى شؤونه الأخرى فليس الصغير محور العالم، وإن بدا أحياناً كذلك. يتمدد الكبير ساعة، يصحو بعدها ليشرب القهوة ولينصرف إلى كتبه، حتى إذا ما حانت الساعة السادسة مساءً جلس على الشرفة من جديد. يراقب الصغار والمارة. يلعب الصغار في الشارع، يصدرون أصواتاً مزعجة وهم يتقاذفون الكرة، وحين يتفرقون أيدي سبأ يكون السبب معروفاً فالصوت يسبق الصورة. تكون الدبابات قد اقتربت من المكان. يفصح صوتها عن هذا، ويدلل على ذلك هرب الصغار.

وفي المساء أيضاً يصغي إلى نشرة الأخبار. يشاهد المسلسل التلفازي. وحين يذهب إلى النوم يداعب الصغير الذي تركه بلا أم منذ زمن طويل. تركه وحيداً ولم يجد له هنا مربية تعتني به. لو كان هناك في الغرب لوجد مربيات كثيرات يعتنين به ويقبلن عليه. هذا الغرب مثل الاحتلال الإسرائيلي يقتلنا ويمشي في جنازتنا. لا يريدنا ويبكي علينا. لا يريدنا ولكنه بحاجة إلينا. يبيعنا الأسلحة ثم يقرر أن يدمرها لأن الحكام الذين اشتروا السلاح مجانين ويشكلون خطراً على العالم. يستخدم عمالنا في بناء مدنه، ثم يهدم المنازل التي نبنيها إذا ما قاوم أحد أفراد العائلة الاحتلال. لو كانت هناك زوجة أب لربما اعتنت بأمر الصغير، لربما اهتمت به واعتنت بغذائه. إنهن هنا، لكثرة ما يخلفن، خبيرات بأمور الصغار. يعرفن ما يجعله قوياً، ويعرفن ما يجعله ضعيفاً أيضاً. في المساء يداعب الصغير، ومنذ شهرين والصغير لا يستجيب لدعوات الكبير. يخذله. يظل نائماً، يظل يرفض الصحو. ينام في الصباح وينام في الظهيرة وينام في المساء وينام في النوم.

ومنذ شهرين، وهو يداعب صغيره، يستنهض همته علّه ينهض كعادته، ولكنه لا ينهض ويخلد للنوم. هل احتج على مكوث صاحبه في البيت منذ شهرين، هل يحتاج إلى أمر من سلطات الاحتلال حتى تفك عنه المنع. هل يريد أن يخلد للراحة، ولا راحة إلا في الموت، هل هو يدخل في الكوما؟ هل يبحث عن هدوء لا يجده إلا في المقابر؟

وها هو الكبير، ها هو يقرر أن يرثي صغيره. يتذكر الكبير عوانس الحي وأرامله ومطلقاته، يتذكر عوانس الضفة الغربية اللاتي ربما بلغن مائة ألف عانس. يتذكر قصة كتبها في العام ١٩٨٧ أو قبله بقليل تعاطف فيها مع العوانس وقرر نيابة عنهن أن يرفع شكوى إلى الأمين العام للأمم المتحدة (دي كويار) يطلب فيها منه أن يرأف بهؤلاء الفتيات اللاتي حرمهن الاحتلال من الزواج، فمنهن من كانت تعرف شاباً، ولكنه اعتقل، ومنهن من كانت تعرف شاباً، ولكنه استشهد، ومنهن من كانت تعرف شاباً ولكنه هاجر لأن الحياة في فلسطين،

تحت الاحتلال، لا تطاق، فلا عمل ولا هدوء ولا استرخاء، ولم يكن صغيره، يومها، يعاني مما أخذ يعاني منه منذ شهرين. لم يكن دخل في (الكوما)، فقد كان قوياً وصلباً.

وهو، هو الكبير، حين يتذكر قصته تلك، يقرر أن يرثي صغيره، ولكنه يتساءل إن كانت هناك جدوى لأن يرفع أولاً شـــكوى إلى (كوفي عنان) علّ الأمم المتحدة تعقد اجتماعاً تبحث فيه أمر صغيره، علها تعاقب دولة إسرائيل وتحملها مسؤولية دخول الصغير في (الكوما). ولكن ما جدوى ذلك؟

ها هو يرثي صغيره، ها هو يرثي ضحية أخرى من ضحايا الاحتلال وهو يصر على هذا، فلو كان صغيره ضحية آخرين غير الاحتلال لكان مات منذ زمن. لقد تعرض صغيره لمضايقات كثيرة، مضايقات سببها أهله ومعارفه وأصحابه وغير معارفه، مضايقات لم تؤثر على الصغير ولم تغتله. ظل يقاوم وينهض ولم يغفُ، لم يدخل في (الكومة) إلا منذ شهرين.

ها هو يرثي صغيره. وها هو يبحث عن صحيفة يمكن أن تنشر إعلان الوفاة. يمكن أن تنشر الرثاء الذي هو خبر إعلان الوفاة. ها هو صغيره يدخل في (الكومة).

صباح الجمعة ٢٠٠٢/٨/١٦

٣. اكتشافات جبر الفلسطيني في العيد

يذرع جبر شوارع نابلس. يراقب الناس وهم يسيرون في الشوارع ذهاباً وإياباً، ويلاحظ الباعة يعرضون بضاعتهم استعداداً لتجارة رابحة يوم وقفة عيد الأضحى، دون أن يتأثروا كثيراً لإطلاق طائرات (الأباتشي) الإسرائيلية صواريخها على مقر الشرطة في المدينة. لقد تجمعوا بضع دقائق وواصلوا حياتهم المعتادة.

يبحث جبر عن الجريدة. يشتري جريدة " الأيام " ويسأل عن جريدة " الحياة الجديدة " التي تأخر وصولها هي وجريدة " القدس " يقرأ العنوان الرئيسي: " ١٨ شهيداً في أعنف أيام العدوان الإسرائيلي" " آخر ساعة: موجة ثانية من الغارات الإسرائيلية في رفح وغزة وجنين ".

يسأل جبر عن ملحق الجريدة، وحين يعرف أنه لم يصل، يسأل عنه في مكتبها في عمارة السوق الأخضر. يقول للموظفين، على استحياء،: كل عام وأنتم بخير. ويسأل أيضاً عن العدد الأخير من مجلة " الكرمل ".

يشتري جبر جريدة الحياة الجديدة التي وصلت للتو. يقرأ العنوان الرئيسي: " ١٨ شهيداً في حمام دم شاروني جديد ". يلاحظ أن أرضية العنوان كانت باللون الأحمر، وأن الكتابة كانت باللون الأبيض. يلحظ التشابه بين جريدتي الأيام والحياة الجديدة في هذا، كأنما اتفقت الجريدتان على هذا.

يبحث عن صفحات الثقافة في الحياة فلا يعثر عليها، وهو يشتري هذه الجريدة مرتين في الأسبوع، يوم الأربعاء، ليقرأ مقال أحمد دحبور، ويوم الخميس ليقرأ بعض مقالات صفحات الثقافة. ولا يندم لخلو الجريدة من صفحات الثقافة، لا يندم على شرائها فثمة مقال لخيري منصور وآخر لفهمي هويدي، وهما كاتبان يحب أن يقرأ لهما.

يسير جبر في الشوارع. يمر قرب بناية البنك العربي الواقعة قرب دوار المدينة. يلقى نظرة على مدخل البنك، فيجده مغلقاً، ويتذكر أن اليوم هو يوم عطلة. وكان البنك في اليوم السابق قد أغلق الباب الرئيسي، فِيمَ فتح الباب الخلفي لاستقبال الزبائن، وذلك بسبب الجنازات التي ستشيع يوم الخميس، جنازات الذين استشهدوا يوم الأربعاء، ولو لم يكن يوم الأربعاء الوقفة الأولى، لأغلق البنك بابيه.

وودّ، جبر يوم الأربعاء، ودّ لَوْ دلف إلى البنك، ليستلم بعضاً من راتبه الشهري، ولكنه تراجع، فعما قليل ستشيع المدينة الشهداء. وأخذ يواصل سيره، أخذ يذرع الشوارع المكتظة، ينظر إلى الناس يبيعون ويشترون. تقوده قدماه إلى السوق الشرقي ويصغي هناك إلى الأصوات: الجراب بشيكل. فرح الولد. القميص بعشرين شيكلاً مع ربطة العنق. وكان بين

الأصوات صوت مغاير يقول: " يا شارون يا رجّال، حكام العرب أنذال "، ويكرر صاحب المقولة مقولته آملاً أن يلتفت الناس إلى البضاعة التي يبيعها.

ويواصل جبر سيره في الشوارع. يريد أشياء يشتريها حتى ينفق أيام العيد الأربعة. يشتري الطعام والشراب. يشتري لبنا ولبنة ولحماً وبعض فواكه. يشتري ماءً للشرب، فالمياه لم تصل إلى منزله حيث يقيم منذ مدة، وحين سأل عن السبب عرف أن خط المياه الرئيس معطل. قال له من سألهم: إن خط مياه الباذان معطل، وذلك لأن الجنود الإسرائيليين عطبوا الماسورة، وما زالت بلدية نابلس تنتظر تصريحاً من الإسرائيليين حتى تصلح العطب الذي أصاب الماسورة.

يعود جبر إلى بيته. يقرأ تارة، ويكتب طوراً، ويشاهد التلفاز ثالثة. ينتظر أن تمر الساعات حتى يذهب في الحادية عشرة إلى الفراش. يقتل الوقت قتلاً. يعرف أنه سيظل هذا العيد، مثل الأعياد الثلاثة المنصرمة، أسير منزله. أكثر ما يمكن أن يقوم به هو أن يزور أقاربه في مخيمي عسكر وبلاطة القريبين من المدينة، الملاصقين لها.

يصحو جبر يوم العيد مبكراً، ينظف منزله، ويستحم بعد أن يحلق لحيته. يجلس مستمتعاً بأشعة الشمس الدافئة. يستقبل أقاربه من الأطفال، هؤلاء الذين يأتون إليه صباح يوم العيد ليقولوا له: كل عام وأنت بخير. وجبر، جبر يقول هذه العبارة على الرغم مما يجري، ولكنه يلاحظ أنه يقولها كما لو أنها لازمة يكررها الناس في المناسبات. لا يشعر أن قولها يصدر عن قلب فرح. إنها ضرب من المجاملة لا أكثر ولا اقل. وحين اتصل به زميل من كندا، قبل العيد، مساء الخميس وتحدثا عما يجري في الأرض المحتلة وجد جبر نفسه يختتم المحادثة بقول العبارة: كل عام وأنت بخير، وإن كان يدرك أنه لا خير هذا العام، قال جبر العبارة كما لو أنها خرجت دون أن يتحكم بما يقول.

يذهب جبر، في العاشرة، لزيارة أقاربه. يسلم عليهم، ويجد نفسه والآخرين يتحدثون في عدد الشهداء والجرحى. وكلما حان موعد نشرة أخبار يطلب، كما يطلب الآخرون، من ربة البيت أن تفتح التلفاز حتى يستمعوا إلى آخر الأخبار. هذه الأخبار التي يصغي إليها منذ وعي هذه الدنيا. منذ كان جمال عبد الناصر يخطب، ويجتمع الجميع حول المذياع ليستمعوا إلى صوته الرنان، صوته الذي تقاسم مع صوت أم كلثوم وعبد الباسط أذن جبر لفترة طويلة، قبل أن يتعود الاستماع إلى فيروز ومارسيل خليفة وآخرين.

يصغي جبر إلى الآخرين يتحدثون. يقولون كلاماً كثيراً. يتحدثون عن القتلى والجرحى. الشهداء والأموات. قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. ولا يلتفت إلى الأخطاء النحوية التي وقع فيها مذيع الجزيرة في نشرة أخبار الحادية عشرة أو الثانية عشرة، أول أيام العيد. ويقول بعد أن عقب أخوه على أخطاء المذيع: وما الصواب في هذا العالم؟ كل شيء

خطأ. واللغة العربية مشكلة ويجب أن تشكل الحروف حتى لا نقع في الأخطاء. ولو وقع المذيع في عشرة أخطاء وما وقع أمس ثمانية عشر شهيداً لما كان الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة.

يصغي جبر إلى شباب مخيم بلاطة يتحدثون. يقولون كلاماً كبيراً. يتحدثون عن عطب دبابة إسرائيلية قرب المخيم. يتحدثون عن صواريخ قسام. عن دمار المباني. عما يفعله الإسرائيليون. يقولون: إن الإسرائيليين يحقدون علينا حقداً كبيراً. ويخاف الشباب من مصير قادم، يتذكرون صبرا وشاتيلا، ولهذا ظلوا ليلة العيد في الشوارع يحملون السلاح. إنهم لا يريدون أن يموتوا موت الخراف.

صباح اليوم الثاني من أيام العيد، ينظر جبر إلى الجزار يذبح خرافاً ثلاثة، ينظر من الشرفة، ويرى الخراف تعلق بالكلاّب واحداً واحداً، يصغي إلى صوت الجزار ومن معه يتحدثون عما جرى في مخيم بلاطة. يتحدثون عن الدبابة والجرافة التي سحبتها إلى معسكر حوارة.

ويقارن جبر بين الخراف والخراف البشرية. يتذكر صورة شهداء منطقة نابلس السبعة، قبل يومين، يستعيد ما قاله الناس: لقد فجروا رؤوس ستة منهم قبل أن تكتشف جثة السابع. يبدو أن الإسرائيليين استخدموا رصاصاً من عيار ثقيل. يقول جبر: ها نحن خراف الإسرائيليين، وها هم الإسرائيليون يغدون خرافنا أيضاً. ها هم يحتفلون بعيد (البوريم) وها نحن نحتفل بعيد الأضحى.

ينفق جبر بقية أيام العيد وحيداً. يذرع في اليوم الرابع شوارع نابلس. ثمة حركة قليلة. يزور مكتب الجريدة ويصغي إلى أحد الموظفين يتحدث عن شهيد وجريح وامرأة حامل عراها الإسرائيليون حتى يتأكدوا من أنها لا تخبئ في بطنها متفجرات. استشهد زوج المرأة. وولدت طفلة ستعيش بلا أب، وأما الجد الجريح فقد يعيش مشلولاً. يقول الموظف وجبر يصغي. يسأل عن مجلة " الكرمل "، ويخبره الموظف أنها لم تصل بعد. وعلى استحياء أيضاً، يقول للموظفين: كل عام وأنتم بخير. فيم يعقب آخرون: ها هو الخير يتدفق، ها هو يهطل رصاصاً، وينجب لنا أطفالاً بلا آباء أو أجداد، يترك لنا زوجات سينفقن عمرهن وهنّ يتذكرن.

يغادر جبر مكتب الجريدة. يهبط الدرجات. يتذكر حكاية جبر:

مر جبر، ذات يوم، بمقبرة خاصة بأبناء الديانة المسيحية، وأخذ، وهو بين القبور، يقرأ ما كتب على شواهدها وجنباتها، وكان مما قرأه:

عيسى الخوري مات عن ثلاث سنوات. حنا موسى مات عن عامين. سمعان خوري مات عن خمس سنوات. مريم الصغار ماتت عن ستة أعوام. جورجينا عيسى ماتت عن عمر لم يتجاوز الثامنة.

واستغرب جبر حين لاحظ أن أكثر، إن لم يكن كل، من هو مدفون في المقبرة، لم يتجاوز الثامنة. وتساءل إن كانت هذه المقبرة خاصة بالموتى الأطفال. وقرر أن يسأل الآخرين إن كان ما ذهب إليه في تساؤله صحيحاً. وحين سأل الخوري قال له: في بلدتنا لا نحسب العمر الذي يعيشه المرء، وإنما نحسب الأيام السعيدة التي يحياها المرء في حياته. أيام السعادة هي أيام العمر، وأما أيام البؤس والشقاء والمرض والحروب فلا تحسب من أعمارنا.

وأخذ جبر الفلسطيني الذي أنفق أيام العيد يحصي عدد الشهداء والجرحى، جبر الذي لم يغادر مدينته، مثله مثل مئات الآلاف من أبناء شعبه، أخذ يقول لصديقه: ينبغي أن يكتب كل فلسطيني يقيم في الأرض الفلسطينية، ينبغي أن يكتب على شاهد قبره حين يموت:

جبر الفلسطيني من بطن أمه إلى القبر.

٢٠٠٢/٢/٢٦

٤. محاولة كتابة
إلى روز في عيدها

يجلس في منزله. يجلس وحيداً إلا من صور على الجدران ينظر إليها بين فترة زمنية وأخرى. تخفف الصور بعض وحدته، تخفف قليلاً من وحشة هذا العالم. يفكر في أن يكتب لابنته رسالة بمناسبة عيد ميلادها. يفكر في أن يكتب شيئاً مختلفاً عمّا يكتبه الكتاب وينشرونه في الصحافة. وهو، هو مثل هؤلاء. منذ بداية الانتفاضة هو مثل هؤلاء، وحين يعيد قراءة ما كتب يجد أنه صوت من أصوات المهرجان، لا صوت ضائع في المهرجان يصحو من نومه، يستمع إلى المذياع الذي ربما كان أشعله في الثالثة أو في الرابعة صباحاً حتى يطرد التفكير الذي بدأ يراوده منذ ذهب إلى الحمام. يستمع إلى صوت عبد الباسط يجوّد القرآن، يستمع إلى صوت فيروز، وحين تكون هناك أحداث جسام يغيب صوت فيروز ويتواصل صوت عبد الباسط، صوت هذا الذي يعزز لديه مقولة نقدية تعزز قيمة الشكل. هناك قراء قرآن كثيرون، ولكن صوت عبد الباسط آسر.

وغالباً ما يتنهد وهو يحصي عدد الشهداء أو عدد الجرحى. هذه حالة يومية تلازمه، وحين يمر يوم بلا شهداء يكرر سطراً شعرياً:" مر يوم بلا شهداء ". وينسى غالباً ابنته، ينسى ابنتيه، قد لا ينظر إلى صورهما، قد لا يهاتفهما، قد لا يهاتف أي شخص يسأل عن أمر شخصي، عن مقالة، عن بحث، عن كتاب، عن مكافأة لم تصل. وهو، حين يكون في المدينة، يمر أمام مكاتب شركات، يمر أمام مبنى البنك، يمر أمام محلات بيع الملابس، محلات بيع الأحذية، يمر ويتذكر ما يريد ولكنه يغض الطرف عندما يكون هناك شهداء. ومنذ بداية الانتفاضة لا بد وأن يكون هناك شهداء، وحين يكون هناك يوم بلا شهداء يقتنص اللحظة ليسأل عن أشيائه الخاصة.

هو يرغب في أن يسافر إلى مدينة أخرى من مدن الوطن الجريح. ولكنه لا يفعل. لا تقوده قدماه إلى موقف الحافلات.

إلى مَ آلَ هذا الوطن؟ وإلى مَ آل مواطنوه؟ لقد غدا الأسرى أكثر أمناً من غير الأسرى، ولقد غدا الجميع سجناء. حالة من الإقامة الجبرية. (غيتو) فلسطيني أنشأه من مروا بالتجربة، تجربة (الغيتو). لم يبق إلاّ أن تفرض على الفلسطينيين مهنٌ معينة. لم يبق إلا أن تفرض عليهم ألوان ملابس معينة، إشارات معينة يضعونها على أكتافهم. " سنصبح نحن يهود التاريخ ونعوي في الصحراء نحن بلا مأوى ".

يجلس في منزله. يفكر ما الذي سيكتبه لابنته في عيد ميلادها. وهو، هو لم يحتفل ذات مرة بعيد ميلاده. تلك عادة مستحدثة لدى البيئات الفقيرة، وحين تنجز، حين يحتفل هؤلاء بعيد

ميلاد يبدو الاحتفال مصطنعاً. يستكثر هؤلاء الفقراء على أنفسهم احتفالهم بعيد ميلادهم، يدركون في قرارة أنفسهم أنهم يمارسون سلوكاً ما ممارسة غير طبيعية. سيهاتف ابنته في عيد ميلادها، أو قبل ذلك بقليل، ليقول لها: " كل عام وأنت بخير، ولكنه يتمنى ألا يكون يومها شهداء. إن كان ثمة شهداء فلن يقول العبارة لابنته، حتى لو اتصل بها.

يتذكر ابنته، يتذكر ابنتيه. كانت اللقاءات القليلة لقاءات عابرة. كانت لقاءات لا تعبر عن فرح. كأنها كانت واجباً ترك آثاراً حزينة أكثر مما بعثت اللقاءات الفرح في القلب. ثمة حديث لم يكتمل. ثمة خوف يتغلغل عميقاً في القلب. ثمة انكسارٌ. ثمة عبارات لم يتضح معناها. ثمة جرح لم يندمل.

وهو، هو يعرف أنه لن يغادر عالمه. وهما، هما لم تفتحا له قلبهما. ثمة اختلاف بينهم. ويحاول أن يضمهما معاً. وحين يتفرس في وجوه الآخرين، حين يقرأ ما يدور في عقل الآخرين، ويخمن مشاعرهم يبتسم حزيناً. يبحث في مكتبته عن رواية (جوزيف كونراد) " قلب الظلام "، ويتذكر أن كاتباً استعارها منه ولم يعدها. عادات كتاب رديئين يسلك هو، أحياناً، سلوكهم. " هل غدوت كورتيز؟ " يسأل نفسه، ويجيب: لا. لست كورتيز. ويخاطب ذاته: ليس المال هو ما ينسيني الشابتين اليافعتين. يكتب: ذهب كورتيز إلى إفريقيا بحثاً عن الذهب والعاج. ترك خطيبته على أن يعود إليها بعد أن يصبح ثرياً. عاش مع الأفارقة. رقص مثلهم. أكل طعامهم. غدا واحداً منهم حتى يصل إلى مصادر الثروة، وحين اقترب منها مات. وكانت خطيبته في انتظاره يوم جاءها خبر موته.

هو يشتم ذاكرته التي ما عادت ذاكرة حديدية. هو يشتم ذاته التي سمحت له أن يفرط بكتب عديدة أخذ يحتاج إليها حين يكتب مقالته الأسبوعية. تلك الرواية الكوبية لم تغب فكرتها عن الذاكرة. يتذكرها باستمرار، ويريد أن يتذكر اسم كاتبها وعنوانها، وهو يكتب لابنته في عيد ميلادها. لعل ابنته، لعل ابنتيه معاً تعرفان لماذا لم يغادر فلسطين. غادرت المرأة الكوبية (هافانا) مع طفلها، ولم يغادر الزوج. كانت الرسائل تأتيه لماذا لا تلحق بنا؟ لماذا لا تأتي لتحيا حياة أرغد. وهو، هو يضحك منها ويسخر. هو يريد أن يظل في كوبا. هو يريد أن يظل وفياً لبلده، لأفكاره، فمن ليس وفياً لوطنه ليس وفياً لأي شيء، في هذه الدنيا، هكذا كان يقول. " ما اسم الروائي؟ ما عنوان الرواية؟ أين ذهبت نسختها التي كانت بحوزته ".

وسوف تحتفل ابنته بعيدها السابع عشر. ربما تتذكره. ربما تنسى أيضاً شكله. ربما تنسى طريقته في الكلام. ربما يزعجها هاتفه إن اتصل بها وهي تحتفل بعيد ميلادها.

وهو يحاول أن يكتب لابنته في عيد ميلادها رسالة. يحاول أن يقول لها: كل عام وأنت بخير. عيد ميلاد سعيد. ولكنه يأمل أن يصحو في ذلك الصباح دون أن يكون هناك خبر

يعدد مذيعه فيه أسماء الشهداء. وهو، هو الذي أنفق من عمره أكثره تحت الاحتلال، هو ذو الروح الطريد يكرر ما قالته فدوى في بعض قصائدها:

هل يعرف الأعياد أو أفراحها روح طريد

وهو يحاول أن يكتب لابنته. يحاول أن يقول لها: عيد ميلاد سعيد، ولكن لا بد من يوم بلا شهداء.

الأحد ٢٠٠٢/٢/٣

٥. صباح مبكر

فجأة افتتح القصة بما أراد أن يذيلها به: " صباح مبكر " عنوان مجموعة شعرية للشاعر غسان زقطان. وقريب من هذا العنوان عنوان قصة أكرم هنية " موت في صباح باكر ". أراد أن يفصح: ليس هذا تلاصاً، ليس هذا تناصاً أيضاً.

يذهب إلى مكان عمله مبكراً. ينتقل من شرق المدينة إلى وسطها. يمعن النظر في الشوارع: أرصفة خربة، مبان بعضها مدمر. ومنذ آذار ٢٠٠٢ والمشهد هو المشهد. لم تترك الدبابات الإسرائيلية خلفها إلا الدمار. حتى الأشجار، أشجار الزينة لم تسلم من العدوان.

ويفتقد مدخل المدينة أشجار النخيل التي زرعت منذ سنوات. خمس سنوات أو يزيد وبلدية نابلس تهتم بها. ترشها بالماء مساءً. تعشب ما حولها. وفجأة بدت الأشجار مقتلعة. لعل الإسرائيليين يريدون إثبات مقولاتهم: حيثما يكون العرب تكون الصحراء ". وينبغي أن تظل أشكالهم جرداء مثل صحرائهم. " إن جمال نساء إيطاليا مستمد من جمال الطبيعة الإيطالية " قال ناقد أدبي إيطالي.

وما بين الحي الشرقي من المدينة ومخيم عسكر ثمة قوس أقامه أهالي مخيم عسكر القديم. علقوا عليه صور الشهداء، علقوا صورهم صورة صورة، وكتبوا أسماءهم اسماً اسماً. وما عادت صور الشهداء، إثر الاجتياح، موجودة. ما عادت أسماؤهم موجودة. ثمة صورة واحدة ظلت وسط القوس. إنها صورة نعيم اللحام الذي استشهد في الانتفاضة الأم، استشهد في العام ١٩٩٢، وما زال الناس يذكرونه بالخير. ما زالوا يترحمون عليه. كان، هكذا يقولون، نقياً وشريفاً. لم يسرق ولم يبتز أحداً. لم يرهب الآخرين. كان نظيفاً. كان طاهر القلب، يده بيضاء.

ما زالت المباني على ما هي عليه. حتى ما دمر في أيار من العام ٢٠٠١ ما زال على حاله. السجن الذي أنشأه الإنجليز يوم انتدبوا فلسطين، الذي وسعه الإسرائيليون منذ ١٩٦٧، الذي قصفوه في أيار ٢٠٠١، ما زال على حاله. قصفته الطائرات علها تقتل الأسرى الفلسطينيين، فقتلت أحد عشر شرطياً ولم يخلف الإسرائيليون، منذ مائة عام، إلا الدمار، ولم يتركوا في القلب إلا الحسرات. ثمة حقد. ثمة حقد يزداد كلما ازدادت مدة الاحتلال. ثمة قلوب جريحة. ثمة قلوب كسيرة. بدأ الجرح منذ زمن، زمن طويل، ومنذ زمن تغرز سكين الاحتلال في قلوب الناس عميقاً.

وليس هناك في الطريق، من شرق المدينة إلى غربها، ليس هناك ما يسر. هناك ما يلفت النظر. هناك صور الشهداء معلقة على أعمدة المباني. أرصفة خربة مدمرة. هناك مبان

ما زال أثر الرصاص واضحاً عليها. هناك شوارع حركة من فيها ضئيلة. هناك حافلات تقطع شرق المدينة إلى غربها فارغة أو براكب أو راكبين.

وهو، هو يجلس إلى جانب السائق. وتصعد إلى الحافلة. ما إن تجلس في مقعدها وتنقد السائق أجرتها حتى تهاتف زميلاتها. يا الله كم هو رائع هذا الهاتف، وكم هو رهيب مخيف!! هاهي تعلم زميلاتها عن مكان وجودها. ها هي تحدد لهن الموعد الذي ستكون فيه في المكان الذي هنّ فيه. هذا الهاتف يسهل عليها حركتها، وهذا الهاتف هو الذي فجر الرؤوس.

تغادر منزلها في الصباح المبكر. لعلها تناولت فطورها على عجل. لعلها لم ترتب منزلها كما يجب. لعلها نسيت دفاتر التحضير. ولكنها لم تنس هاتفها. إنها تهاتف زميلاتها. تخبرهن أن بإمكانها الوصول في الوقت المناسب، تسألهن إن كانت الطريق إلى مدرسة القرية سالكة، وغالباً ما لا تكون سالكة.

صباح مبكر. لا رغبة في الكلام. قد يتكلم السائق قليلاً. قد لا يتكلم إطلاقاً. قد يتكلم راكب ما وقد لا يتكلم إطلاقاً. وحين لا يتكلم أحد يبدو صوتها مسموعاً. صباح مبكر ولا رغبة، غالباً، في الكلام، ولكنها هي تتكلم.

صباح مبكر وما زال النوم يترك أثره على الركاب. وما زال الركاب يذكرون الله ويطلبون منه الستر وتسيير الأمور. ويبدو الدمار أوضح ما يكون. مبنى السجن. مبنى المحافظة. الشارع الرئيس الذي أنشئ قبل سنوات قليلة. كل هذه بقايا مبان. بقايا شارع. وبالقرب من هذه المباني غالباً ما يكون المعلمون والمعلمات واقفين. غالباً ما يكونون واقفين أمام مبنى مديرية التربية والتعليم. وحين يكون هؤلاء مجتمعين تهبط من الحافلة.

وهي في الصباح المبكر لا هم لها إلا الوصول إلى مدرستها. ربما لا تفكر بالدروس التي ستلقيها. إنها مشغولة أكثر بالطريق. ربما لا تفكر أيضاً بطلابها وطالباتها. تفكر أكثر إن كانت هناك إمكانية للوصول إلى المدرسة. ربما تسأل نفسها إن كانت ستنجز هذا النهار شيئاً. وكم من نهار يمر دون أن تنجز شيئاً.

ولا شيء في الصباح المبكر. لا شيء. ثمة مبان لا تسر الناظرين. ثمة أرصفة خربة كلما مرت بالقرب منها سيارة أثارت غباراً يعلق بالشعر وبالملابس وبالحقائب. وفي الصباح المبكر ثمة إصغاء إلى نشرات الأخبار. ثمة متابعة لأخبار العمليات أو لأخبار الاجتياح. وكلما كان هناك اجتياح، كلما كان هناك حادث تفجيري، تتكرر الأسئلة: كم عدد الضحايا، وبين دقيقة وأخرى تختلف الأعداد ويصحح كل واحد صديقه أو زميله، فآخر الأخبار تقول إن هناك قتلى آخرين. إن هناك اجتياحاً آخر.

ولا شيء في الصباح المبكر. لا شيء، سوى منظر المباني المهدمة والأرصفة المدمرة والمرأة التي تهاتف زميلاتها إن كانت ستصل إلى مكان عملها. والمعلمون والمعلمات

يقفون أمام مبنى التربية، ونشرات الأخبار وعدد القتلى والجرحى، ولا شيء. لا شيء سوى بقايا نعاس.

٢٠٠٢/٦/١٥

٦. " يكتب إلى ابنته "
إلى فائزة في عيد ميلادها

هو يريد أن يكتب إلى ابنته في عيد ميلادها. وهو يصحو ليصغي إلى نشرة الأخبار. شهداء وجرحى وحصار، وقبل أن يصحو كان صاحياً أيضاً: كان صوت الرصاص ليلاً عالياً وكان يهطل مثل مطر كانون. وكان صوت تحركات الدبابات يلامس قلبه، كأنّ دبيب الدبابات على الشارع يدب على قلبه.

هو يريد أن يكتب إلى ابنته في عيد ميلادها. ويريد أن يقول لها: قد أخذت اسم اختك التي اخترت لها اسماً آخر. ولا يدري إن كانت ابنته في عامها السادس عشر ستفهم ما يريد أن يقوله لها كتابة، سيكتب لها: كان ذلك في زمن كانت فيه القضايا الكبيرة تشغل تفكير كثيرين.

(لو كانت لديه نسخة أخرى من كتاب سلمان ناطور: " هل قتلتم أحداً هناك؟ " لأرسلها إليها وطلب منها أن تقرأ الكتاب، ولسوف يشير إلى صفحات محددة، ولكنه سيكتب: أنا شخصياً لا أشعر بندم على شيء فات. لقد فات وانتهى).

وســـيطلب من ابنته، حين يكتب لها، أن تقرأ قصة نجوى قعوار فرح: " أمر الخيارين ". يريد أن يقول لها: هناك حب آخر، هناك حب الأرض، هناك الحنين إلى الماضي. ولا يدري إن كانت، وهي تدرس في المدرسة، لا يدري إن كانت قرأت بيتي أبي تمام:

نقل فؤادك حيث شـــئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول،
كم منزل في الأرض يألفه الفتـــى وحنينـــه أبداً لأول منـــزل

وهو تارة يأخذ بما فيهما وطوراً لا، فالحب الأول يبقى مجرد ذكرى، إنه حب المراهقة التي نسي حبها ومن أحبها، وهو، هو يحن إلى المنزل الأول، حين كان منزلاً، أما وقد تحول إلى مبان صماء مزعجة غير مريحة فما عاد يحن إليه، وحين يمر بالمكان يكرر ما يقول أبو نواس:

دع الربع ما للربع فيك نصيب

ويضيف من عنده شعراً رديئاً:

مبانٍ العيش فيها بؤس جديب

سيكتب إلى ابنته شيئاً عن المؤلفة. سيلخص لها القصة، وسيركز على المغزى لا على المعنى. يكتب إليها: المؤلفة قاصة من فلسطين، لها مجموعات قصصية عديدة. وملخص القصة هو: إثر أحداث ١٩٤٨ تشرد الشعب الفلسطيني وتشتت العائلة. بقى الرجل وزوجته في الوطن وهاجر الأبناء وبدأ الصراع داخل الرجل: حب الأرض وحب الأبناء، وحين تغلبت مشاعر الأبوة وهاجر الأب سرعان ما مات. فما المغزى إذن؟ سيطلب من ابنته أن تتوصل إليه بذاتها.

وهو، هو يود أن يفصح لها عن أشياء. لكنه يخاف. ما زالت ابنته صغيرة، وحين لمح لها بأشياء أذاعتها كما فهمتها. ويتمنى أن يعلمها ذات نهار، أن هناك فارقاً بين قصد المتكلم وقصد السامع. سيقول لها يوم يلتقيها: قصدت أنا شيئاً وفهمت أنت شيئاً آخر. وسيقول لها: تارة خاطبتك بكلام وقصدت به آخرين، وطوراً خاطبتك أنت بالكلام نفسه، ولكني ما عدت ألعب هذه اللعبة التي أخذت تحثني على كتابة قصة عنوانها: " الخطة الجهنمية: تحويل كل من يضع نفسه مكان آخر ليمثل دوره إلى شبيه بالآخر، حتى لو لم يكن مثله سلوكاً وأخلاقاً.

ويتمنى لو كانت لديه نسخة من قصة الكاتب السوفيتي (جنكيز ايتماتوف) " شجيرتي ذات منديل أحمر ". لو كانت لديه نسخة لأرسلها إليها لتقرأها. وسوف يطلب منها، إن هاتفها، أن تقول له ما المغزى الذي أراده الكاتب؟ سيقول لها: (جنكيز) هذا مختلف كلياً عن (جنكيز خان). وهكذا سيكون أوضح لها أن الأخت الكبيرة ليست بالضرورة الأخت الكبيرة دائماً وأن الأخت الصغيرة ليست بالضرورة الأخت الصغيرة دائماً. وسيقول لها بعد سنوات: إن درست الأدب العربي أو الأدب الإنجليزي، سوف أوضح لك الفرق بين النمط والنموذج. وسيقول لها، إن هاتفها وتذكر القصة، سيقول لها: لقد قرأت القصة منذ ثلاثين عاماً وظلت فكرتها عالقة في ذهني. وحين التقيت، ذات نهار، بالفتاة الأولى التي عرفتها، حين التقيت بها دعوتها لكي تشرب الشاي، ولبت، لأنها زارتني، في المكان الذي كنت فيه لكي تشرب الشاي ونجدد حباً مضى، وحين سافرت جاءت لتودعني ووعدت أن تكتب لي، ولم تف بوعدها، ومع ذلك حفظت أسرارها، وحين التقينا معاً لم أعاتبها. سألتها عن أولادها وتمنيت لها حياة سعيدة.

وهو يكتب إلى ابنته. هو يكتب إليها. وسيسأل نفسه إن كانت ولادتها تمت، هكذا صدفة، في الثلاثين من آذار. سيسألها إن كانت، هناك في الشتات، تعرف شيئاً عن الثلاثين من آذار. سيقول لها إن هاتفها: ها نحن نحتفل في الذكرى السابعة والعشرين ليوم الأرض، الأرض التي لم يُبق منها الاحتلال شيئاً. غدت ذكرى. غدت أندلساً ثانية، غدت فلسطين التي ما عادت فلسطين. لقد خسرنا كل شيء. ربما لفترة مؤقتة. ربما فليس هناك يقين ثابت على هذه الأرض. وسيقول لها: لئن ورد في العهد القديم: قمة الإنسان هاوية، فيمكن القول أيضاً:

قمة الدول هاوية، وربما تحفظين التاريخ أكثر مني. ربما. ربما. ربما، وسيصر على ربما. سيقول لها، يا أمنا الصغرى، يا أمنا الكبرى. يا أمنا. لهذا نطلق أسماء الكبار على المواليد الجدد. ولهذا وحد الأقدمون بين المرأة والأرض. لقد خلقنا من طين.

ولن يكتب لها، لن يكتب لها لماذا بقي وحيداً؟ لماذا آثر العزلة؟ لعلها أدركت هذا، ذات لقاء، لعلها فهمت قصده جيداً يوم اجتمعا معاً اجتماعاً قصيراً عابراً. وهو، هو منذ زمن يريد أن يرسل إليها نسخة من قصيدة الشاعر المصري " أمل دنقل "، قصيدته التي عنوانها: " مقابلة خاصة مع ابن نوح ". وسيضع إشارات حول المقطع:

" الصبايا يلوحن فوق السطوح! "

و

" كان قلبي الذي نسجته الجروح
كان قلبي الذي لعنته الشروح
يرقد – الآن – فوق بقايا المدينة
وردة من عطن
هادئاً ..
بعد أن قال " لا " للسفينة
وأحب الوطن ".

(سيقول لها أن الوطن هنا هو الوطن الحقيقي لا الوطن المجازي الإشاري الرمزي).

ولكنه، وهو يكتب إلى ابنته، قبل أن يحين تاريخ ميلادها، لكنه يسأل نفسه إن كان سيهاتفها ذلك اليوم، آملاً ألا يسير في شوارع المدينة هاتفاً مع الآلاف: يا شهيد ارتاح ارتاح، نحن نواصل.....

٢٠٠٢/٢/٢٥

٧. تلبثة

كم هو جميل ذلك الصباح الربيعي. كم هو جميل ومشرق. يصحو من النوم، ويذهب إلى الحمام ليمارس عادته اليومية التي اكتسبها في ألمانيا. يحلق ذقنه، ويقف تحت (الدش) مستمتعاً بالماء الساخن. يقف يومياً. في الشتاء، كما في الصيف، خلافاً لما كان يفعله في بلده حيث كانت الطقوس تمارس صيفاً، أما شتاء فكان البرد يحول بينه وبين طقوس الحمام يومياً. يتذكر، وهو في الحمام، ما قاله له صديق درس في ألمانيا: الحمام والخضراء والوجه الحسن. الماء الساخن طيلة أربع وعشرين ساعة.

يصنع القهوة وتسحره أشعة الشمس. يوم ربيعي جميل يذكره ببلاده في أيام الربيع، مع فارق واحد: النهر. بلاده تفتقد إلى الأنهار، وهنا الأنهار مثل شرايين الجسد. لا حياة دونها. وأكثر المدن الألمانية أقيمت على الأنهار. ما من مدينة زارها إلا وكان النهر يخترقها، وشرح له صديق ألماني سبب إقامة المدن على ضفاف الأنهار: حين كانت السفن وسائل النقل كان لا بد من إقامة المدن على الأنهار. هذا ييسر الحركة ونقل البضائع. وظلت المدن على ضفاف الأنهار.

ينظر إلى النهر من شباك غرفته. يخرج إلى ضفة النهر، حيث يستلقي الطلبة. هناك اكتشف أجسادهن. هناك فوجئ ببعض من يعرفهن، الإسبانية والإيطالية. حين كان يلتقي بواحدة من هاتين كانا يتبادلان التحيات، ولم يرغب فيهن، ولا يدري إن كن يرغبن فيه، ولكنه لم يرغب عنهن أيضاً. كانتا هادئتين، الإسبانية مرحة والإيطالية امرأة عبوس. وعلى ضفة النهر اكتشف جسد هذه وتلك. مازح الإسبانية قائلاً: لم أكن أظن أن جسدك على هذا القدر من الجمال، حين رأيتك ظننتك امرأة أخرى. ضحكت وظلت كلما رأته تمرحبُه. ولم يقوَ على قول ما قاله لها للإيطالية. كانت امرأة لا تضحك للرغيف السخن، كما يقولون في بلادنا. ولا يدري إن كان تجهم وجهها هو ما جعلها تنفق عاماً كاملاً في ألمانيا دون أن تعرف صديقاً. وكانت تختلف عن تلك الفتاة الكندية، وتلك الفتاة الإنجليزية، وعن الإسبانيات الثلاث. جميع هؤلاء صادقن خلال العام الذي أقمن فيه في ألمانيا. أكثرهن نسين أصدقاءهن في بلادهن، ومنهن من فكرت في الارتباط بألمانيا والبقاء فيها. الإسبانية النحيفة الطويلة الرشيقة حنطية اللون، قالت له هذا، بعد أن أخبرته، يوم وصولها إلى ألمانيا، أنها تشعر بالحزن لبعدها عن صديقها.

يخرج إلى ضفة النهر. كم هو جميل ذلك الصباح الربيعي. كم هو جميل ومشرق. يأخذ بيده كتاباً ويذهب ليستلقي على ضفة النهر. ولا يرى إلا امرأة واحدة لم يرها من قبل. كانت ترتدي (المايو) وتجلس على كرسي معرضة جسدها للشمس. لم يمرحبها لأنه لم يكن يعرفها. وحين رأته أخذت تأكل الموز بشهية. وابتسم في سره. تذكر (كاترين). تلك الفتاة

الجامعية التي عرفها في مدينة ألمانية أخرى. و(كاترين) هادئة وديعة وتحب أن يكون لها صديق، وكان لها صديقاً لمدة قصيرة. اشترطت عليه شرطاً واحداً هو ألا يعرف غيرها من النساء، ووعدته أن تساعده في إعادة صياغة ما يكتب بالألمانية، بل ولم تتردد في تزويده بنسخة من كتاب (أدولف هتلر) " كفاحي "، وأخبرته أنها نسخة تعود إلى زمن حكم هتلر، ما زالت جدتها تحتفظ بها، وكان يحتاج إلى الكتاب ليقرأه ويفيد منه في دراسته. ولا يدري إن كانت (كاترين) أحبته أم أنها كانت بحاجة إليه أم أنها ... وحين زارها في منزلها، وكان قد اشترى موزاً، أخذت تأكل الموز بشهية، وغازلها، وساعة غازلها أرادت أن تكون مهذبة نوعاً ما. أرادت أن تبدو فتاة مجربة. طلبت منه بصوت مغناج أن يكون هادئاً ورقيقاً وهو يمارس معها الحب. طلبت منه أن يتم ذلك على مراحل. لم تكن امرأة وحشية. وأخذت تقضم الموز رويداً رويداً.

استلقى على ضفة النهر. لم يكن، يومها، قرأ ثلاثية حنا مينا الكاتب السوري، الثلاثية التي قرأها بعد عشر سنوات. وتذكر، وهو يقرأها (كاترين) والموز. ثمة امرأة تحب، في رواية مينا، الموز حباً جما. تفصح عن حبها أمام النسوة، وحين يكون هناك صغار تلمح ولا تفصح.

وأخذ يتابع الفتاة وهي تأكل الموز رويداً رويداً. تأكله بهدوء وتنظر إليه، ولأنه موضع سؤال، لأنه كان مراقباً منذ مدة، فلم يحادث الفتاة. لم يسألها عن غرفتها التي تقيم فيها في مسكن الطلبة. لم يسر وراءها كما سار وراء (كاترين). غض النظر عنها على الرغم من أن الجو ربيعي يدفع المرء لأن يقول: على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

و (كاترين) في مدينة أخرى. و (كاترين) هنا. والشمس شمسان. ولا تظلله شمس من الشمس. وجسده يستمتع بأشعة الشمس، وقلبه يرق للشمس الثانية، وكان بوده لو يذهب معها إلى غرفتها، غير أنه غدا مثل سارية بن حصن، غير أنه استمع إلى صوت يأتيه من بعيد: الجبل الجبل. وظل جالساً في مكانه. ظل في مكانه.

الجمعة ٢٠٠٢/٢/١٥

٨. دقات الباب الثلاثة

لم يكن ذلك المساء من نهاية آذار، لم يكن غادر منزله. كان ينتظر قريبه وصديقه اللذين اتصلا به وأخبراه أنهما سيزورانه ليقيما عنده ليلة قبل أن يغادرا إلى مدينتهما الجديدة. وحين اقتربت الساعة من الحادية عشرة مساءً فقد الأمل في مجيئهما. قال: لعلهما غيرا رأيهما. حاول أن يتصل بقريبه مراراً، ولكن الهاتف كان يعطي إشارة أن لا أحد في المبنى.

أشعل التلفاز وجلس في غرفته وحيداً. ترك الصالة مضاءة، ولم يفعل ما يفعله الألمان الذين يقتصدون في استعمال الكهرباء، فلا يضيئون إلا المكان الذين يكونون فيه. ولم يكن يفعل ذلك لأنه يدفع أجرة الماء والكهرباء مع الأجرة الشهرية للغرفة، لم يكن يفعل ذلك لأن بإمكانه أن يستهلك ما يريد من الماء والكهرباء دون حساب، ولكنه أراد أن يقول لقريبه وصديقه إنني هنا. وحين اقتربت الساعة من الثانية عشرة ليلاً لم يكترث للقادمين الذين أخذوا يقرعون الجرس. لقد فقد الأمل بمجيء صديقيه بعد العاشرة ليلاً، فقد وعداه أن يأتيا نهاراً. قال: لعلها (جسطين) تريد صديقها الإنجليزي، صديقها الذي يقيم معه في غرفة مجاورة. ولا يدري لماذا لم يكن يغازل (جسطين) حين تأتيه ليلاً لتسأله عن صديقها الذي كان يتهرب منها، ويذهب مع صديق له، ولا يعود إلا الساعة الثالثة أو الرابعة مساء. وقال أيضاً: لعلها ليست (جسطين)، لعلها (يوهان) أو لعل القادم واحد ممن اختلف معهم، ولم يرغب في أن يفتح الباب. لقد آثر أن يشاهد التلفاز، ولو كان من يقرع الجرس قريبه لتكلم بالعربية، لصرخ من قرب النافذة، واستمر قرع الجرس، واستمر هو في لا مبالاته. لقد وعده قريبه أن يأتيا نهاراً.

فجأة رن جرس المنزل ثلاث رنات.

كان قال لجاره العربي، قبل أن يختلفا، كان قال له: حين تأتي فأضغط زر الجرس ثلاث مرات وسأعرف أنك أنت. ولكنه، الآن، ما عاد يتكلم مع جاره العربي، فما الذي جعله يأتي؟ هل ثمة ما هو ضروري؟ هل ثمة ما يرغب في أن يقول له بعد أن تخاصم جاره وزوجته قبل أيام خصاماً عرف به الجيران كلهم، فقد كان صراخ الزوجة في الليل متواصلاً ومسموعاً؟

كان قال لجاره العربي: لا أرغب في بعض الزوار، أحياناً أفضل أن أكون وحيداً، أحياناً قد تأتي زوجتك فجأة لتتأكد إن كنت وحيداً أم أنني بصحبة فتاة ما، أحياناً يزورني بعض معارفي ولا أرغب في استضافتهم.

ولا يدري لماذا وجد قدميه تجرانه إلى باب المبنى الرئيس. أأراد أن يعرف ما الذي يريده هذا الجار، على الرغم من أنه لا يرغب إطلاقاً في محادثته. " جار انتهازي ولا يبحث إلا عن مصلحته. جار ما عاد يهمه إلا أن يحل مشكلته حتى لو ذهب جميع الأصدقاء إلى الجحيم. جار انتهازي ". قال مخاطباً ذاته وقدماه تجرانه نحو الباب الرئيس.

وفوجئ بقريبه وصديقه. فوجيء، بهما. قالا له: منذ ساعتين ونحن نضغط زر الجرس وأنت كأنك غير موجود. قال لهما: أنا، هنا، في المطبخ، أحتفل مع الطلبة، وأنا، هنا، في الغرفة سمعت رنات الجرس الثلاث، ولكنني تساءلت: لا يعقل أن يكونا، فمن أين عرفا الإشارة.

ولم يسألهما من أين حصلا على الإشارة التي لم يعطها سوى إلى جاره الذي لم يرغب في استقباله. لم يسأل عن سبب تأخرهما في الحضور، لم يسألهما لماذا لم يفيا بوعدهما، فقد بررا ذلك. ولم يعرف أنهما فعلا ما قاما به لأنهما دميتان. أرادا أن يتأكد إن كان ينام في غرفته ليبلغا جهة ما بذلك.

وحين أخذ يسألانه عن الدراسة في ألمانيا، وعن إتقانه اللغة التي رسبا في امتحانها، قال لهما: لستما أول من يرسب، لقد رسبت مرة، ورسب فلان مرتين وفلان ثلاثة وغادر فلان، بعد أن حصل على الدكتوراة، دون أن ينجح في امتحان اللغة. وليس أمامكما إلا أن تصبرا. وكان، وهو يحدثهما، يتذكر رنات الجرس الثلاث. ويدرك أنهما على صلة بجهة ما. كانت دقات الباب تقول له هذا.

وكان يسأل نفسه: أأنت مراقب من الموساد أم من جهة ألمانية أم من جهة ما في وطنك؟

والآن، الآن كلما أصغى إلى ضربات ثلاث، دقات ثلاث، كلما اتصل به شخص من بعيد، كان شكله يشبه أحدهما، أو كان اسمه يشبه اسم أحدهما، كلما حدث ذلك تذكرهما وقال: ثمة تغيير عوالم. ثمة تمثيل أدوار.

وهو، هو يحاول أن ينسى ما قاما به، يحاول أن ينسى تلك الليلة وما جرى فيها. هو يحاول أن ينسى دائماً لكن الآخرين لا ينسون، فما زالوا يصدرون عليه الأحكام وكأن الزمن توقف أمام أحداث معينة وزمن معين.

وهو، هو يحاول أن ينسى. ولكنْ .....

الجمعة ٢٠٠٢/٢/١٥

٩. هُنَّ ... هُنَّ

لم تمضِ أيام ثلاثة على انسحاب دبابات الغزاة من نابلس حتى رأيتهن.

أخذت في اليوم الأول أجوب شوارع المدينة لأشاهد ما خلفه الغزاة من دمار. رأيت مباني كثيرة قد هدمت. رأيت الشوارع التي خربت أرصفتها يملؤها الطين والغبار. أبصرت صور الشهداء القدامى ولم أبصر، في اليوم الأول، صور الشهداء الجدد، الشهداء الذين ودعوا الحياة في ربيع ٢٠٠٢، فلم يكن الوقت، بعد، يسمح بتعليق صورهم، وهذا ما تم بعد أربعة أيام تقريباً.

نظرت في اليوم الأول، إلى بنطالي وحذائي فأبصرت الطين عالقاً بهما، وحين عدت إلى منزلي نظفت ما علق بهما من طين، ودلفت إلى الحمام لأغسل رأسي وجسدي مما علق بهما من غبار.

وكان منظر المدينة محزناً ومؤلماً. ومن يقدر قيمة المدن التاريخية ونابلس منها، يتحسر على نابلس، عدا تحسره على الشهداء، مرتين؛ مرة على المباني التي يحتاج ترميمها إلى ملايين الدولارات، ومرة على المباني التي ستفقد شيئاً من بريقها التاريخي. وكنت أتحسر على المدينة مرتين.

لم تمض أيام ثلاثة على انسحاب دبابات الغزاة من نابلس حتى رأيتهن. على ساحة الدوار رأيتهن. كانت الفصائل الوطنية تلملم جراحها وتعلن أنها هزمت، ولكن الاحتلال لن يقضي على الإرادة الوطنية.

ولم ألتفت كثيراً للشعارات التي انطلقت من صوت شخص يقبع داخل سيارة (فولكس فاجن)، الشعارات التي توقفت للحظات، ربما لخلل فني ألم بـــ (الميكروفون). والتفت إليهن. أبصرت وجوههنّ. رأيتهن. هنّ هنّ. وتذكرت بائع الحلوى في السوق الشرقي. تذكرت عباراته يخاطب أهل الريف طالباً منهم أن يشتروا الكنافة: " إلكم .. إلكم " اشتروها اليوم قبل الغد، فهي لكم أيضاً، هي لكم إن مَرَّ يوم فهي لكم، وإن مرّ أسبوع فهي لكم أيضاً. هذه الكنافة خصيصاً لكم.

على ساحة الدوار رأيتهنّ. رأيت نساءً في الخمسينات أو يزيد عشراً. رأيت بينهن نسوة ارتدين الجلباب الشرعي، وهذا ما أخذ يبرز منذ عشر سنوات بروزا لافتاً. رأيت صبية صغيرات السن، وغالباً ما كانت صغيرات السن حاضرات، غلباً ما كن حاضرات منذ خمس وعشرين سنة، لكن أكثرهن كن يغبن، ربما لأنهن تزوجن، ربما لأنهن تركن اليسار الذي انتمى إليه المئات للحظة عابرة، وربما كن – أي الصغيرات – يساريات عابرات. وأكثر

الحاضرات كنّ هنّ هنّ. هن اللواتي أراهنّ منذ خمسة وعشرين عاماً. وهمست، وأنا واقف على الرصيف: غدا، بعد عشر سنوات، من سيخلفكنّ؟

رأيتهنّ وأنا أمعن النظر في الخراب الذي خلفه الإسرائيليون وراءهم. الدمار متعدد الأشكال. سحق الأرصفة. تحطيم اللافتات. اقتلاع الأشجار. انتزاع حديد السياج. تدمير بعض المباني. كسر بعض أبواب المحلات. ومنذ خمس وعشرين سنة أراهنّ في المظاهرات. منذ انتفاضة الطلبة في عام ١٩٧٦ حتى مسيرات ما قبل الاجتياح ٢٠٠٢. أراهنّ، وأنا أشارك معهنّ، من قريب أو بعيد، في المظاهرات، مشاركة عابرة. نسوة متعلمات. بعضهن عوانس. بعضهن متزوجات لم يخلفن. بعضهن مثقفات تعرفت إليهن في الندوات التي كانت تقام في المراكز الثقافية في المدينة، الندوات الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية. بعضهن انحدرن من أسر برجوازية معروفة في المدينة، وبعضهن انحدرن من أسر فقيرة أثبت أفرادها أنفسهم من خلال التعليم. وأنا على الرصيف أنظر إلى المتظاهرين والمتظاهرات تذكرت ما قلته، ذات يوم، لبعضهن؟ كنت يومها، أنهيت محاضرة حول صورة الأنا والآخر في الأدبين الفلسطيني والعبري، وأخذت أحتسي الشاي معهن. قلت لهنّ: ليحفظكنّ الله، ليحفظكنّ الله ذخراً للمدينة، فماذا إذا امتد بي العمر عشر سنوات. هل سألقي محاضرة عامة في المدينة؟ هل سأجد من يدعوني؟ وإذا وجدت من يدعوني فهل سأجد من يصغي إليّ؟ أنتنّ. انتن. ولا أحد يأتي إلى المحاضرة سواكنّ. لا أحد يشارك في المظاهرات، من نسوة المدينة، غيركنّ. أراكنّ في المحاضرات. أراكن في الاحتفالات الجماهيرية، ولا أرى، إلا نادراً، غيركنّ. ومنذ توفيت فلانة وفلانة بدأ عددكن يتضاءل. رحمة الله على فلانة وفلانة وفلانة. كن دائماً يأتين. لقد فقدت المدينة، بغيابهن، معالم ثقافية بارزة. لقد فقدت نسوة متعلمات يجادلن في الأدب والسياسة.

لم تَمْضِ أيام ثلاثة على انتهاء احتلال المدينة حتى رأيتهن. يسرْنَ خلف الرجال. كأن المجتمع ما زال منقسماً إلى عالمين: عالم الرجال وعالم الحريم. ثمة تحرر جزئي. ثمة إنجاز نسوي، ولكنه ما زال أسير عالم مضى. عالم كتبت عنه ابنة المدينة الشاعرة الكبيرة في سيرتها. الرحلة جبلية وصعبة. خرجت المرأة بعد نكبة ١٩٤٨ من قمقمها ولكن خروجها ما زال خروجاً جزئياً. هكذا تقول لك المظاهرة. هكذا يقول لك استقلال الحافلة. تجلس المرأة إلى جانب المرأة. يجلس الرجل إلى جانب الرجل، وحين تصعد امرأة إلى الحافلة وتجد رجلاً هنا ورجلاً هناك تطلب من أحدهما أن يترك مقعده ليجلس إلى جانب الآخر حتى تجلس هي وتجلس امرأة إلى جانبها. يسرن خلف الرجال الذين يسيرون منذ خمسة وعشرين عاماً أو منذ عشرة أعوام، فالأخيرون عادوا إلى فلسطين منذ اتفاقات (أوسلو)، وأخذوا يسيرون في مظاهرات نابلس ومسيراتها، بعد أن كانوا يسيرون في شوارع بيروت أو دمشق أو عمان.

وأغلب الرجال من بقايا اليسار. أغلبهم تخلى عن منظمته أو حزبه أو تنظيمه، ولكنهم ظلوا قريبين من البقايا. يسرْنَ ويسيرون. يسيرون في مسيرة تضامناً مع أسرى لم تطلق السلطات الإسرائيلية سراحهم. يسيرون في مسيرة احتجاج على قتل قائد أو مناضل. ينددون معا بالاحتلال. يطالبون بإطلاق سراح السجناء الذين ما زالوا يعانون كما كان بقايا اليسار يعاني.

والنسوة هُنّ هُنّ. يعرفن بقايا اليسار. كان النسوة وبقايا اليسار وبعض أفراد تنظيمات غير يسارية يتهاتفون معاً ليقولوا: ما زلنا على مبادئنا. ما زلنا نمتلك حساً وطنياً. ما زال هناك من يسأل عن هذا الوطن وأبنائه ممن يستشهدون. كأن الجميع يريد أن يقول: خمسة وسبعون شهيداً سقطوا في الدفاع عن الوطن، وهناك في الوطن من يشارك في تشييع الجثامين التي شيعت. أن هناك من يقول للغزاة: ما زال فينا نبض ما، لم تقتلوا منا سوى خمسة وسبعين. والنسوة هنّ كن أيضاً يقلن. كن أيضاً يرفعن الأعلام. كن يرفعن أعلاماً حمراء وأخرى خضراء، وثالثة تجمع الألوان الأربعة: الأحمر والأخضر والأبيض والأسود، ألوانَ العلم الوطني. وكان اليساري الذي يهتف في كل مظاهرة منذ عشر سنوات، كان يهتف للوحدة الوطنية. اليسار يهتف واليمين يستشهد. هذا ما قالته الأحداث الأخيرة. كأن اليسار وغير اليسار من غير اليمين اكتفى بالهتاف، تماماً كما اكتفيت أنا بالإصغاء، والسير أحياناً قليلة جداً في المسيرات. ها هو اليسار وها هي النسوة، ها هُمْ يهتفون ويسيرون في مسيرات استشهاد اليمين.

وها أنا أقف على الرصيف أصغي إلى الشعارات وأشاهد المسيرة لأكتب قصة ما. كان هَتّاف اليسار يهتف للوحدة الوطنية. كان يقر بالهزيمة العسكرية، ويصر على انتصار الإرادة. وكان اليسار الباقي، وكانت النسوة، كانوا يهتفون.

وهَنّ كُنَّ يهتفْنَ. هُنَّ. هُنَّ. وقد زدْن نسوة قليلات العدد ربما كنَّ زوجات شهداء اليمين. ربما كنَّ أخوات الشهداء. كنَّ يسرن في شوارع المدينة التي ما عادت شوارع، شوارع المدينة التي دمرتها دبابات الاحتلال كما دمرت الأرصفة واقتلعت أشجار الزينة التي أعتقد أنها تقض مضاجع اليهود الذين يصرون على أنه حيث يوجد العرب توجد الصحراء، وأن الخضرة هي، في فلسطين، من ثمار اليهود الذين حولوا الصحراء إلى جنة.

ولم تلتفت بعض النسوة إلى أنهن أخطأْنَ وهنّ يرتدين اللون الأسود. لعلهن لم ينظرن إلى رجالهن وهم يعودون من شوارع المدينة في اليوم الأول بعد انسحاب الغزاة، لعلهن لم يلتفتن إلى رؤوس الرجال وملابسهم وقد شعَثها الغبار الذي سيغبّر ملابسهنّ. وكن يسرن. كن يهتفن. كان سيرهن يعبر عن إرادة وعزيمة. كأن هتافهن سيثقب آذان الجنود الذين ما زالوا

قابعين على قمتي جرزيم وعيبال، الجنود الذين يقولون دائماً: لا تظنوا أن مدينتكم محررة، إنها ما زالت محتلة وها نحن هنا. ها نحن مسمار جُحا.

وكنت أقف على الرصيف، رصيف الدوار الذي لم يعد دواراً ولم يعد رصيفُه رصيفاً. كنت أقف أراقب المسيرة وأراقبهن. هنّ هنّ. وكنت أعرف أكثرهن. منذ خمس وعشرين سنة وأنا أعرف أكثرهن. يأتين حين تكون هناك جلسة، يوم الخميس، لمناقشة كتاب ما، في مقر وكالة الغوث، حيث نكون خمسة ذكور وثلاثين امرأة. يأتين حين تلقي فدوى طوقان قصائدها. نكون عشرة رجال ومائة امرأة. يدعون الله أن يمد في عمر الشاعرة التي يشنّف صوتها آذان الذكور وآذانهن. يأتين حين تكون هناك ندوة عن العولمة. حين يأتي شاعر عاد لتوه من المنفى، حين يتحدث روائي عائد عن تجربته الروائية. يأتين حين تُناقش كاتبة في مجموعة قصصية أصدرتها حديثاً، كاتبة هي واحدة منهنّ. يأتين حين ألقي محاضرة عن الأنا والآخر في الأدبين العربي والعبري. يأتين هُنّ هُنّ. منذ خمسة وعشرين عاماً هُنّ هُنّ.

وهُنّ، هُنّ نسوة برجوازيات أو نسوة متعلمات مثقفات يشاركنَ في النوادي الاجتماعية أو في مراكز نسوية. هنّ نساء هتفن لجمال عبد الناصر وأحببن شاعراً وطنياً حتى أن إحداهن، كما حدثتني غامرت وسافرت إلى مصر يوم هاجر الشاعر من حيفا إلى مصر. كانت أحبته من بعيد، وحين عاد أهدته باقة ورد تعبيراً عن حب خفي لم تفصح عنه. هكذا باحت لي ذات محاضرة لتعلن عن جنونها زمن الجنون الذي ولّى.

وهُنّ غَيْرُ هُنّ. وَهُنَّ الأخريات كنَّ يملأن بيوت المدينة. يتزوجن وينجبن ويغدون جدات. ينظفن البيوت ويجدن طبخ العكوب وصنع الكنافة، وهؤلاء اللاتي يخرجن من بيوتهن، كنّ أيضاً يسرن في شوارع المدينة. كنَّ يسألن عن أسعار البطاطا والبندورة وأسعار الذهب، وكنَّ يسألن أيضاً عن أدوات زينتهن، ولم يكن يسألن عن المسيرة، فالمسيرة لا تشغل بالهن وتفكيرهن. وحين مرت بي إحداهن سألتني لماذا لم أذهب لزيارة قريبها حتى أهنئه بالسلامة. ولم تسألني لماذا لم أشارك في المسيرة، لماذا أنظر إليها عن قرب.

من على الرصيف الذي ما عاد رصيفاً، الرصيف الذي أفسدته الدبابات، كنت أراقب المسيرة. وكانت النسوة يهتفن. وكانت المدينة تلملم جراحها. كان التجار ، يحصون خسائرهم، وكان المصورون يصورون ما خلفه الغزو من دمار. وكن يبتعدن، وكانت أصواتهن تعلن: وحدة وحدة وطنية. وكنت أسأل نفسي: من سيشارك، بعد عشر سنوات، في المسيرات الوطنية. وحين اختفين كانت المدينة تلملم جراحها. كان الباعة يبيعون، وبعض أصحاب المحلات ينظفون محلاتهم مما علق بها من غبار، ويصلحون الأبواب التي دمرت والزجاج الذي تكسر، وكنت أهمس: ما زلن هنّ هنّ!!!

٢٠٠٢/٤/٢٩

١٠. عزيزي خميس

عزيزي خميس: هل كان خبر استشهادك مفاجئاً؟

صباح الخميس كنت أغادر منزلي كالعادة. لم أكد أنزل الدرجات حتى أخبرني أخي، قبل أن ألقي عليه تحية الصباح، عن استشهادك. وربما لا تدري، على الرغم من أننا لم نلتق معاً مباشرة ووجهاً لوجه لنتحدث، ربما لا تدري أنك منذ بداية الانتفاضة، وأنت محور تفكيري. كنت، لما أسمعه عنك وأنا في الحافلة، أو وأنا أتحدث عن الانتفاضة مع بعض معارفك، كنت أفكر في كتابة قصة عنك. ولم أكن أعرف كيف أبدؤها. في الحافلة كان الناس، وأنت جالس مع بندقيتك على الرصيف، كانوا يتحدثون عنك. لم يكونوا يمدحونك دائماً. كانوا يذكرون أنك أب لخمسة أطفال، وأنك لا تعمل، فعملك هو الجلوس على الرصيف ومداعبة البندقية. وكانوا يلومونك لما أنت عليه، ولقد ذهب بعض معارفك إلى أنك مشروع شهيد. ولم أكن شخصياً لأعقب على كلامهم، ولم أكن لأبدي رأيي فيما أنت عليه، ولكنني كنت أتأمل حالتك ملياً. كنت أنظر إلى البندقية في يدك، وأتساءل عن السبب الذي يجعلك تنفق الوقت كله في الاتكاء عليها. ولم أكن أنظر إلى المخيم الذي تقيم فيه، منذ رأيتك تحمل البندقية. كانت حالتك لافتة أكثر من كل شيء. كان هناك العشرات ممن يقفون في الشارع، أو يجلسون على الكراسي أمام المحلات، ولكن واحداً من هؤلاء لم يكن ليخطف الأنظار. كنت أنت فقط من تتجه إليه الأنظار، وكنت أنت فقط موضع حديث الناس في الحافلة التي استقلها يومياً من شرق المدينة إلى غربها. وعندما كنت أراك كنت أتذكر قصة غسان كنفاني العروس. ولم أقرأها، من جديد، إلا صباح الجمعة، بعد ثلاثين ساعة من استشهادك. لقد قرأتها، مرتين، على الرغم من أنني تذكرتها مراراً، خلال العام المنصرم. ولم أكن أتوقع، وأنا أراك، أنك ستكون شهيداً.

كنت أقول: لو أراد أن يقاتل حقاً لأخفى البندقية عن الأعين وتظاهر بأنه إنسان عادي.

وحين فكرت، لحظة سماعي خبر استشهادك، حين فكرت في كتابة قصة تكون بطلها، أخفقت مراراً في اقتناص لحظة البداية، وبدلاً من أن أجلس لأكتب، وجدتني أتناول الأعمال القصصية الكاملة لغسان كنفاني وأبحث فيها عن قصة " العروس "، وربما، لهذا اخترت لقصتي هذه شكل الرسالة، فتلك القصة اتخذت شكل الرسالة.

وأقول لك الحقيقة: وأنا أقرأ الأوصاف التي أسبغها كنفاني على بطله، قلت: إنها أوصاف يسبغها الكتاب على الفدائي، ولا أظن أنني كنت أراك كما رأى كنفاني بطله. لتقرأ ما كتبه كنفاني:

" ابحث معي حيث أنت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، أعرف اسمه، ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة، ويلوح لأول وهلة كأنه مجنون ".

" ماذا يمكن أن تفهم من هذا كله؟ لا شيء طبعاً، فالمرء يصادف في اليوم الواحد، إذا ما سار في الطريق، مائة رجل يحملون هذه الصفات، فأي واحد منهم تراني أقصد؟

إنني على يقين أنك ستكتشفه بنفسك، فهو شيء آخر، متميز ... كيف؟ لا أستطيع أن أقول لك فأنا نفسي لا أعرف ولكن يخيّل إلي الآن أنني حين شهدته لأول مرة كان محاطاً بما يشبه الضوء، نعم، كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء، وأعترف لك أنني لم أتأكد من ذلك تماماً حين استوقفني لحظة واحدة في الطريق، إلا أنني أكاد أكون متيقظاً الآن، أن ذلك الرذاذ المضيء الذي كان يحوط جسده الضخم هو الذي رسخ صورته في ذهني، وإلا كيف تفسر أنني ما زلت أذكره، وما زال يلح علي، من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الإنسان في الطريق كل يوم ثم يذوبون من رأسه وينعدمون؟ ".

ولا أدري لماذا لم أكن أتصورك، كما تصور كنفاني بطله؟ ألأنني أعرفك في طفولتك؟ الأنني أعرف أفراد أسرتك فرداً فرداً؟

الأنني لم أرك، فجأة، كما رأى كنفاني بطله فجأة؟ ومع ذلك كنت أبصرك هادئاً وديعاً لا تتكلم كثيراً. ولم أكن أفكر، صباح ذلك اليوم، في أنك ستكون، في اليوم التالي، موضوع الكتابة. كنت أود أن أكتب عن عذاب اللاجئين في المخيمات، وأنت واحد منهم. كنت أود أن أسخر من السيد نقولا فتوش وزير السياحة اللبناني وأنا أقرأ ما قاله عن اللاجئين في لبنان: إنهم نفايات بشرية لا يمكن للبنان أن يقبل بهم على أراضيه.

عزيزي خميس: هل كان خبر استشهادك مفاجئاً؟

مساء الخميس، وأنا، في المخيم، أعزّي أهلك في استشهادك، كنت أنظر إلى الكتل الإسمنتية العجيبة. وربما جعلتني أدرك السبب الحقيقي الذي كاد يدفعك إلى حمل البندقية. وحين عدت مساءً إلى المنزل، أخذت أتصفح أيضاً رواية كنفاني " أم سعد "، كانت أم سعد تعاني البؤس والشقاء. لقد شعرت بالذل في هذه المخيمات، وذات مرة خاطبت راوي الرواية قائلة:

" أنا متعبة يا ابن عمي. اهترأ عمري في ذلك المخيم. كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب!.. وها قد مرّت عشرون سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟ "

ولا أدري يا عزيزي خميس إنْ كانت روح سعد حلت في روحك، ولا أدري إن كانت آلام أم سعد آلامك، وإن كنت أظن أن آلام اللاجئين أكبر بكثير.

عزيزي خميس: مساء الجمعة نعتنا السيد وزير الدفاع الإسرائيلي فؤاد (بنيامين بن اليعزر) نعتنا بأننا حيوانات، ولم يكن ليختلف عن نقولا فتوش. ولم يسأل الوزيران نفسيهما: لماذا نحن حيوانات ونفايات؟ لا أدري لماذا لم يتذكر فؤاد الشاعرَ اليهوديَ (أريك فريش) الذي قال: دائماً فتش عن الأسباب.

عزيزي خميس: هل كان حقاً خبر استشهادك مفاجئاً؟!

١١. استرجع صورة منزلها

أنظر إليها وهي ترفع يديها إلى السماء. أنظر إليها تصرخ. أنظر إليها تدعو الله أن يزلزل أركان الدولة التي زلزلت أركان بيتها.

أنظر إليها تنظر إلى أثاث منزلها وقد عاث به الجنود. تنظر إلى بعض الجدران وقد تهدمت. تنظر إلى الأواني التي كسرت. أنظر إليها وأتذكر صورتها. منذ أسبوعين ثلاثة تلح صورتها علي. أحياناً كثيرة أرى المرأة في صورة غيرها من النسوة اللاتي دمرت منازلهن.

أسترجع صورة منزلها. أعود خمسين عاماً إلى الوراء. أقص بعض ما سمعت. أقص ما رأيت. أدرك لماذا طلبت من الله أن يزلزل أركان دولة الظلم. أسترجع بعض أسطر شعرية للشاعر خليل حاوي، أسطر كتبها في دولة الظلم:

جولي سبابا الأرض / في أرضي / وصولي واطحني شعبي/
جولي وصولي / واطحني قلبي / لن يكتوي قلبي / لن يكتوي
قلبي ولن يدمـــى / تنحـــل حمـــى العـــار / في غيبوبة الحمى /
لن يكتوي قلبي ولن يدمى / قلبي الأصم الأبكم الأعمى.

أسترجع مشهدها إثر اللجوء. (ربما كانت تقيم قبل عام ١٩٤٨ في مدينة ما، في قرية ما). تقيم مع أهلها في خيمة. تشهد سنوات العذاب الأولى. تقبع سنوات عديدة في انتظار العودة التي طالت. تذهب، نهاية كل شهر، إلى مركز توزيع المؤن. تأخذ حصة أهلها. تحصل على غرفة أنشأتها وكالة غوث اللاجئين. لا تزيد مساحة الغرفة عن ثلاثة أمتار مربعة، ارتفاعها متران ليس أكثر. غرفة لها شباك وباب، شباك مكون من ألواح خشبية لا تزيد عن أربعة يربط بينها لوح خشبي حتى تثبت معاً، والباب مثل الشباك لا يختلف. تكون الغرفة حالة متقدمة للخيمة. غير أن المرأة ما زالت تعاني. ينام أبوها وأمها، تنام هي أيضاً وإخوتها مع أبويها. لا بد من غرفة أخرى، لكن العين بصيرة واليد قصيرة. تضطر ليلاً ونهاراً إلى أن تذهب إلى الحمامات العامة، مثلها مثل أهل المخيم كلهم. ثمة حمامات عامة للرجال. ثمة حمامات عامة للنساء. تضطر إلى أن تذهب إلى الحمامات. تخاف ليلاً. تخاف من رجال سيئين. تخاف من القال والقيل.

يستدين والدها مبلغاً من المال. يبني مرحاضاً خاصاً حتى لا تخاف ابنته من الذهاب ليلاً إلى المراحيض العامة. يبني مرحاضاً في ساحة الدار التي لا تزيد عن مائة متر مربع. يسيج مساحة الأرض بألواح من الصفيح. يزرع شجرة تين هنا، شجرة زيتون هناك، نباتات متسلقة هنا وهناك، نباتات كانت شائعة في بيوت المخيمات وما عادت ترى منذ ثلاثين عاماً،

نبتة الليف، نبتة المديدة والساعة. تزرع دالية هنا ودالية هناك. تزرع شجرة ليمون. تبدو الدار أخاذة.

تكبر العائلة. يكثر الأولاد. تحتاج إلى غرفة للأولاد وغرفة للبنات. لقد كبر هؤلاء. تقطع شجرة التوت. تقيم مكانها غرفة ما. تتسع مساحة الحجر وتقل مساحة الخضار.لا بأس فثمة خضار آخر. تطبخ في غرفة النوم، تحمم الأبناء في غرفة النوم. تستنشق هواء ملوثاً، تستنشق رائحة الطعام والكاز معاً. تجلس في الصيف أمام منزلها، تلك عادة النسوة في المخيمات. تفتح الشباك. تفتح الباب حتى يتبدل الهواء. لا بد من مطبخ حتى تظل غرف النوم غرف نوم، حتى تتخلص من وظيفة ليست لها. يعمل الرجل. يكد أولاده أيضاً. بذهبون إثر حرب ١٩٦٧ إلى مصانع الإسرائيليين. يعملون هناك في بناء المدن. يربحون مالاً وفيراً. يبني الرجل مطبخاً. يغدو البيت أوسع لكنه يفتقد إلى الخضرة. تقطع شجرة أخرى. لا يبقى متسع لشجرة ما. لا يشاهد المرء أيضاً النبات الذي كان يغطي مساحة الدار. تتحول المائة متر إلى كتلة اسمنتية، لا يفصل بين منزلها ومنزل جيرانها فضاء. تلتصق الجدران ببعضها. تبدو البيوت كأنها بيت واحد مترابط. يعرف الجيران أسرار بعضهم، وحين يقتتلون يفضحون الأسرار التي سمعوها.

يكبر الأبناء. يريدون أن يتزوجوا، والأبناء كثر. والعين بصيرة واليد قصيرة، ومن استطاع أن يشتري أرضاً خارج حدود المخيم فعل هذا، ومن لم يستطع فما عليه إلا أن يظل في المخيم. ولا يرضخ أهالي المخيم لقرارات الوكالة. يبنون طابقاً أول وطابقاً ثانياً. يغدو الطابق الأرضي سرداباً. يغدو لا يليق بالبشر. يبدو نهاراً مظلماً، ويبدو صيفاً حاراً جداً، وشتاء شديد البرودة. من يقم في الطابق الأرضي يُصَبْ بالروماتيزم.

تنتقل المرأة إلى الطابق الأول. تهتم بأثاث المنزل. تهتم بالمطبخ. يغدو هذا مملكتها. يغدو مطبخاً جيداً. البلاط الصيني، والمجلى الرخام. تنفق المرأة ما لديها، فالمنزل عالمها. تشتري ثلاجة وتشتري بوتوغازاً. تضع على الجدران ورق زينة. ولا تنسى أن تشتري صحناً حتى تشاهد محطات بث عديدة. لم يعد ثمة متسع في المخيم. اختفت الساحات. اختفت عادة الجلوس أمام المنزل، تلك العادة التي كانت شائعة في نهاية الخمسينات وبداية الستينات أيضاً.

تجلس المرأة في منزلها. يغدو عالمها في هذا العالم. عالم ضيق ولكن لا بأس به. على الأقل ما عاد خيمة. ما عاد غرفة واحدة بلا حمام وبلا مرحاض وبلا مطبخ. غدا الحمام مستقلاً. غدا المطبخ منفصلاً عن غرفة النوم. غدا المرحاض داخل الشقة، وما عادت تذهب ليلاً إلى المراحيض العامة. عالم ضيق. بيوت متلاصقة. (غيتو) الفلسطيني. معسكر تعذيب الفلسطيني. ولكن لا بأس.

تجلس المرأة في منزلها. تتابع ما يجري. لم تكن بعد (أوسلو) تتوقع أن بيتها سيدمر. كانت تتوقع أن تعود إلى مكانها الأول. وحينئذ فليدمر المخيم كله. لن يدمر بيتها إلا أنْ عادت.

يحاصر المخيم، في انتفاضة الأقصى. ما زالت تقيم فيه. لم تعد بعد إلى بيتها الأول الذي دمر، كما سمعت، تماماً. ها هم الجنود يحاصرون المخيم. ها هم يطلبون من أهله أن يغادروه حتى لا يتعرضوا لأذى، لأن جنود الاحتلال لا يلحقون أذى بالمدنيين. تبقى المرأة في منزلها. لا تغادر كما فعلت بعض النسوة هؤلاء اللاتي كسرت أبواب منازلهن وعيث بأثاثها. يقتحم جنود الاحتلال منزلها يعيثون بالأثاث. لا يبقون شيئاً على حاله. يهدمون حائطاً ما. يكسرون الأبواب. يقلبون (البوفية) وما فيه. يكسرون المقاعد.

أنظر إلى منزلها. أنظر إلى ما ألم به. ثلاثون عاماً. أربعون عاماً وهي تهتم به. عاماً فعاماً. تبيع ذهبها لتشتري قطعة أثاث. تجوع عاماً وتعرى عاماً حتى تستر حالها، آخذة بالمثل الشعبي: جع عاماً وتعرَّ عاماً تَبْنِ داراً.

أنظر إليها وهي ترفع يديها إلى السماء. أنظر إليها تصرخ. تدعو الله أن يزلزل أركان الدولة. دولة الباطل. وأراها، منذ أشهر، أراها يومياً، ذلك أنها ما عادت حالة واحدة. أراها في مئات النساء اللاتي يعانين ما تعاني.

الجمعة ٢٠٠٢/٣/١٥

١٢. تبادل أدوار

أتابع مساءً نشرات الأخبار. أصغي إلى أصوات مذيعين أفهم لغتهم ومذيعين لا أفهم من لغتهم إلا أقلها. أتابع محطة بث ومحطة بث ثانية. أهرب من محطة بحثاً عن أخرى. أغدو أسير تلفاز العدو. يدخل مذيعوه إلى منزلي. أعرف أسماء كثيرين منهم. آلف وجوه بعضهم. لا أشعر أنهم بشعون أو كريهون. أراهم وسيمين، ولا أراهم قاتلين إلا حين أرى جنودهم يحملون السلاح ويقتلون. أتأمل ملابسهم. أشكالهم. ملامح وجوههم. أراهم حضاريين تارة، وحين أرى جنودهم يقتلون ويقتحمون المخيم أو القرية أو المدينة، كما يقتحم المذيع منزلي، أراهم جميعاً يقتحمون منزلي ووطني معاً.

أتابع نشرات الأخبار. أشاهد الجنود يقتحمون مخيم بلاطة ومخيم جنين ومخيم العروب ومخيم نور شمس ومخيم طولكرم. أتابعهم يقتحمون قلقيلية ورام الله. أمعن النظر في وجه الجنود. أصغي إلى كلامهم يخاطبون هذا الشاب أو ذاك بعبارات قصيرة. ألاحظ أيدي الجنود تعصب هذا الرأس أو ذاك، رؤوس المواطنين واحداً واحداً. أرى أبناء المخيمات يقفون واحداً واحداً. أراهم يرفعون الأيدي، يضعونها خلف الرأس. أراهم يجلسون على الرصيف. أراهم يقفون على الجدار. أرى الجندي يصوب نحوهم بندقية. أراه يدخل إلى المنازل منزلاً منزلاً. أراه يعبث بالأثاث. أراه لا يبتسم لطفل صغير. أراه ينظر إلى المرأة نظرة حاقد، غير مكترث لها وهي ترفع يديها إلى السماء، تطلب من الله أن ينتقم لها من القتلة.

أتابع مساءً نشرة الأخبار. أقرأ بعض مفردات بالعبرية. أجلس أمام التلفاز ساعة ساعتين، أتابع صور الانفجار في ناتانيا وفي مقهى(مومنت) في القدس. أقرأ عدد الموتى وعدد الجرحى. أتابع شكل المذيع يتكلم. أراه يخاطب هذا المراسل أو ذاك. أراه يخاطب هذه المراسلة أو تلك. ألاحظه يتوقف للحظة ليعلن عن خبر عاجل أتاه. ثمة انفجار ثان تلا حادث (نتانيا). ثمة قتلى جدد. يتكئ على ساعده. يخفض صوته يتوقف للحظات عن الكلام، كأنما يريد أن يبكي فثمة قتلى جدد. ثمة دمار جديد.

أمعن النظر، من جديد، في شباب المخيم. في بيوت المخيم. أصغي إلى النسوة يتكلمن. يرفعن الأيدي إلى السماء: أنقذنا يا رب من هؤلاء الوحوش. أنقذنا من ثور هائج. ثور مندفع لا يوقفه أحد. أصغي إلى عجوز توجه خطابها إلى الدول العربية والأوروبية علها توقف هذا البلدوزر. هذا الثور الهائج.

أعود إلى محطة البث الإسرائيلية. أتابع نشرة الأخبار. أقرأ المفردات العبرية التي تعلن عن عدد القتلى وعدد الجرحى. أتابع الأرقام ترتفع بورصة الدم. بورصة الدم. أغير محطة البث. أتابع محطة أخرى. أشاهد، فيما بعد، طابوراً من أبناء المخيم من سن الثالثة

عشرة حتى سن الأربعين. خمسمائة معتقل. ألف معتقل. أراهم يصطفون وراء بعضهم. أرى أكياساً فيها ملابسهم بعد أن جردوا من بعض ملابسهم حتى يتأكد الجنود من أنهم – أي أبناء المخيم – لا يضعون أحزمة ناسفة على صدورهم.

أتذكر (داخاو)

ذات ســبت. ذات سبت من عام ١٩٩٠. ذات ســـبت من شهر (أكتوبر) أسافر إلى (ميونخ) لأنفق فيها يوماً كاملاً. أجلس في الحافلة إلى جانب مسن ألماني لطيف. نصبح أصدقاء، لساعات. نتحدث معاً. نتحدث عن الحرب العالمية الثانية. عن معسكرات الإبادة واليهود. يخبرني أن الإنجليز هم أول من أقاموا معسكرات إبادة في التاريخ. يقول لي: ولكننا هزمنا، وحين يهزم شعب يتحمل أوزار غيره. يقول لي: لو انتصرنا لكانت رواية التاريخ مغايرة.

ذات سبت، ذات سبت من (أكتوبر) ١٩٩٠ لا أتأثر كثيراً. بما سمعت. قلت: ربما صدق الألماني. ربما. ربما أراد أن يدافع عن بلاده. أصل إلى (ميونخ) أتجول في شوارعها. في ساحتها أجمل الساحات التي رأيت في المدن التي زرتها، وأجد قدمي تقودني إلى محطة القطار. أسأل عن قطار (داخاو). أصل (داخاو). أنظر إلى السماء. بدت كئيبة. كأن آلاف القتلى تصرخ. كأن آلاف الأيدي تخاطب السماء: ارحمنا يا أيها الإله الذي في الأعالي. (تذكرت الجو يوم حوصر مخيم بلاطة. كانت السماء كئيبة).

ذات سبت من عام ١٩٩٠ أتجول في (داخاو). أشاهد الأسرة التي نام عليها اليهود. أراها متجاورة. أعدها: ستة عشر سريراً فوقها ستة عشر سريراً. هنا نام اليهود. هنا كانت حركتهم معدومة. هنا كانوا يضرطون ويشمون ريحهم. هنا كان القمل يملأ رؤوسهم.

هنا كان اليهود يهودياً واحداً. هنا انعدمت ملامحهم. أترك المكان. أذهب إلى صالة واسعة. أصغي إلى محاضر يتكلم عما فعله (هتلر) بهم. أغادر الصالة فلقد استمعت إلى الخطاب نفسه في (برلين).

ذات سبت من (أكتوبر) ١٩٩٠ أزور (ميونخ) لأستمتع باحتفالات (أكتوبر) ولأشرب النبيذ فتقودني قدماي إلى (داخاو). أتجول في المعسكر. أشاهد غرف الغاز. أدخل إلى غرفة الغاز. أتذكر كلام الناس في بلدي. لقد صنع (هتلر) من لحمهم وعظامهم صابوناً. أغادر غرفة الغاز. أتجول في ساحة معسكر (داخاو) الواسعة كأنها ملعب كرة قدم. أرى السماء كئيبة حزينة. أقول: لعلها ما زالت حزينة على عشرات القتلى. أعود إلى بقايا غرف المعسكر. أشاهد البطاقات التذكارية. أرغب في شراء بطاقة حتى أوثق زيارتي للمعسكر. أسأل الفتاة عن ريع البطاقات. تخبرني أنها تذهب إلى جمعيات يهودية. أسالها: والغجر، هل

يستفيدون من ريعها؟ تجيبني لا. أتذكر ما يجري في الضفة. كانت الانتفاضة ما زالت مشتعلة. لا اشتري البطاقة. أقول: لا ضرورة لأن أوثق زيارتي هذه من خلال البطاقة. لا ضرورة لصورة معسكر (داخاو)، إن كان ثمن البطاقة سيتحول إلى ثمن رصاصة.

أغادر (داخاو). أعود إلى (ميونخ). أعود إلى ساحتها الرئيسية. أتجول فيها. أذهب مساءً إلى صالة كبيرة جداً. أشرب البيرة. أشاهد آلاف الشباب يرددون ما يردده المغني. يقبلون على الحياة، يحبون الحياة، ومثلهم أحب الحياة.

الآن. الآن أنظر إلى صورة شباب المخيمات وهم يرفعون الأيدي والعصّابات على عيونهم. الآن أتذكر (داخاو) والأسرة التي نام عليها اليهود. الآن أقول: ثمة تبادل أدوار، وأكرر مع محمود درويش: ضحية قتلت ضحيتها وصارت لي هويتها !!

٢٠٠٢/٣/١١

١٣. زبيبة الفلسطينية

تبحث عن زبيبة الفلسطينية. تبحث عنها فتجدها أختاً حزينة من بين أخوات خمس حزينات يجلسن على رصيف شارع من شوارع يافا، بحر يافا. يجلسن تقص كل واحدة منهن قصتها، تقص مأساتها. ينظرن إلى البحر، بحر يافا. يبصرن الشمس تسقط في البحر، يبصرن الشمس تغرب غروب العرب في الأندلس. تتذكر أنت أبا عبد الله الصغير يسلم مفاتيح المدينة ويبكي، يبكي ملكاً، فتقول له أمه: أبك، مثل النساء، ملكاً لم تَصُنْهُ كالرجال.

تبحث عن زبيبة الفلسطينية، فتجدها في شخصية سعاد. تجدها في قصة سميرة عزام " خبز الفداء ". تجد زبيبة نفسها لا حول لها ولا قوة، فتحاول أن تكون ذات حول وذات قوة. تخرج من المنزل. تغزل الصوف للمقاتلين. تغدو ممرضة تداوي الجرحى، تقدم الشاي للساهرين على أسوار المدينة خوفاً من اقتحام المدينة. وحين يهرب أخوها، حين يهرب طلباً للنجاة تتمرد على أوامره وتصر على البقاء في فلسطين. ويسألها المقاتل: ألأجلي بقيت، فتجيب: لا. لست كل شيء. هناك أشياء أخرى أيضاً. وتذهب زبيبة/سعاد لتحضر للمقاتلين، حين تشتد حالة الحصار، الخبز، وحين تعود، حين تعود يصطادها القناص، فيختلط الدم بالخبز، ويغدو الخبز، يغدو خبز الفداء، ويضطر المقاتلون أن يأكلوه، فسعاد لا ترضى لهم أن يموتوا جوعاً.

تبحث عن زبيبة فتجدها لاجئة في مخيم الوحدات، استشهد زوجها في معارك ١٩٤٨. تشتت أسرتها وظلت وحيدة. يقهرها الجوع. يقمعها المجتمع الذي يفضل الصغيرات ممن لم يخضن التجربة. تدفعها وحدتها وحاجتها وجوعها إلى اعتبار المثل: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، إلى اعتباره كلاماً، مجرد كلام. وحين يذهب فلسطيني إلى غرفتها ليستمتع ساعة أو بعض ساعة، يبصر صورة صديقه الشهيد، فيطأطيء الرأس خجلاً. ينسحب تاركاً النقود في يدها. لقد ضاع الشرف يوم ضاع الوطن. يوم ضاعت فلسطين. ولم يبق إلا البقايا. تتحول مريم إلى زبيبة. تتحول مريم، في رواية كنفاني " ما تبقى لكم " إلى زبيبة. مريم وردة المنشية، ابنة المدينة الفلسطينية، التي لو انتصرت لانتصرت فلسطين على الدولة الناشئة، كما يقول (ميرون بنفنستي) في كتابه " المشهد المقدس "، مريم تتحول إلى زبيبة، تغدو لاجئة، تعيش في مخيم ينتظر سكانه صدقات الأمم المتحدة، وتغدو عانساً توافق على الزواج من زكريا المتساقط الذي، حتى ينجو يجلده، يعترف على الفدائي سالم. وهكذا تزف ابنة الشهيد، وأخت الفدائي، إلى فلسطيني خائن تحمل منه جنيناً لا يرغب فيه، لأن لديه خمسة أفواه من زوجته الأولى، ولأنه لا يريد امرأة تجعل من جسدها زجاجة حليب. وتتحول زبيبة، تتحول

مريم إلى قاتلة، فقدت أباها وأمها وأخاها وجاء الخائن ليطلب منها أن تجهض ما في أحشائها، وهنا تطعن مريم/زبيبة زوجها بالسكين.

وتبحث عن زبيبة في قصة نجوى قعوار فرح " أمر الخيارين " فتجدها أماً غير قادرة على استبدال حب بحب. إنها تحب أبناءها أكثر مما تحب أرضها. تشرد حرب ١٩٤٨ العائلة. يعيش الأبناء في المنفى، ويبقى الأب حارساً حقل الزيتون. إن ابتعد عن حقل الزيتون تغادره روحه. وتخضع زبيبة لعاطفتها. تغري زوجها الذي يتردد ويتردد ويتردد، ولكنه، في النهاية، يوافق، ويغادران معاً إلى المنافي، ليعيشا مع أبنائهما. وما أن يمر يوم، يومان، ثلاثة، حتى يموت الرجل. لقد فارق حقله، ففارقته روحه. وزبيبة هي التي أصرت. وزبيبة هي التي قتلت زوجها لأنها تحب أبناءها. هل كانت زبيبة قرأت مسرحية شكسبير؟ سؤال غلط.

وتبحث عن زبيبة فتجدها امرأة تخدم في البيوت. تغدو زبيبة أما لسعد ولسعيد. يغدو اسمها " أم سعد ". تدخل إلى بيوت الأغنياء هناك. تنظف البلاط وتغسل الصحون حتى تحصل على بضع ليرات من أجل أن تعلم ابنيها وتطعم زوجها الكسول الذي غدا مدمن خمر منذ ضاعت فلسطين. وتجد زبيبة/أم سعد تجد نفسها تنفق عمرها ما بين وحل المخيم ووسخ مطابخ الأغنياء. تتحسر على عمرها بعيداً عن الغابسية، ولا يرد إليها الروح إلا سعد وسعيد حين يبعثان الأمل في نفسها، حين يحملان السلاح وتغدو فلسطين قريبة. ولا تقترب.

تبحث عن زبيبة، فتجدها زوجة استشهد زوجها في غارات الطائرات الفلسطينية على الدامور. تجدها وقد أصبح اسمها يسرى. هذه اللاجئة التي أحبت أحمد ابن قرية جماعين قرب نابلس، أحمد الذي ترك دراسته والتحق بحركة المقاومة، وظنه رفاقه هندياً لأنه يشبه الهنود. هكذا تكتب ليانة بدر في قصتها " أرض من حجر وزعتر ". وستعيش زبيبة/يسري على ذكرى أحمد. ستمني نفسها بأيام قادمة جميلة. تقول: " إن تكن هناك أوقات مرة، فسوف تكون هناك أوقات جميلة، حنونة ومضيئة ... ولسوف تكون ". تتذكر زوجها الشهيد تتذكر ابتسامته.

وزبيبة الفلسطينية هي زبيبة الفلسطينية.

سوف تبحث عنها فتجدها في هؤلاء كلهن. سوف تجدها زوجة لأستاذ جامعي سجن ابنه واستشهدت زوجته. وسوف تحدها امرأة تعيش، بعد عام ١٩٨٢، في مناف جديدة. وسوف تجدها في الانتفاضة الأولى أماً لشهيد، أو زوجة لسجين، أو أختاً لمعاق. وسوف تجدها حين تبحث عنها، في سجون الاحتلال.

وتظن زبيبة الفلســـــطينية، تظن أنها تخلصت من المعاناة. تظن هذا مع (مدريد) و (أوسلو). ولكن فرحتها لا تكتمل. إنها الحزينة التي جاءت تفرح فما وجدت أي مطرح.

تكتب عن زبيبة الفلسطينية وأنت تقرأ قصة ميسون الحايك التي استشهد زوجها وهو يقلها، ذات يوم من أيام شباط ٢٠٠٢، إلى المشفى لكي تضع مولوها الأول. تكتب عن زبيبة

الفلسطينية وأنت تتابع، نهاية شهر شباط، أخبار حصار مخيمي بلاطة وجنين، وأنت تحصي عدد القتلى / الشهداء والجرحى الذين زاد عددهم، في شباط الشهر القزم على رأي الشاعر أحمد دحبور، الشهر الخنثي على رأي أحد أبطال روايات عبد الرحمن منيف، وأنت تحصي عدد هؤلاء لتعرف كم زبيبة جديدة ستنضم إلى الزبيبات السابقات، وتكرر المثل الشعبي:

" طول عمرك يا زبيبة في قفاك هالعودة ".

***

ملاحظة: أنا مديـــن بكتابة هذه الحالة للقصص الوارد ذكرها ولقصص أخرى أيضـــاً أبرزها " فتاة من فلسطين " و " والأخوات الحزينات ".

٢٠٠٢/٣/١

١٤. ما يقوله شايلوك!!

تمعن النظر في وجهه كلما ظهرت صورته. تتأمل ملامح وجهه، تتأمل ابتسامته. " هل أبصر الملامح جيداً ". تسأل نفسك. هل ثمة حول في إحدى عينيه؟ وابتسامته هل تصدر عن رجل متوازن؟ كيف يرى هذا الدمار، كيف يبصر القتلى ويمعن في الحديث: " لا بد من مواصلة الحرب. لا بد من تكبيد الفلسطينيين خسائر أكثر حتى نثبت لهم أن هناك الكثير مما يخسرونه أيضاً ". لا يكفيه عدد القتلى. ألف ومائتا فلسطيني فقط. هذا لا يكفي. لا يكفيه عدد الجرحى. أربعون ألفاً. هذا لا يكفي. دمار مبان. جرف شوارع. هذا لا يكفي/ لا بد من دمار مدن بأكملها. لا بد من هدم مخيمات كاملة. لماذا لم أفعل هذا من قبل؟ لماذا لم أقتل أكثر في لبنان عام ١٩٨٢؟

تنظر إلى جثته الضخمة. تنظر إلى رأســـه الكبير وتقول: لماذا يفتقد العقل الرزين. لا يزين هذا الجســـد الحســـن الطويل، لا يزينه عقل. ولا تردد: لو عقلت ما سمنت، فثمة سمينون كثر لا ينقصهم العقل. ولا تقول: إنهم جميعهم هكذا. لا تعمم. وتجد يدك تمتد إلى مسرحية (شكسبير) " تاجر البندقية، تجد نفسك تقرأ عبارات (غراشيانو):

" إنك أيها اليهودي القاسي، لا تشحذ سكينك على نعلك، بل على جوانب قلبك. إلا أنه لا يوجد أي شيء، وحتى لو كان سيف الجلاد أحدّ من حقد قلبك اللعين. ألا يوجد طريق توصل الرحمة إلى قلبك؟ ".

لا تكتفي بأقوال (غراشـــيانو). تبحث عن أقوال (شـــايلوك). تبحـــث عن أقوال (شـــايلوك) وأنت تصغى إلى أقوال (شـــايلوك) الجديد، فثمة (غراشـــــيانو) جديد أيضاً. يريد (شـــايلوك) أن ينفذ ما ورد في الوثيقة التي وافق عليها (أنطونيو)، ويريد (شايلوك) الجديد أن ينفذ ما ورد في الوثائق القديمة التي لم يوقع عليها (أنطونيو) الجديد. تخاطب (شايلوك) الجديد: ألا يكفي ما أخذت؟ تتذكر كلام أنطونيو: " أرجو أن تتذكر بأنك تجادل ... . إنك تقدر أن تذهب إلى الشاطئ وتسأل المحيط أن يخفف من ارتفاع موجه، وأن تسأل الذئب: لماذا لم يبك على النعجة التي افترس لها حملها. بل تستطيع أن تطلب من أشجار صنوبر الجبل ألا تحرك أجفانها وتحدث أية جلبة إذا ما هبت الرياح السماوية عليها. إذا كنت تستطيع أن تفعل كل هذا عندها يكون في مقدورك أن تجعل قلب هذا اليهودي يلين ".

تمعن النظر، كلما أبصرت صورته، من على شاشة التلفاز، تمعن النظر في صورته. تحاول أن تجد له عذراً. تحاول أن تجد عذراً لـــ (شايلوك) الجديد. تحاول ذلك اعتماداً على رأي جديد قرأته. رأي يرى صاحبه أن (شايلوك) كان ضحية عدم وعيه. رأي كتبه ناقد جديد لا تدري إن كان أراد أن يبري. (شكسبير) والإنجليز من تهمه اللاسامية في زمن

شيوع هذه. تكرر مقولات نقدية توظفها في كتاباتك: لا بد، في أثناء قراءة النص والنصوص المحيطة به، لا بد من مراعاة أزمنة ثلاثة: زمن الحدث، وزمن القراءة وزمن الكتابة، وقد تضيف إليها زمناً رابعاً: زمن القارئ.

تبحث في أقوال (شايلوك) عن سبب حقده، وتقرأ:

" لقد اعتاد على إهانتي، وحال دوني لاكتساب نصف مليون دوقية، وفرح لخسارتي وسخر من أرباحي، وأهان أمتي. وكان يفسد أعمالي، ويفرق بيني وبين أصدقائي، ويدفع أعدائي لكرهي أكثر، وكل ذلك لسبب واحد، لأنني يهودي. أليس لليهودي عينان ويدان ومشاعر وعطف وحب؟ أفلا يأكل نفس الطعام، ويقتل بنفس السلاح، ويخضع لنفس الأمراض؟ ألا يشفى بنفس الوسائل؟ ويبرد ويتدفأ بنفس الصيف والشتاء؟ أوليس في عروقنا دماء. إن دغدغتمونا ألا نضحك؟ إذا سممتمونا ألا نموت؟ وإذا عمدتم إلى ظلمنا ألا ننتقم؟ إن كنا مثلكم في مثل هذه الأشياء، لماذا لا نكون مثلكم في الانتقام؟ وإذا عمد يهودي إلى ظلم مسيحي فهل يعفو المسيحي عنه؟ وإذا عمد أحد اليهود إلى ظلم أحد المسيحيين فما مقدار تحمله، إذن فعليه أن يتشبه بالمسيحيين. إنه الانتقام، النذالة التي علمتموها لي، وسأعاملكم ما تعلمته منكم؟ ".

وتخاطب (شايلوك) الذي تبصر صورته: لم نفعل بكم شيئاً مما فعلوه بكم هناك، في ذلك الزمان، لم نفعل لكم أي شيء من هذا. لقد جئتم إلى البلاد التي كنا نقيم فيها، واقتسمتم معنا ماءها وقمحها وبرتقالها حتى خرجتم بمشروع وطنكم الذي حولنا إلى أقلية، وهذا ما كان، فماذا تنتظرون من هؤلاء الذين دمرتم مشهدهم عام ١٩٤٨، ماذا تنتظرون منهم، وأنتم تدمرون مشهدهم الجديد المدمر.؟ لم يقبل بهم أحد. لا في الجنة ولا في النار متسع لهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ما الذي تبتغونه منهم؟

تمعن النظر فيه وفي الذين يدخلون إلى المخيمات جماعات جماعات. تمعن النظر في الدبابات التي تحرك مدافعها، وفي الجرافات التي تجرف الطرق. يدخلون ويدمرون ويقتلون. هاهم اليهود يقتلون غير اليهود. وتخاطب (مناحيم بيغن) الذي قال في مجازر صبرا وشـــاتيلا: غير اليهود يقتلون غير اليهود، فما شـــأن اليهود في ذلك، تتمنى لو طبع الفلســـطينيون مليون نسخة من كتاب (ميرون بنفنستي) " المشهد المقدس باللغة العبرية ووزعوا أكثرها مجاناً على الجنود الذين يحاصرون المخيمات الآن. تتمنى ذلك لعلهم يكررون: " أليس لليهودي (الجديد) عينان ويدان ومشاعر وعطف وحب؟ " أليس للفلسطيني عينان ويدان ومشاعر وعطف وحب؟ ".

يصر على أن ينفذ ما في الوثيقة. يصر (شـــايلوك) على ذلك. الرطل كاملاً. يصر (شايلوك) على أن ينفذ ما في الوثيقة التوراتية: " الأرض كاملة ". تحاول أن تقول له: اقبل ما حصلت عليه من قبل. لقد ضاعفنا لك المبلغ. لم نطالب بقرار التقسيم عام ١٩٤٧. إننا لا

نطالب بقرار التقسيم عام ١٩٤٧. إننا نطالب بحدود ١٩٦٧. فاقبل حتى لا تفقد مالك كله. إن أردت الرطل كاملاً فينبغي ألا تريق قطرة دم. إن أردت الأرض كاملة فلنا ولكم معاً. لنا حقوقنا أيضاً كاملة ولا نقصان عما كان.

تنظر إليه، وتنظر إلى المخيمات. تعود بك الذاكرة إلى ما كانت عليه. لقد سمنت بالشواقل الإسرائيلية. بنى أبناؤها المدن الإسرائيلية أولاً، ثم أخذوا يبنون المستوطنات. ربحوا الكثير حتى يعمروا غرفة جديدة لهم. تخاطب (شايلوك): ألهذا تريد أن تدمرها أيضاً؟ ألأنها بنيت بالشواقل الإسرائيلية. أتريد فوائد على أموالك؟ أتريد أموالك وإلا فرطل من اللحم؟ أندمت لأنك زوجت ابنتك من مسيحي جديد، من فلسطيني؟ أتكرر ما قلته سابقاً؟

" هكـــــذا دائماً الأزواج المســـيحيين. لـــي ابنة أتمنى لو أنها تزوجت من أحد سلالة (باراباس) على أن تتزوج ذلك المسيحي ".

ربما تستغرب، تقول له وأنت تنظر إليه، ربما تستغرب أن أبناء المخيمات التي تدمرها كرروا ما قاله (شايلوك) القديم، كأنهم يدافعون عنه. كان هؤلاء حين يلامون ويسخر منهم لأنهم يبنون المدن الإسرائيلية، كانوا يقولون: إن أصحاب العمل اليهودي يعطوننا حقوقنا كاملة، إنهم يدفعون لنا أضعاف ما يدفعه صاحب العمل العربي. وحين سخرت شاعرة كبيرة مما يقومون به أيام السبت، أيام عطلتهم الأسبوعية، كانوا يقولون:

" أليس لليهودي عينان ويدان ومشاعر وحب؟، ألا يحق للعامل أن يتسوق أيام السبت وينفق النقود على ما لذ له وما طاب؟ ويضيفون: " أجمل الفتيات في حرش يافا ينتظرن نهاية الأسبوع، ينتظرن عمالاً عرباً، فلماذا يسخر بعض أهلنا منا؟ ".

تنظـــــر إليـــه. تصغي إليه. يريد مزيداً من الدم. يطرب لمنظر البنايات تهتز. تسره (الأباتشي) وهي تطلق صواريخها. وعلى الرغم من كل العروض التي قدمت إليه، على الرغم من مضاعفة العروض يكرر:

" إن كل ما حاولتم أن تبدعوه لم يفتح الطريق إلى قلبي ".

على الرغم من كل العروض يكرر:

" فإن تسألني أن أختار، فإنني أفضل أن أقتطع رطلاً من لحم جسده على أن أقبض ثلاثة آلاف دوقية، وسأقول بأن هذا هو مزاجي الخاص؟ "؟

الأحد ٢٠٠٢/٣/١٠

١٥. بورتريه

مدخل نابلس

تعود بك الذاكرة إلى مدخل نابلس الشرقي. تعود بك إلى سنوات الطفولة، لكن متى أبصرته أول مرة. لا تدري بالضبط، أهو حين ذهبت إلى عمان في الحافلة التي كان يسوقها أبوك؟ أهو يوم ذهبت مع أمك وأقاربك إلى وادي الباذان لنزهة؟ أم يوم ذهبت مع عمك سائق القلاب إلى الكسارات؟ كان ذلك منذ زمن سحيق يخيل إليك أحياناً أنه زمن آدم وحواء.

على مدخل المدينة عشت في مخيم عسكر الذي كان، يومها، بعيداً عن المدينة، فقد كان بين المخيم والمدينة مساحة غير مكتظة بالمباني. كان ثمة أراض خلاء. أراض تزرع تشعر المرء أن المخيم عالم منفصل عن عالم المدينة انفصالاً جغرافياً، عدا الانفصال الثقافي. وكان الذهاب إلى المدينة أمنية الأطفال الذين لا يذهبون إليها إلا في الأعياد لدخول السينما أو للتمتع بالمراجيح أو لأكل الكنافة في محلات العكر. وكان المخيم صغيراً هادئاً ووديعاً مثل طفل. بيوت مسترخية غير عصبية المزاج، كما هي الآن. كان ثمة فسحة بين كل منزل ومنزل، وقلما كان بيتان متلاصقين، خلافاً لما هو عليه الوضع الآن حيث لا تجد بالكاد منزلين بينهما فسحة من فضاء.

ولم تكن هناك حاجة لأن تذهب، في الطفولة، إلى المدينة. ثمة مدرسة إعدادية تنفق فيها تسع سنوات، وفي ساعات ما بعد الظهر تسيح في شوارع المخيم الواسعة التي تتسع لملعب كرة طائرة أو للعبة الطابة والحجارة أو للعبة الغماية، وإذا ما أردت أن تدرس، فهناك مناطق كثيرة تحيط بالمخيم يمكن أن تذهب إليها، هرباً من ضيق المكان في البيت، البيت الذي هو مكان النساء، كما كنت تسمع حين تتشاجر مع أخ أو مع أخت. كان صوت الأم يرتفع: اخرجوا من البيت، البيت للبنات والنساء. وقد يفاجأ كثيرون أنك كنت تقوم بواجباتك المدرسية في الشوارع، وفيما بعد، في التوجيهي، كنت تنام ما بين المغرب والعشاء، لتصحو بعد أن ينام الجميع حتى تتمكن من الدراسة.

كان المخيم الذي يقع في شرق المدينة هو عالمك، وكان هو مدخل المدينة الشرقي. أوله مدرسة للبنات وآخره قرية امتازت بنبع الماء الذي كنت تحصل على الماء منه، مقابل القرية معسكر جيش أردني، خلفه مقبرة شهداء الجيش العراقي الذين حاربوا في معارك ١٩٤٨. ويظلل قبور هؤلاء أشجار السرو والخروب التي هي ملاذ كثير من الشباب في أيام الصيف.

كان مدخل المدينة، قبل ١٩٦٧، يحفل بمرور الحافلات الذاهبة إلى عمان والقادمة منها، الذاهبة إلى الأغوار والقادمة منها، وكانت القلابات تأتي وتذهب. كان هناك كسارة تزود مناطق شرق المدينة بمواد البناء، وحين جاء الاحتلال وانتهى عمل هذه، تحولت إلى أماكن نزهة لبعض السواقين ممن كانوا يصيدون امرأة ما ولا يجدون مكاناً ما لممارسة الحب معها،

وكم كان أبناء المخيم يعكرون مزاج السائق وصيده، وكم كرروا اسم هذا وتلك إذا كانا ممن هم معروفون.

قبل عام ١٩٦٧ كان مدخل المدينة الشرقي موطناً للبدو الرحل، يأتي هؤلاء صيفاً من أماكن شتى، يضربون خيامهم، ويرعون ماعزهم، ويصنعون خبز الصاج، وكنت واحداً ممن باعهم (الأسكيمو) مقابل البيض وخبز الصاج. وكان المكان نفسه أيضاً ملعب كرة قدم بسيط ينشئه أبناء المخيم ليتباروا فيه. وكان المكان أيضاً مكاناً لصيد العصافير لهواة صيدها. يذهب طلاب المدارس صيفاً إلى هناك وبحوزتهم فخاخ الصيد وبعض الأقفاص ليصطادوا ما استطاعوا من عصافير، وحين بدأت أجواء الحرب تخيم خيم الجنود الأردنيون وأقاموا معسكرهم لفترة، وحين انتهت الحرب، أخذ بعض أبناء المخيم يعبثون ببقايا المعسكر، وقد تولد عن ذلك مشوهو حرب مازال قسمٌ منهم على قيد الحياة.

وقبل عام ١٩٦٧ كان مدخل المدينة أرضاً خضراء، يزرع القمح ويحصد، وكم ذهب أبناء المخيم إلى القمح يبحثون بين عيدانه وسنابله عن (السيبعة)، كم أحرقوا النار ليضعوا فيها السنابل قبل أن تنضج. وما كان أسراً للطفولة في حينه، ما كان أسراً هو اللافتات المزروعة دعاية لهذه السلعة أو تلك، لساعات (الفلك)و (الجوفيال) وغيرها، لشركات الطيران الأردنية العربية. وأنت الآن تتخيل ذلك المكان عالماً بدائياً ساحراً، عالماً آخاذاً أصابه القحط إثر الحرب، ومنذ عشرين عاماً، منذ عشرين عاماً بدأ يتحول إلى حي سكني تبدو عماراته الآن أخاذة، على الرغم من أنه يسمى حي المساكن الشعبية، وما هي بمساكن شعبية. لقد باع أكثر أصحاب قطع الأراضي الذين حصلوا عليها من البلدية بأسعار زهيدة، لقد باعوا قطع أراضيهم لمن يملكون المال، وأنشأ هؤلاء عليها مباني أكثرها من حجر، وغدت البنايات أكثرها آسرة تقول إن أصحابها أثرياء.

في أوائل الثمانينات أحدث الإسرائيليون خللاً في المخطط شقوا شارعاً يستخدمه المستوطنون، واضطرت البلدية إلى تحويل مساحة من الأرض إلى حديقة زرعتها مؤخراً. بدا الشارع للوهلة الأولى جيداً يذكر من زار فلسطين بما هي عليه القرى العربية والمستوطنات والمدن الإسرائيلية. يستطيع المرء أن يميز بين الأولى والثانية من خلال الشارع. الشارع الخرب يقودك إلى قرية عربية. والشارع المسفلت والعريض والمنظم يقودك إلى مدينة أو مستوطنة يهودية. ولقد بدا شارع مدخل المدينة الشرقي جيداً لأنه شارع يستخدمه الإسرائيليون. لقد عبدوه وسفلتوه ووسعوه أيضاً، وغدا طريقاً يتنزه عليه، ساعات العصر والمساء، أهالي المخيم الذين ضاقت بهم بيوتهم.

وإثر (أوسلو) غدا أول الشارع، جهة المخيم، مكاناً تقيم فيه مجموعة من أفراد الشرطة الفلسطينية. زرعه الجنود واهتموا به اهتماماً لافتاً. وغدت النقطة حيث يقيمون،

خضراء. لقد جعلوا التراب يخضر، ولم يحولوا الخضار إلى صحراء كما تقول الرواية الصهيونية. وكم بدا المكان جميلاً. يجلس الجنود في الصيف، وينظفون الرصيف يرشونه بالماء ويشربون الشاي، ويبدو المكان فرجة للناظرين. لم يغدُ منظره كئيباً إلا بعد أن قصفته صواريخ المستوطنة ذات نهار.

لماذا هذا (البورتريه) لمدخل المدينة لماذا هذه العودة إلى سنوات خلت؟ ولماذا هذا الوصف الذي كان يمكن أن تحل محله صور أخذتها الكاميرا، لو كان لديك (كاميرا)؟

الآن، منذ انتفاضة الأقصى تنظر إلى مدخل المدينة: البنايات تزداد، ويبدو بعضها أخاذاً. وما زالت نقطة الشرطة مكانها، على الرغم من ترك الشرطة للمكان. والآن تنظر إلى الشارع فتجده خراباً. تسير الدبابات الإسرائيلية ليلاً وتترك وراءها الحفر، ويضع الشباب الحواجز: السوائر الترابية وحاويات القمامة والحجارة، وأحياناً يحرقون الإطارات.

وأنت، أنت تنظر إلى الشارع الخرب ولا ترتاح للمنظر الحالي، ولكنك تدرك أن أهل المكان، وأنت منهم، غير قادرين على أن يقدموا لجنود الاحتلال الورود، – كما فعل الكتاثبيون في عام ١٩٨٢–، لقد قدموا لهم أغصان الزيتون يوم ظنوا أن الجنود، إثر مدريد، سينسحبون، وأما ما دام هؤلاء محتلين، فليس هناك سوى حاويات القمامة. لا تسر إلى المنظر، ولكن دبابات الاحتلال أيضاً لا تسر.

ملحق:

ستقرأ، بعد عشرة أيام ما كتبت. ستخجل قليلاً. ستقدم اعتذاراً وأنت تبصر دبابات الاحتلال تدخل إلى مخيمي جنين وبلاطة. ستشعر بالحزن وأنت ترى التلفاز يبث مشاهد من مخيم بلاطة، مشاهد الدمار والخراب، مشاهد المرأة تصرخ وتبكي. ولسوف تصحو صباح يوم وتستمع إلى نشرات الأخبار لتعرف أن عدد الشهداء بلغ ثلاثة وعشرين، وأن عدد الجرحى زاد على المائتين جريحاً. ستعود بك الذاكرة إلى أيام العيد، يوم زرت مخيم بلاطة، ورأيت مبانيه المترامية وأبناءه الصغار الذين يملأون الشوارع، وستدرك أن الحل السلمي ما زال بعيداً، ولسوف تدرك هذا أكثر وأنت تصغي إلى شباب بلاطة يتوقعون هجوماً قريباً، وسوف تشاهد ما خلفه، وستقول: لم يبالغ هؤلاء وهم يتوقعون أياماً صعبة قاسية.

ولســـوف تكتب: لم يدمروا الشوارع حسب، لقد واصلوا تدمير حياة هؤلاء الذين دمرت حياتهم عام ١٩٤٨، وتواصل التدمير، ولسوف تسأل نفسك وأنت تقرأ كتاب (ميرون بنفستي) ومقالات المؤرخين الجدد: ما جدوى الكتابة؟ ما جدوى ما يقوله هؤلاء عن اللاجئين الذين ما زال مشهدهم يدمر، الذين خسروا الماضي وربما المستقبل إلى وقت غير محسوب.

ولسوف تنهي كتابتك مع ذلك، بهذه الفقرة التي وردت في كتاب (بنفنستي) " المشهد المقدس ":

" لم يكن هذا مشهدي الإنساني ولم يكن كذلك الفضاء الطبيعي الذي صنعه شعبي. لقد كانوا مدمرية ... ".

ولسوف تعتذر لشهداء الانتفاضة. لسوف تعتذر لأنك لا تفعل شيئاً سوى الكتابة. لسوف تعتذر.

صباح السبت ٢٠٠٢/٣/٢

قصص قصيرة
الأشياء تأتي متأخرة !

عادل الأسطة

لماذا كنت يوسف؟ من قال إني كنت يوسف؟

خيال شرقي ... ربما.

يكتب روايتها.

درس في التلقي.

دفتر الماضي.

عادات ريما.

ثمة مبرر لحقد ما.

البكاء على الأطلال.

أنّي سريت !؟

الأشياء تأتي متأخرة !

قليل من الحزن ... كثير من الود

أبو حيان يحرق كتبه ثانية

صديقة عازف الموسيقى

البصاص

وجهة نظر المتلمس في مصرع طرفة بن العبد

أنجزت هذه القصص العشرة في كانون أول من العام ٢٠٠٣

وكانون ثان من العام ٢٠٠٤

أما القصص الخمسة الأخيرة فقد أنجزت قبل العام ٢٠٠٠

لماذا كنت يوسف؟
من قال إني كنت يوسف؟

يسأل، الآن، بعد سنوات مما حدث، يسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟

كان ذلك صباح يوم من أيام كانون الأول. كان يذرع شوارع المدينة باتجاه مكتبة الجامعة، الجامعة التي غادر طلابها إلى مدنهم التي جاؤوا منها، لكي يحتفلوا بعيد الميلاد، قبل أن تبدأ أمريكا احتفالها بتدمير الجيش العراقي، الاحتفال الذي سيبدأ في السادس عشر من كانون الثاني.

ثمة بردٌ قارص وأجواء ضبابية، والناس يسيرون في الشوارع ويدخلون إلى المحلات الزاهية، يعدون للمناسبة. يشترون ما تعرضه المحلات التجارية من ملابس أنيقة تزداد أناقة حين يرتديها البشر الذين يبدون بصحة جيدة. ثمة وجوه. وجوه نضرة، وأجساد ممتلئة. ثمة وسامة لافتة. وكان هو يسير. كان يسير باتجاه مكتبة الجامعة.

يصعد الدرج، يصعده ولا يرى أحداً. المكان هادئ جداً، وكأن لا أحد في المبنى، ولولا أنه رأى الناس في الشوارع لقال إنه يوم أحد، ولولا أن باب المكتبة مفتوح لأكد ما كان سيقوله.

في الطابق الأول، قرب آلة التصوير رآها. ربما تبدو في الرابعة والأربعين. ربما تبدو هكذا أستاذة الاستشراق هذه التي تسير وزوجها غالباً، هذه التي دعاها وزوجها غير مرة إلى منزله فلبت الدعوة مع زوجها، هذه التي دعته غير مرة إلى منزلها فلبى الدعوة غير مرة. كانت تحضر له، حين تزوره، القهوة أو زجاجة النبيذ، وتعلم هذه العادة منها، وأخذ يهدي من يزوره القهوة والنبيذ. وكان بينهما ثمة احترام. ثمة ود ليس أكثر. تسأله، حين تقرأ نصاً عربياً فيه مفردات أوروبية مكتوبة بحروف عربية، تسأله عن هذه المفردات التي تبدو لها غريبة، دون أن تفطن أنها مفردات لغة أجنبية، وتسأله عن مفردات عربية تسللت إلى لغة النص الفصيحة من اللهجة العامية، ويسألها عن حياتها وعن عمل زوجها، وعن الفارق في الحياة بين الألمانيتين، فقد تركت ألمانيا الشرقية لتعيش في ألمانيا الغربية. أخذت تذم الحياة هناك لتمدح الحياة هنا، رغم بعض الصعوبات في الوظيفة، ورغم نظرة التعالي التي لاحظتها على سلوك الألمان الغربيين تجاهها، هؤلاء الذين طلبوا منها أن تكتب دراسة وأن تلقيها أمام أساتذة الجامعة ليعترفوا بشهادة الأستذة التي تحملها.

في الطابق الأول، قرب آلة التصوير رآها. تسأله عن أطروحة الدكتوراة التي يعدها. تسأله عن رأي المشرف فيما يكتب، وتعده، أنها ستكون مشرفة ثانية، تعده أن تساعده وتطلب

منه ألا يكترث للأمر كثيراً. تعرف أنه يبدي رأيه في موضوعات أدبية، تلحظ أنه على اطلاع لا بأس به، تكتشف أن لغته لا بأس بها، تدعوه ليقرأ لها بعض النصوص، تطلب منه أن يحضر بعض فصول رسالته، وحين يسألها عن الموعد الذي يمكن أن يزورها فيه، تحدد له موعداً عاجلاً، موعداً لم يكن يخطر له على بال. تقول له: اليوم، بعد ساعة. وكان يوم جمعة.

يتذكر، الآن، وهو يكتب ما حدث، يتذكر يوم الجمعة ذاك. الغيوم مكفهرة، وأمطار كانون تتساقط بغزارة، والناس يسيرون في الشوارع يحملون أشياءهم، والمكتبة شبه خالية إلا من بقايا طلاب. يغادر المكتبة التي غادرتها. يذهب إلى السوق ويشتري أشياءه. يشتري أغراض إجازة عيد الميلاد. يذهب إلى شقته في منزل الطلبة، ومنها ينطلق إلى منزلها. ثمة شارع غير رئيس. يسير وحيداً في المطر الذي يتساقط. يبحلق في جانبي الشارع، في النهر الذي ارتفع منسوب مياهه، في الفراغ حيث لا أحد سواه، حيث ليس هناك ضجيج إلا ما ندر. سيارة عابرة مثل قطة عابرة مثل رجل عابر.

ويصل إلى البناية. يصعد الدرج المؤدي إلى شقتها،١. يرن الجرس. تفتح الباب. هي وحدها، وزوجها في مكان عمله، في المكتبة هناك، في المدينة المجاورة. يعرف هذا حين يسألها عن زوجها، بعد أن دخل إلى الشقة .. يجلسان معاً. تذهب إلى المطبخ لتحضر الطعام.

وتصب النبيذ في كأسين. تحضر البيتزا. تضع قطعة منها في صحنه وقطعة في صحنها. تجلس قربه. ترفع في كأسها لتشرب في صحة عيد الميلاد. تقطع البيتزا بالسكين والشوكة، تتناول قطعة منها، وتطلب منه أن يأكل، فالنبيذ قد يضر المعدة الفارغة. تنتهي من مضغ لقمتها، ولا تنتظر أن ينتهيا من الطعام. تمد يدها إلى ...

سيغادرها. سيغادر الشقة على الرغم من أنها أخبرته أن زوجها يعاني من ضعف جنسي. سيعتذر لها لسلوكه، ولا تغلق الأبواب. تتركه يمشي. لا تقد قميصه لا من قبل ولا من دبر، وسيبدو مثل يوسف، رغم أنه لم يكن دائماً هكذا. فهو أحياناً يقول: لم أكن يوسف أبداً. أحياناً كنت يوسف.

يتذكر، فيما بعد، بعد أشهر. يتذكر ما حدث. يراها وتراه. تسأله عن الرسالة التي يعدها. يجيبها: لا أدري. تسأله إن كان ما زال يريد أن تكون ممتحنه الثاني. يجيبها: لا، ويخبرها أنه اتفق مع مشرف آخر، في مدينة أخرى. وتطلب منه ألا يخبر أحداً بما جرى بينهما. ويعدها.

يتساءل فيما بعد إن كان زوجها يعاني حقاً من ضعف جنسي. يتساءل إن كانت شبقة. يعرف منها أنها انفصلت عن زوجها، يعرف أنها تعيش وحيدة في شقتها. تخبره هي بهذا. ويعرف من غيرها أنها امرأة شبقة.

وهو ينظر إليها. تقص شعرها. تهتم بملابسها. وتحاول أن تبدو أنيقة. جسد حنطي فوار. وجه تملؤه الأصباغ كأنما هي على استعداد دائم للنزال، إذا كان هناك من هو مستعد للنزال. ومع أنه وعدها ألا يفشي سرها، تلك التي تركت عزيزها، إلاّ أنها كانت دائماً تلح بالسؤال: هل أخبرت أحداً بما حدث؟ ولأنه لم يخبر أحداً وأدركت هذا، فلم تتردد في أن تشوهه دفاعاً عن نفسها. كأنما تقول: خير وسلة للدفاع هي الهجوم. وهو، هو بعد سنوات، يتساءل: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

لماذا كنت يوسف؟

بعد سنوات يتذكرها. يتذكر زيارتها ويسأله نفسه: لماذا كنت يوسف؟

تتصل به من (بوخوم). تحدد موعداً لزيارته. تخبره أنها تريد مقابلة بعض الأساتذة. يرحب بها، فقد كان بينهما ثمة لقاء. كانت زارته قبل عام ونيف من موعد الزيارة المقترحة. باتت في شقته الصغيرة أياماً أكرم وفادتها. تعرفت إلى زوجته وأطفاله ساروا معاً في شوارع المدينة وأقلتهم في سيارتها صوب الغابة ومشوا في الغابة معاً.

تتصل به من جديد، بعد الزيارة الأولى وتحدد موعداً، وهي تعلم أنه الآن وحيد، تعلم أن زوجته غادرته مع أطفالها. وكان منهكاً. ثمة مشاكل كثيرة. ثمة إشاعات روج الآخرون لها. وهو لم يكن يدري عنها. هل أرادوا أن يبرروا ما سيقدمون عليه؟ هل أرادوا قتله حين أشاعوا أنه فكر بالانتحار؟

تأتي في الموعد المحدد. يستقبلها في شقته. رجل وامرأة يتقاربان عمراً وحجماً ولوناً، رغم أنه من الشرق الأوسط، ورغم أنها ألمانية. يتحدثان عن الدراسة. تخبره عن أطروحة الدكتوراه التي تعدها. تعرض عليه بعض فصول مما كتبت. تقول له إنّ لها موعداً مع أستاذة ما. تعلمه إنها شديدة وتريد رأيه لأنه تلميذها. وتسأله عن رسالته. تسأله متى سينتهي من كتابتها. وتغادر إلى الجامعة.

مساء تعود. تعود بعد غياب ساعات طويلة. تقترح عليه أن يخرجا معاً إلى مطعم ما، إلى بار ما. تقول له: أنا أدعوك إلى العشاء. هذا يعني في العرف الألماني أنها ستدفع ثمن الطعام والشراب. يرد عليها: أنت ضيفتي، ويسألها إن كانت ما زالت على علاقة بزوجها في الشام. زوجها الفلسطيني الذي يكتب القصة والرواية، زوجها الذي وصف علاقته بها في إحدى رواياته. زوجها الذي كان متزوجاً من امرأة فلسطينية وله منها أبناء.

كانت أخبرته أنها تعرف أن زوجها الفلسطيني متزوج، وأخبرته أنه يقيم معها في شقتها، ومنه عرفت، من زوجها، أنه هو الذي كتب أطروحة الماجستير في الموضوع الذي كتبت فيه، وأنه، زوجها، هو الذي أعطاها نسخة من رسالة الماجستير التي أعدها. ويسألها السؤال: أما زلت على علاقة به؟ وتجيبه: نعم. وهو لا يدري. غير أن بقايا رجل شرقي ما زالت تسكن في وعيه. يحترم صديقه ولا يريد أن يقيم علاقة جنسية مع زوجة صديقه. بقايا رجل شرقي ما زالت تسكن في عقله.

يذهبان معاً إلى مطعم ما. ينفقان ساعات طويلة يحتسيان البيرة المدخنة التي تختص المدينة بتقديمها. كان عرف هذا من ألماني مجرب دعاه ذات يوم إلى هذا المطعم، المطعم الذي أخذ يدعو زواره إليه. يتحدثان في أمور كثيرة. يتحدثان عن حياتها في الشام. عن حياته هنا في المدينة. عن اختلافه مع أصدقائه. عن علاقته بالمشرفات. بأستاذته التي أحضرته إلى ألمانيا. عن زوج أستاذته. تخبره أنهما انفصلا عن بعضهما بسببه. تقول له: إنها ما زالت تكن له بعض الود وتود لو تعود العلاقة بينهما ودية، فهي الأستاذة لم تكن تعرف عن زوجها أنه مرتبط بجهاز استخبارات. وهي، هي القادمة من (بوخوم) تستدرجه لتعرف آراءه، لتعرف إن كان ما ينسب إليه يصدر عنه.

يغادران المقهى. يسيران معاً. يذرعان الشوارع في ليل مطير، ليل شديد البرودة، ليل لا يمنع الناس من الخروج من منازلهم. يتحدثان بهدوء. تقص عليه أخبارها. يقص عليها أخباره، وحين يقتربان من المنزل تسأله: أين سأبيت؟ يتذكر أنها امرأة متزوجة، يتذكر زوجها في الشام، زوجها المنضم إلى فصيل فلسطيني. في البداية يقول مازحاً: ننام معاً، وينتظر رد فعلها. لا تعقب. لا يؤكد المقولة الشائعة: الصمت يعني الموافقة، المقولة التي تصدر عن ثقافته هو، ولا يعرف إن كان الصمت، في ثقافتها، يعني الموافقة. يقتربان من المنزل أكثر. لا تمد يدها إلى يده. لا يمد يده إلى يدها. لعلها لا تريد. ولعله، هو المنهك منذ أسابيع، لا يملك رغبة في مضاجعة ما. ثمة جسد بدأ، في الأشهر الأخيرة، يهزل. وثمة مشاكل عديدة. يقول لها: تنامي وحيدة في سريري، وأنام أنا في الصالون، فثمة فرشة إضافية. يسيران معاً، وحين يقتربان من الشقة، تستأذنه في أن تذهب إلى سيارتها لتحضر أشياءها، ويتركها تذهب. تأتي بعد دقائق، تأتي وقد أحضرت ملابسها. تضع الحقيبة في الغرفة، ويجلسان في الصالة. يواصلان الحديث عن الدراسة، تسأله عن مصادره ومراجعه. يشربان القهوة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. ولا يدري لماذا لم يمد يده إلى رقبتها، كما فعل مع أندريا التي سرعان ما خلعت ملابسها. واصل احترام صديقه، بل إنه لم ينتظر أن تقوم هي بلمسة. لعلها، وهي تقرأ معه بعض صفحات من رسالته، لعلها تعرف ما فعله مع أندريا، لعلها أرادت أن يبادر هو. ولم تكن مثل فتيات أخريات بادرن. مثل بربارة التي حين حدثها عن الدراسة قالت له: شبعت دراسة.

وفي ساعة متأخرة قامت إلى غرفتها، أخذت منشفتها وقميص نومها، وذهبت إلى الحمام. غسلت جسدها وخرجت، ولم يلامسها. كان يسأل نفسه: هل أرادت أن تعرف إن كنا سننام معاً على سرير واحد حين سألت أين سننام، ولهذا لم تحضر أغراضها؟ أم أنها أرادت أن تتركها في الحافلة، حتى إذا ما عرفت أننا سننام معاً، إن أصررت، ستغادر إلى فندق؟

وتخرج من الحمام. جسد فوّار، وهو متعب / وهو يعرف أنها، كما قالت له، ما زالت على علاقة بصديق له، علاقة زواج. وثمة بقايا تفكير شرقي. وثمة جسد ممتلئ رجراج، ثمة خلفية كبيرة، وذهبا كل إلى سريره.

يتذكرها فيما بعد. يتذكرها مراراً ويسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

لماذا كنت يوسف؟
من قال إني كنت يوسف؟

يسأل نفسه مرات عديدة، يسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟ غير أنه يدرك أنه لم يكن دائماً يوسف، وحين يصغي إلى شخص ما يقرأ أمامه قصة يوسف، أو يحدثه عنها يكون جوابه: من قال إني كنت يوسف؟ من قال إني كنت يوسف؟ ويتذكرهن تلك اللاتي كن مثل زليخة، اللاتي راودهن عن أنفسهن وراودنه عن نفسه، دون أن يقددن قميصه، ودون أن يقد قمصانهن. كن ينزعن ثيابهن وينزع هو ثيابه، ولم يكن، غالباً، ثمة عزيز، ولم يكن هو يوسف. ولكنه يعرف أنه كان أحياناً يتصرف مثل تصرف يوسف، وكان، فيما بعد، لأسباب عديدة، يندم لأنه سلك سلوك يوسف.

ستقله امرأة في سيارتها . ستعرفه بنفسها وهو جالس إلى جانبها، وستمدح حديثه في المحاضرة، ثم تعرفه بنفسها. امرأة في الخمسين، من عائلة إقطاعية، زمن الإقطاع، من عائلة برجوازية، فيما بعد، وهي امرأة متزوجة أيضاً من ثري. لها شابات كبار ولها زوج طاعن في السن سيتعرف إليه فيما بعد، وفيما بعد أيضاً سيتعرف إلى ابنتها الشابة السمراء الممتلئة الحاصلة على شهادة عليا ما. وتطلب منه أن يعلمها عن المكان الذي يرغب في الذهاب إليه لتوصله. وفي وسط المدينة يفترقان. لم ينظر إليها على أنها زليخة، ولم ير نفسه يوسفا. ثمة علاقة عابرة، وإن تذكر، وهو جالس إلى جانبها، أستاذه الاستشراق التي حاولت إغواءه. يذرع شوارع المدينة، ويغادر إلى منزله، ولا يعود يلتقي بها إلا بعد فترة. تعرفه بابنتها التي عرفها قبل فترة.

يذكر ابنتها جيدا. يذكرها جيدا. ربما هي في الخامسة والعشرين. فتاة سمراء اللون ممتلئة على قدر من الجاذبية، ليست بالقصيرة جداً، وليست بالطويلة أيضاً. وكلما رآى أحدهما الآخر أخذ يمرحبه. تمرحبه فيمرحبها. تمر أحياناً من أمام مكتبه في المؤسسة، ويراها حين يذهب إلى مكان عملها، يراها غالباً بصحبة فتاة ما تقاربها في عمرها. ولم يكن يفكر بالارتباط بأية فتاة، ولكنها أخذت تميل إليه. لاحظ هذا، ولاحظت هذا صديقتها. في قاعة المؤتمرات كان يشرب القهوة، ولما هم بالدخول إلى المدرج جاءت إليه تبتسم. أعلمته أن شرب القهوة داخل القاعة، قاعة المدرج، ممنوع. هل كانت ثمة فرصة لأن تحادثه؟ صديقتها تعرف هذا، لأنها تعرف أنها تسير، غالباً، باتجاهه.

وسيراها مراراً. سيراها تسير في الشارع وسط المدينة، سيراها في مكان عملها، سيراها في الاحتفالات برفقة عمها الذي لم يكن على علاقة ودية معه، سيراها في النادي مع والدها. سيتبادلان التحيات، سيتحدثان حديثاً عابراً، وسيبدو غير مكترث للأمر. سيسأل نفسه: هل تمثل دوراً؟ سيتذكر امرأة عرفها هناك، هناك في ألمانيا. امرأة سمراء البشرة زارته وأقام معها علاقة عابرة، علاقة لا تمّحى من الذاكرة، علاقة غريبة بين رجل شرقي وامرأة ألمانية، علاقة نادرة بين رجل وامرأة، وكان عرف غيرها من الفتيات، لم يحدث معهن ما حدث معها. ثمة فحولة غير عادية. ويسأل نفسه: هل تمثل دوراً أم أنها عرفت بحكايته مع تلك المرأة، وتحن إلى فحولة ما؟

وفيما بعد، فيما بعد، يسأل نفسه مراراً: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

ولم يعد يراها. ربما تزوجت. ربما سافرت إلى أوروبا لتحيا هناك الحياة التي ترغب في أن تحياها، وكان يصغي إلى أقوال كثيرة تقولها. كان يدرك أنها أقوال غير صحيحة. كان يتبعني. كانت تقول. وتواصل أقوالها، وهو يكتب على مفكرته اسم صديقتها حتى يسألها الآخرون عن الحقيقة، وكانت صديقتها تقول ما جرى. وهو يسأل نفسه مراراً: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟ وهو يدرك أنه لم يكن دائماً يوسف، غير أنه أحياناً كان مثل يوسف، وحين يتذكر هذا يتساءل بمرارة: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

خيال شرقي ... ربما !!!

ليلة الثالث والعشرين من أيلول ٢٠٠٣. تذهب إلى النوم مبكراً. تمل من سماع نشرات الأخبار، فالصور هي الصور، والأخبار هي الأخبار نفسها. والوضع يكاد يتفجر. وتسأل نفسك: هل ستعود الانتفاضة قوية إثر قرار الحكومة الإسرائيلية بإبعاد أبي عمار؟

تحاول النوم. تغفو، ولا تكون أحلامك سعيدة. بم يحلم الفلسطينيون ! بم يحلم الإسرائيليون؟ سؤال أثارَهُ كاتب إسرائيلي يساري في الانتفاضة الأولى. وفي الثانية فجراً تسمع أصوات رصاص. رصاصة واحدة كل دقيقة. هل أنت في حلم؟ هل تحلم؟ وتذهب بك المخيلة بعيداً. هل يخرجون الناس من بيوتهم ويطلقون عليهم الرصاص واحداً واحداً؟ هل هي صابرا وشاتيلا جديدة؟ ونحن الآن، في أيلول؟ وإن لم يكن اليهود، في صابرا وشاتيلا، قتلوا غير اليهود، فمن الذي قتل هؤلاء في اللد وقبية ودير ياسين؟

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

تعود من عمان، بعد غياب أسبوعين، عبر الجسر. وقبل أن تفكر في استقلال الحافلة حتى تصل إلى استراحة أريحا يبادرك صديق قديم بالسؤال إن كنت توافق على أن تدفع مائة وخمسة وعشرين شيقلاً، تستقل معهم السيارة الفارهة الحديثة ذات الركاب السبعة التي ستواصل السير حتى حاجز حوارة، فتوافق. ولأن السيارة الإسرائيلية، مع أن سائقها عربي، تسير الطريق الأقصر، وتعبر شارع المستوطنات، وفي الطريق يكون هناك حاجزٌ واحد فقط. يسأل الجندي الركاب عن هوياتهم، ويفتش حقائبهم، بعد أن هبطوا من السيارة ووقفوا إلى جانبها. وعلى بعد خمسة أمتار فقط يقف جندي يشهر سلاحه، وإصبعه على الزناد. تنظر إليه، وتتابع حركة يده، فيما ينظر إلى زميله وإلى الركاب يتابعهم واحداً واحداً. وتسأل نفسك: من سيكون الضحية لو تحرك إصبع يده لا إرادياً؟ ولا تتذكر (غولدشتاين)، علماً بأنه قد يكون (غولدشتاين) آخر.

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

يرفع الإسرائيليون، عن المدينة، حظر التجوال، لمدة ست ساعات. وترغب في أن تغادر إلى المدينة. تسأل السائقين إن كان ثمة جنود في وسط المدينة. ويجيبك كل سائق بما رأى أو سمع. وتؤثر البقاء في المنزل، فلا حاجة ملحة للذهاب إلى المدينة. تجلس قرب دكان أخيك. تشرب القهوة، وتخوض فيما فيه الناس يخوضون. يأتي قريبك. يقترح عليك أن تذهبا

إلى مبنى الجامعة، فتذهب يدفعك الفضول لرؤية ما يجري في المدينة. وتعودان معا. هو يقود السيارة، وأنت تجلس إلى جانبه. تعودان الطريق نفسها، فالدبابات في وسط المدينة والطريق الذي سلكتماه لا يقترب كثيراً منها. وفجأة تهرب السيارات وتجدان سيارتكما أمام الدبابة. وفجأة يبدأ الأطفال يقذفون الحجارة من جهات عديدة. يرتبك قريبك/ وتقترح عليه أن يدخل في طريق جانبي، ويفعل. وكان يمكن أن تكونا الضحية القادمة، لولا أن ألهم الله الجنود الصبر والسلوان وعدم الرد على الحجارة بالرصاص.

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

تتكرر الحالة. تستقل الحافلة التي عادة ما تسير في شارع عمان. تطلب المرأتان من السائق أن يوصلهما إلى مخيم بلاطة، فلا يمانع كما يمانع أغلب السواقين. يقف السائق أمام الجامع حتى تهبط المرأتان، وما كادتا تهبطان، وما إن قرر السائق مواصلة السير، حتى كانت الدبابة تواجهه وهي تسير في الاتجاه المعاكس. يرتبك السائق، وهو يرى الناس يهربون. ويكرر راكب: يا هارب من قضاي، مالك رب سواي. وهو يدرك أنه قد يكون الضحية القادمة، ففي هذا الوطن لا أمان لأحد.

وهذا أيضاً خيال شرقي ،، هذا خيال شرقي ليس أكثر.

يكتب روايتها ... !!

بعد سنوات طويلة يلتقيان

لم يكن بينهما من علاقة غير القرابة. أخذت الصداقة بينهما تتوطد شيئاً فشيئا، وغدا لها الصديق الذي تثق به. غدا أخا آخر، أخا صديقا. وقصت عليه ما لم تجرؤ على قصه على إخوتها. ولم يكن يرى في سلوكها ما يعيب. فتاة تمارس حقها في الحياة. فتاة في العشرين. ناعمة. رقيقة. على قدر لا بأس به من الجمال.

بعد سنوات طويلة يلتقيان.

كانت أيامه صعبة وقاسية ومريرة. لم يكن يعرف عنها إلا أقل القليل. يعرف أخباراً عابرة. يعرف أنها سعيدة مع زوجها الذي ارتضاه أهلها زوجاً لها. (.....) يعرف أنها خلفت صبايا، وحين رآهن شابات رأى شبابها فيهن. رأى ورداً تتفتح.

قالت لهن: هو ذا قريبي الذي حدثتكن عنه. قلت لهن، قالت تخاطبه، إنك أنت الذي كنت تجلب لي الكتب التي أحتاج إليها من مكتبة الجامعة. وقلت لهن، قالت أيضاً تخاطبه، كان أحد إخوتي. وصمتت (.....)، ولم يعقب على كلامها.

تناول الشراب الذي قدمته ابنتها. شراب المانجا واحتساه دفعة واحدة. كان يلعب لعبة الكلمات. ولكنه لم يشرب المانجا على دفعتين. لم يقسم الكاس ليجعله نصفاً فارغاً ونصفاً ممتلئاً.

لم يقرأ الكلمة مقطعين الأول بالإنجليزية (Man) والثاني بالعربية (جاء). لم يتذكر (بول دي مان) والتفكيكية. " جاء رجلاً " تعني (مانجا) في اللغة الإشارية الدالة في محيطه.

يا الله، قال يخاطبها، لم أكن أعتقد أننا سنلتقي. وحين فكرت في زيارة أهلك، لم أكن أعتقد أنك هنا. آخر مرة التقينا فيها معاً كانت في العام ١٩٨٧. كان زوجك معك. ما أخباره. وقص عليها عمّا مر به من تجارب مريرة. عن معاناته مع النساء، وتشرده في المدن، وضيق ذرعه بأهله ومعارفه. وكانت تصغي. كأنما تبادلا، الآن، الأدوار.

كانت تقص عليه، من قبل، ما يلم بها من إشكالات. كانت تقص عن أب تحترمه، ولكنها تختلف معه في رؤيته للحياة. كانت تقص عن أم تحبها، ولكنها لا تريد أن تكون مثلها سيدة بيت. كانت تقص عن إخوة تحبهم وتحترمهم، ولكنها تختلف عنهم فطموحها غير ما يطمحون إليه. والآن حدثته بارتياح عن بناتها. عن زوجها وأيامها. وأخفت أشياء عن ماضيها. أشياء لا تعيبها، ولكنها لا تريد إعلانها. وتريد منه ألا يأتي عليها.

بعد سنوات يلتقيان من جديد.

تنظر إلى ملامحه وما فعله الزمن به. تنظر إلى معالم وجهه. تذكره بشعره الغزير الكثيف الذي لم يبق منه إلا البقايا. يقول لها: كأن لقاءنا الأخير كان قبل يومين، أو قبل أسبوعين. ولم يعترض على كلامها. لم يكمل ما نقص من روايتها. وكان يلاحظ ابتسامتها وهي تروي و (.....).

وهو يحفظ بعض أسرارها. يتركها تروي روايتها، ويصغي إليها. و (.....). والأسرار ليست خطيرة. والأسرار عادية ولكن .... من يروي روايته كاملة؟

وبعد سنوات طويلة يصغي إلى روايتها. ينظر في عينيها. ينظر إلى أمها. ينظر إلى ابنتها، ويصغي إلى روايتها. وروايتها ليست. (.....).

درس في التلقي

حين انتهى من إلقاء محاضرته سار في الممر الذي يؤدي إلى مكتبه. وكانت الفتاة تتبعه. سارت أمامه ولم تتبع الطريق الذي يسلكه الطلبة. كان الجو حاراً فالصيف على الأبواب. وحين وصلت إلى المبرد أخذت تشرب الماء. لاحظ أنها لم تنقطع عن شرب الماء للحظات، وحين اقترب منها توقفت ورفعت رأسها، وانتصبت. وحين تلاقت نظراتهما قال لها: الجو حار ويبدو العطش شديداً. وسارا كل في طريق.

وفي المكتبة التي يزورها بين فينة وأخرى قال له الموظف قصة المعلم الذي يلاحق الطالبات. قال له إنه يبدو هادئاً ووديعاً، ولكنه ساهٍ. إنه يقول كلمات ويقصد معاني أبعد. وابتسم. قال له: لغتنا ومفرداتنا غالباً ما تكون حمالة أوجه. أنت تقول الكلمة، وإذا احتملت معنيين تردد عبارة الناس: بلا قافة. ولعل العبارة الأخيرة: بلا قافية، لعلها من الموروث الشعري، وفي الشعر تحتمل المفردة أحياناً معنيين. في الشعر تورية. ثمة معنى قريب غير مقصود ومعنى بعيد مقصود. فإذا ما ردد المرء عبارة: بلا قافة، فإنه يلجأ إلى التورية، وإذا لم يرددها فهو لا يقصد هذا، إلا إذا غمز ولمز. هنا تكمل الإشارة العبارة.

وهي، هي ذهبت مذاهب شتى. هي قالت الأستاذ ليس سهلا. إنه يغازل الطالبات ويذهب في كلامه مذهب أهل البلاغة. يبدو وديعا، ولكنه ساهٍ. وأشاعت هذا في المدينة. وفي المدينة أخذ الناس يتحدثون عن العبارة وما بعد العبارة.

وهو، هو احتار في أمر الفتاة والناس. وبخاصة حين أخذوا يلمحون له بإمكانية فصله من العمل. (للأمانة هو لم يصطحب فتاة إلى مطعم، يركن في زاوية حتى يغازلها ويمد يده، وللأمانة هو لم يتمادَ مع طالبة وعدته أنها ستمنح جسدها له، ولو بعد حين. وللأمانة هو لم يقف، وهو طالب، أيام الجامعة، وراء طوابير الطلبة ليضغط على مؤخرة طالبة. ربما تكون له أخطاؤه، وهو لا ينكر هذا، وهو يكرر: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. ولكن الذي فعل كل الأشياء السابقة يحاول أن ينكرها و ...).

قال: كيف سأشرح لأهل المدينة الأمر؟ كيف سأقول لهم إنني قلت الكلمة، وسواء أكنت أرمي إلى معنى بعيد أم لا، فإن من أشاع القصة هو الفتاة. وأنا، قال، قلت كلمتي ومشيت، مثلي مثل الكاتب الذي يكتب زاويته: قل كلمة وامشِ. أو قل كلمتك وامشِ. لا بد، إذن، من نظرية نقدية يستوعبها أهل المدينة.

وهو يشرح للطلاب نظرية التلقي، قال لعل أفضل مثال يمكن أن يساعدهم على فهمها هو الإتيان بمثال تجسيدي. المؤلف يقول شيئاً. يكتب نصاً. والقراء يفهمونه بطريقتهم، وهو غير مسؤول عن فهمهم / فالعلاقة بين النص والقارئ، لا بين المؤلف والنص. و ... وأليس عنوان الزاوية التالية مثالاً: قل كلمتك وامشِ. والمؤلف يخاطب القارئة وهي تشرب: هل أنت عطشى؟ وهو غير مسؤول عن المعنى البعيد، عن إساءة التفسير وهي تحلم. إنها مثل أم حسين.

دفتر الماضي

يتذكر أياما مضت. تعود به الذاكرة إلى خمسة وعشرين عاما خلت. تعود به إلى تلك الصباحات التي كانت أكثر إشراقاً من صباحاته هذه. ربما لأنه لم يبق منها سوى الذكرى. ربما لأنه كان شاباً قادراً على الاحتمال. ربما لأنه لم يكن أبا ولم يكن مسؤولا. ربما لأن تجاربه كانت أقل، وكانت همومه، من ثم، أقل. ربما، وربما لأن المستوطنات أيضاً كانت أقل، وربما لأن عمر الاحتلال كان أيضاً أقل. وربما لأنه كان يذرع فلسطين من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها دون أية مشكلة.

يتذكر تلك الروح المتمردة التي كانت تسكن جسده الآخذ، الآن، في النحول. يتذكر أصدقاء رائعين. يتذكر زملاء كانوا معا مثل عصبة عصي تأبى تكسرا، لأنها كانت مجتمعة، أما الآن فقد تفرقت آحادا.

يتذكر تلك الأيام. كانت الأحلام كبيرة. الوطن الذي كان في طريقه إلى الضياع، كانت الروح تسنده. لم تكن الروح قد انهزمت. ثمة منشور سري يوزعه على أصدقاء يترددون، ابتداء، في قبوله. وثمة تفاؤل. الثورة قوية، وهناك من يقول لا، وهناك عالمان. عالم يقف معه، وآخر يقف ضده. وثمة أغان يرددها: في الزمن القادم، حين يكون لنا بيت كالمعتاد. وثمة مقاطع شعرية لناظم حكمت: أجمل الأيام ما لم تأت بعد، أجمل الأطفال ما لم تولد بعد.

يتذكر تلك الطفلة التي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها. يريد والدها أن يزوجها، فما جدوى التعليم لفتاة. ستحتل شهادتها، في النهاية، زاوية من زوايا المنزل، فالفتاة، في آخر الأمر، للمطبخ ولتربية الأولاد. يذهب والأصدقاء، إلى منزل والدها. يجلسون على حصير في بيت فقير.بيت ريفي من اللبن والقش. يشربون الشاي أحمر مثل لون دمهم. يبتسمون في وجه والد الطفلة، بعد أن بادلوه التحايا الحارة. كأنهم أسرة واحدة. كأنه أخوهم، والطالبة ابنتهم.ثمة ود متبادل، وثمة إصرار على غداء. غداء فقراء. لكن ثمة إصرار. بيض مقلي وخبز طابون وشرائح بندورة. ولا بد من مناقشة الأمر. لا بد إذن من الغداء، ولا بد من شرب الشاي.

يتذكر الماضي. خمسة أو ستة من المعلمين الشباب. ثمة معلم صموت لم يتكلم عن زواجه أو طلاقة لأصدقائه إطلاقا. خمس سنوات بينهم لا يعرفون عن قصته شيئا. وثمة معلم متحمس لعمله، مخلص فيه، نشيط يؤيد الخميني بلا تردد. يأتي من جنين، ويرزقه الله، بعد طول انتظار، بالإناث. وثمة من يخلص لتدريسه أكثر من إخلاصه لأي شيء آخر. وثمة صوت واحد: لا بد من أن تكمل تعليمها. شابة ذكية وتدرس بانتظام. لو كانت كسولة غبية لربما .... يقولون لأبيها.

يتذكر الماضي. يترك المدرسة، يذهب إلى الجامعة. يغادر إلى أوروبا ويجد نفسه فجأة أمام المشكلة من جديد. بعد خمسة وعشرين عاماً يجد نفسه أمام المشكلة من جديد، ولكنه الآن أمام ابنته. يصغي إلى الأصوات المختلفة تكرر العبارات إياها: ولكن مصير الفتاة الزواج. في النهاية ستجد نفسها في المطبخ. وهي تمد إليه قائمة بأسعار الساعات المعتمدة للطلبة الأجانب، للطلبة الوافدين، إلى القطر، إلى البلد، إلى ..... وستغدو، منذ دخول الجامعة، طالبة أجنبية، على الرغم من أنها عاشت في هذا الجزء من الوطن العربي ثلاثة عشر عاما، على الرغم من أنها درست في مدارسه.

وهو يريد أن يعلمها. يقول لها: تعالي وتعلمي في وطنك، وهي تريد أن تبقى حيث نشأت، والوطن الذي يدعوها إلى العودة إليه بقايا وطن. تماماً كما أنه هو بقايا إنسان.

يتذكر تلك الصباحات. كانت أكثر إشراقاً. يتذكر طالبة ذكية تريد أن تتعلم. وهو يريد أن يعلم ابنته ولكن يريدها أن تعود إلى وطنها. وهي تريد أن تبقى حيث نشأت. وهو يحار، وليست ثمة أمامه سوى الصمت.

عادات ريما

صباح مبكر. صباح كانوني والبرد يلسع. تصحو المدينة وإذا بشطرها الغربي منفصل عن شطرها الشرقي. ثمة دبابة وعربة مجنزرة، وثمة دوريات. الحركة في القسم الغربي عادية، وهي كذلك في القسم الشرقي، ولكن الجنود يعيقون الناس من التنقل. وثمة أصوات من هنا ومن هناك. والمثل الشعبي على الأفواه: "رجعت حليمة لعادتها القديمة "، وتكرره: رجعت ريما لعادتها القديمة. تنطقه كما ينطقه المسيحيون، فأعياد رأس السنة على الأبواب.

في الحافلة تصغي إلى راكب يقول: الإذاعة العبرية قالت إن الأمر لن يستغرق سوى ثلاثة أيام، وفي الحافلة يسأل الركاب عن الطرق السالكة. يسأل السائق زميله فيعطيه إشارة بالعودة. ويكلمه قائلاً: الطرق صعبة، والجنود اقتربوا من مناطق لم يقتربوا منها من قبل، قبل أشهر حين كان الحصار طويلاً. يعرف الجنود الأماكن التي كان الناس يتسللون منها سابقاً، ويرسلون دورياتهم التي تجوب الشارع، فيما الناس يضبطون إيقاعهم على إيقاع الجيب الإسرائيلي الذي يتشكل أيضاً من جنود دروز. وبعد قليل تتفتق المخيلة الجماهيرية عن أشياء جديدة. يكتشف الناس طريقاً في الجبل، مثل ذاك الذي وصفه تأبط شراً، الشاعر الجاهلي:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه مـــا يطل

خفف العبء عليّ وولّـــى أنا بالعبء له مستقل

والناس، الذاهبون والعائدون، السائرون باتجاهين يريدون أن يصلوا إلى أماكن عملهم ليس أكثر، وليس ثمة من يريد الثأر، فمن يريد الثأر لا يسير في طرق مكشوفة واضحة. يصعدون الدرج. قبل أن تمطره الدوريات بوابل من قنابل الغاز المســيل للدموع، ويصغي المرء هناك، رغم كل ما يحدث إلى أصوات طالبات يضحكن. لو كان هناك (درابزين) لأمكن (التسحسل) على الدرج. ويواصلن السير. يصعدن الدرجات لمواصلة تعليمهن.

تبدأ إحداهن تعد الدرجات، ثم تعاود العدّ. ويبدأ الجنود بقذف قذائف الغاز المسيل للدموع. يبكي من يبكي، ويعطس من يعطس، ويتلفع من يضع الكوفية على رقبته بها. الدورية تشدد الحصار، والناس يواصلون رحلتهم، ولا بد من اكتشاف طرق جديدة. والطريق هذه المرة ليس سهلاً. شِعْبٌ في الجبل. شِعْبٌ لم يمهد بعد. الكبار لا يستطيعون السير فيه، وكذلك النسوة.

ويواصل بعض هؤلاء السير في الطريق القديم، غير آبهين لأصابع الجنود التي تكاد تضغط على الزناد.

لو كان هناك كاميرا. لو كان هناك صحافة. النسوة يسرن في الطرق الجبلية الوعرة. يترددْن، فالمخاطرة ليست هينة. لو زلت رجل إحداهن فقد يصيبها مكروه. والدوريات تشدد

الحصار، والناس لا يكلون ولا يملون. ريما تواصل عاداتها، والناس يواصلون عاداتهم. ثمة قطة وفأر. ثمة سيزيف فلسطين. ثمة آلهة تحكم عليه بأن يصعد إلى أعلى الجبل، لينزل ويصعد، ولا ملل. يدقون الماء في الهون. ويكتشف عاموز عوز، بعد خمسين عاماً، أنه كان بالإمكان ألا يحدث هذا. يكتب هذا في مقال يترجم إلى العربية.

يذهب الإسرائيليون لفترة، لعدة أيام، ثم يعودون. يصحو الناس كالعادة. يريدون الذهاب إلى أعمالهم ووظائفهم. ولكن المدينة تغدو مدينتين. ثمة حاجز. ثمة جسر لا بد من اجتيازه. مجرد دورية ودبابة ومجنزرة تعيق مائة ألف مواطن عن مواصلة حياتهم. يمكثون يومين ثم يغادرون في اليوم الثالث، ولكنهم يتركون آثاراً ما تقوم بالواجب على خير ما يرام. يضعون أكواماً من التراب، وتغدو حركة السيارات صعبة جداً. الجنود غير موجودين وموجودون، فمن يجرؤ على إزالة الحواجز. لا بد من إذن. ويتذكر المرء الشاعر عبد اللطيف عقل. كتب هذا مرة: إنهم يفرضون منع التجول من خلال سماعة الجامع. وها هم يبتكرون، الآن، شيئاً شبيها. أكوام من التراب، وريما تواصل عادتها.

ثمة مبرر لحقد ما

في الحافلة يتكلم. يقص عن ابنه الذي قضى قتلاً. يقص عن ابنه الذي يقيم في مركز للمعاقين في بيت لحم، ويلعن اليهود والأنظمة العربية.

في الحافلة يحاور الركاب، وقد تكون واحداً منهم. قد تجد نفسك مسوقاً في الكلام. قد لا تعرف قصته كلها. وقد تجد نفسك تقول كلاماً مغايراً لما يقول. قد لا تلعن اليهود كلهم، وقد تدافع عن قائد عربي مثل جمال عبد الناصر.

وفي الحافلة قد يحدث الاشتباك. قد تجد نفسك من الذين أصابتهم اللعنة. وقد تقول له: ولكني لست يهودياً، ولست حاكماً عربياً. ومع ذلك تجد نفسك من الملعونين.

وثمة حقد ما. ثمة قلب اكتوى مرتين، مرة بفقد فلذة كبد، ومرة بحسرة متكررة، وكلما استبد به الشوق إلى ابنه وأراد زيارته تذكر حالته التي لا تسر، وتذكر القتلة، وأنت، أنت إذا كنت ممن يدافعون عن ثمة اختلاف ما، ثمة هامش ما لحوار ما، ماذا تقول في الحافلة؟

ثمة مبرر لحقد ما.

ثمة مبرر لحقد ما.

ولا كلام.

****

على مقعد ما، في دكان ما، في يوم مشمس من أيام الشتاء، تجلس لتصغي إلى أحد معارفك. يتكلم عن أشعار يكتبها. تعود به الذكرى إلى الماضي. يحضر دفاتره القديمة ليقرأ بعض ما كان يكتب. تلعن اليوم الذي غدوت فيه ناقداً ينشر مقالاته ودراساته. كلما كتب أحدهم نصاً ما عليك أن تقرأه، وأن تبدي رأيك لصاحبه. وقد تقرأ كلاماً لا طائل من وراء قراءته.

على مقعد ما، في يوم مشمسٍ من أيام الشتاء، يمر شاب في السادسة والعشرين من عمره من أمامك. لا يطرح السلام، كأنما لا أحد في المكان. ويحدثك أبوه عن قصته، يلعن اليهود، ويعبر عن قلب مليء بالحسرات.

كان ذلك قبل ثمانية أعوام. كان ذاهباً ليقدم امتحان الثانوية العامة، وأمسك به الجنود، ضربه أحدهم بكعب مسدسه، ومنذ ذلك الزمن وهو فاقد الوعي. يتناول المهدئات باستمرار، وحين يثور يضرب أمّه فتصرخ مستنجدةً. أهدئه بكلام ما. أقول له إنها أمك، وأحياناً يخاطب ربه قائلاً: ماذا فعلت لك يا إلهي؟ ماذا فعلت لك؟

ويعبر أبوه عن حقد ما، حقد يكبر مع الأيام، يكبر كلما كبر ابنه الذي تزداد حالته

سوءاً. وأنت تدرك هذا. تدرك أن ثمة مبرراً لحقد ما. وتصمت. وتصمت، ولا كلام.

****

في صباح مبكر لا تصل إلى مكان عملك. المدينة محاصرة حصاراً شديداً. السواقون واقفون والسيارات مصطفة على الجانبين، وثمة شمس تسطع في كانون الثاني ولا مطر. المطر الذي شهدته المدينة كان مطراً أرضياً. مطراً يصعد من الأرض إلى السماء. ثمة رصاص وثمة قتل وثمة خمسة عشر شهيداً في أسبوعين، وثمة أربعة شهداء في يوم واحد.

في صباح مبكر تعود من حيث أتيت. تذهب إلى الفوال تشتري الفول، ويبدأ حديث عابر. يحدث عن ابنين سجينين. يحدث عن شاب معاق غالباً ما تراه على كرسيه. والفوال يبيعك الفول، ويمارس حياته، يبتسم وهو يحدثك. يبتسم لأنه لا يعرف في حياته إلا الابتسام، ولا تدري ما الذي في القلب. وتحدثه عن الرجل الذي استشهد ابنه، الرجل الذي يمكث ابنه في مشفى للمعاقين، وعن الرجل الذي يرى ابنه فاقد الوعي دائماً، تحدثه عن حسين الذي يسير وحيداً في الشارع يدخن سيجارته ولا يحدث أحداً منذ الانتفاضة الأولى حيث أهوى الجنود بالعصى على رأسه وحولوه إلى معاق. ثمة مبرر لحقد ما. ولا كلام.

٢٠٠٤/١/٤

البكاء على الأطلال

ستقودني قدماي إلى المخيم الذي ولدت فيه، المخيم الذي أنفقت فيه من عمري أربعة وعشرين عاما. ستقودني قدماي إلى مركز الشباب لأقدم التعازي إلى عائلة الشهيد. ستقودني قدماي إلى هذا المكان مراراً منذ أربعين شهراً. وسوف أقدم العزاء لمن أعرفهم ولمن لم أعد أعرفهم، لأقربائي ولغير أقربائي، ولسوف ألتقي بأصدقاء قدامى. سأقف معهم ساعة ساعتين، وسوف أزور معهم بعض أحياء من المخيم. سأزور المناطق التي كنت أزورها، وسأزورها الآن لمناسبة حزينة، لأرى المنزل الذي هدموه، المنزل الذي فجر أحد سكانه نفسه قبل يوم في مستوطنة إسرائيلية، ما أدى إلى موتى وقتلى، والناس، هنا، في المخيم موتى وقتلى. والناس هنا شهداء (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً)، وهؤلاء قتلوا يوم خرجوا من وطنهم.

ستقودني قدماي إلى شوارع ضيقة، إلى أزقة كأني لم أذرعها مراراً. سأرى بيوتاً متلاصقة. سأرى بيوتاً متلاصقة. سأرى طوابق ما عادت الشمس تنفذ إليها، طوابق أرضية علاها طابق أول وطابق ثان، وغدت الطوابق الأرضية سراديب أو ما أشبه. سأرى نفسي غريباً في المكان، كأني لا أعرفه، كأني أزوره للمرة الأولى. وملثما أسير في مقبرة قديمة، حيث القبر إلى جانب القبر، وحيث يجدر أن أسير بحذر حتى لا تطأ قدماي قبراً ما، يجدر أن أسير في أزقة المخيم. أسير وراء صديقي، وصديق آخر يسير ورائي، فالزقاق لا يتسع لاثنين يسيران جنباً إلى جنب.

سأبصر المنزل الذي هدموه، سأبصر المنازل المحيطة به. سأهمس لصديق ما: هل سيخسر أصحابه شيئاً ما؟ ربما أفرجها الله عليهم. ربما يقيمون الآن في منزل أفضل. ربما يعمرونه من جديد، ويصلحون الخلل الذي اعتراه حين بنوه سابقاً. ولا أبصر الساحات. لا أبصر الفضاء الواسع الذي كان، الفسحة التي كانت تفصل بين منزل ومنزل، وبين حارة وحارة. لا أبصر أطفالاً يقيمون ملعب كرة طائرة. أربعة وعشرون عاماً مرت على تركي المكان. وثمة طابق أول لم يكن، وثمة طابق ثان لم يكن، وثمة توسع أفقي أعدم الساحات.

سأزور المخيم بعد فترة. سأزوره في عيد الفطر السعيد، لأصل الرحم، وسأرى من جديد الكتل الإسمنتية، البنايات المتلاصقة، سأرى الأطفال في الشوارع هاربين من البيوت، سأراهم زرافات ووحدانا. وسوف أسأل بعض الناس كيف يحضرون أكياس السكر والطحين والرز إلى منازلهم، وسوف أعرف أن استخدام العربة غير وارد، ولا بدّ من ظهر قوي، لا بدّ من سؤال الله: اللهم لا أسألك عبئاً هينا، اللهم أسألك ظهراً قويا. وأينما يممت وجهي أبصر جدران عارية لا يسر منظرها الناظرين. كتل إسمنتية، وشوارع بائسة ضيقة وبنايات ذات

نتوءات لا نظام ولا ترتيب فيها.

سأغادر منزل أقاربي. سأبصر فجأة شجرة تين وشجرة أخرى. سأفرح قليلاً، فثمة في المكان بعض أشجار، وسأعود بمخيلتي إلى الوراء. إلى ثلاثين عاماً خلت، يوم لم يكن مخيم واحد يخلو من عشرات الأشجار، يوم لم يكن منزل واحد يخلو من ثلاث أو أربع أشجار. أشجار الحمضيات، وأشجار الكينا، وأشجار السرو، وأشجار التوت والتين، عدا الدوالي والنبات والورود. عدا الياسمين والمديدة والليف. سأفرح لرؤية شجرتين في هذا العالم الإسمنتي العجيب. هذا العالم الذي يفتقد إلى التناسق، هذا العالم المكتظ بالمباني والبشر.

وسأزور، مساءً، بيت عمي. سأرى كتلاً إسمنتية، طوابق يركب بعضها بعضا. سأتذكر صورته الأولى: بيت أرضي يتكون من ثلاث غرف وحديقة واسعة، وشجرة توت وأكثر من دالية، ومساحة خلف الغرف كانت ملعب كرة طائرة لأبناء الحارة. وأمّا الآن.

سأزور بيت عمي. سأجلس في المنزل قليلاً من الوقت، ثم أغادر فالمكان .....

٢٠٠٤/١/٤

أَنَّى سريت ؟

في المنام رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت؟

المدينة تغرق في مأساتها، ونشرات الأخبار لا تقول عنها إلا ما تعيشه، وما تعيشه لا يسر ساكنيها ولا يسر محبيها، وليس ثمة في الشوارع إلا ما يسيء الناظرين. أكوام ترابية تفصل بين شطري المدينة، وجنود يغص المكان بهم، ومراسل تلفازي ليس بعيداً عن الدبابة التي يحرك جنودها مدفعها كأنهم يريدون قتل الشاهد على ما يقومون به، وسكان المدينة في بيوتهم، قد يطل بعضهم من النوافذ، وأنا، أنا الذي يتسلل إلى مكان عمله كما يتسلل بعض الناس، أقبع في بيتي منذ الظهيرة، ومنذ الظهيرة أمارس حياتي المنزلية. أكتب قليلاً، وأتابع نشرات الأخبار كثيراً. وحين يستبد بي الضجر أبحث عن فضائية تبث أغاني أو مسلسلات أو برامج غير إخبارية، أبحث عن فضائية ينطق مذيعها بلغة أخرى علني أحافظ على ما تبقى من تلك اللغة التي أنفقت سنوات في تعلمها حتى لا أنسى.

والليل الشتائي الطويل يدفعني إلى الذهاب إلى النوم مبكراً تقريباً، فما إن تقترب الساعة العاشرة حتى أجد نفسي ألملم نفسي، حتى أجد الضجر من الكتب والتلفاز ومن النظر إلى السماء، حتى أجده يدفعني إلى الفراش دفعا.

وفي المنام، في بداية العام الجديد، رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت؟

المرأة التي زارتني من قبل، المرأة التي رأيت في نظراتها عرض إمكانية حياة مشتركة زارتني ليلاً. زارتني على الرغم من كل الذي شاهدته في النهار، وكل ما شاهدته في النهار كان محزناً. جنود الاحتلال، إطارات محترقة، شوارع تقول إن الحياة غير طبيعية، وبشر يعدون على الأصابع، يهرولون هاربين من الجنود، وسيارات لا تواصل سيرها الطبيعي يتحدث سائقوها عن العمل في ظروف الحرب، يبررون رفع الأجرة التي يحصلونها من الركاب. وركاب يتحدثون عن قلة النقود كأنما يقولون للسائقين: لا تستغلوا.

في المنام رأيتها، رأيتها بهية ودودة، ومنذ زمن لم أكن أرى في كثيرات إلا مخبرات. رأيتها قادمة، كأنما هي قادمة من عالم آخر لا يحاسب المرء على الكلمات والنظرات، مجتمع فيه حرية سلوك ولا يخضع للعادات والتقاليد التي تحد من اللقاء المشترك بين الرجل والمرأة رأيتها كما خلقها الله تقودني إلى مكان ما، ورأيتني أسير وراءها، نسير معاً متحررين من القيود والضوابط والمحرم والمحلل، وفجأة صحوت. وحين صحوت قلت غاضباً: لماذا صحوت؟

ومثل قيس بن الخطيم، وجدتني أقول كلاماً، كلاماً مشابهاً لما قاله في الطيف، وكررت معه:

أَنَّى سريت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريـــــب

ما تمنعـــــي يقظي فقد تؤتينه في النوم غير مصرد محسوب

ولم أكمل البيت الثالث، البيت الذي يقول:

كان المنى بلقائها فلقيتها ولهوت من لهو امريء مكذوب

ومع أنها رأتني فحلاً، إلا أن اللقاء لم يكتمل لألهو ولأعبث. ولم ألهُ، ولهذا اكتفيت بالبيتين الأولين أكررهما. وتذكرتها تلك المرأة التي سربت ذات نهار، فهي لم تكن تسري وحسب، كانت تسرب، وكما في الحلم زارتني، زارتني في النهار.

في المنام رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت. وقلت: على الرغم من كل ما يجري فثمة أشياء في هذا العالم جميلة، حتى في الأحلام. ولم أذهب إلى النوم ثانية. عدت إلى نشرات الأخبار، أتابع ما يجري. كانت المدينة، في الصور التي بثها التلفاز، خالية مهجورة إلا من دبابات وجنود. وصرخت: لماذا صحوت؟

صباح ٢٠٠٤/١/٥

الأشياء تأتي متأخرة

" كان ذلك مختلفاً
صباي كان وقتئذ
في ريعانه
وأنتِ " (سافو، شاعرة قديمة).

سيراها تأتيه في الليل. سيراها ترتدي جلباباً أسودَ طويلا، سيراها تضع على رأسها شالاً يميل إلى البياض.سيراها تدخل إلى شقته تجلس معه.

من قبلُ، رآها أيضاً.رآها أفعى سوداء اللون، أفعى نحيلة. ورأى، هناك، في منزلها، رأى أفعى سوداء أخرى، أفعى معمرة، ممتلئة، رآها في سقف بيت منزلها الذي لم يكن من خشب، رآها في سقف بيتها وقد بدا مصنوعاً من الخشب. [يتذكر في الصحو، يتذكر ما قصه عليه أحد تلامذته حين كان يدرس في الريف. يتذكر كلام تلميذه: أنام في الكوخ، وفي الكوخ أفعى تقبع في السقف. ويسأل تلميذه: ألا تخاف؟ ويجيبه: لا أخاف].

يتذكر آخر مرة رآها، قبل أن يراها في المنام. ولا يذكر التاريخ. ربما كان ذلك قبل عام. ربما أقل قليلاً، ربما أكثر كثيراً. ويتذكر لقاءات عابرة تتم دونما اتفاق مسبق على موعد. ربما يكون الحديث عابراً. ربما يكون حديثاً عن الصحة أو عن مكان العمل. ربما يسألان عن العائلة، وقد تصدر عنهما عبارات تعبر عن ضجر ما من هذه الحياة، ضجر من الحياة في مدن صغيرة أشبه بالقرى، مدن محتلة، مدن محافظة، مدن تشيع أخبار سكانها وتتداول كتداول العملة بين أيدي البشر حين يبيعون ويشترون. قد تبدي سلوكاً ما، قد تعبر خفية عن إعجاب ما، عن رغبة في تواصل ما.

يتذكر أنه لا يفصح عن مشاعره. أنه لم يعد يرغب في مواصلة علاقة ما. ربما يشتهي امرأة، ربما يحتاج إلى امرأة، ربما يريد الخروج من عزلة فرضها على نفسه منذ زمن.

ويفترقان.

يفترقان زمناً طويلاً. لا هو يراها ولا هي تراه، ولا يسأل عن أخبارها إنْ تحدث الآخرون عنها في حضوره. ملاعين هؤلاء يذكرون أخبارها أمامه حتى يلاحظوا ردّ فعله. حتى يعرفوا إن كان يفكر فيها. يفعلون هذا ليبدوا رأيه في موقفه منها. هل حقاً يفكر فيها؟ أم أنه لا يسأل عنها؟ يريدون أيضاً أن يتأكدوا مما تشيعه من أنه يجري وراءها. [يتكرر هذا السلوك أيضاً من كثيرين، من آخرين يعتقدون أنه يفكر في علاقة ما مع فتاة تخصهم].

يغدو أسير وظيفته. يغدو بطل رواية لا يبحث عن امرأة ما قدر ما يبحث عن درجة أخرى في سلم الوظيفة. يقول أحياناً ربما أغدو مثل بطل رواية نجيب محفوظ " حضرة المحترم ". ربما أجد نفسي على أبواب الستين وقد حصلت على الدرجات كلها، وسأنظر إلى نفسي في المرآة لأجد شعري أبيض أشيب، ولأرى تجاعيد الوجه وفعل الزمان ". هل سيفكر رجل في الستين في امرأة؟ يسأل نفسه.

وتغدو أسيرة وظيفتها. امرأة عاملة أنهت دراستها. تذهب مبكراً إلى العمل. تذهب بسيارتها التي اشترتها بالتقسيط المريح. وتسدد ثمن السيارة. تسدد الأقساط قسطاً قسطاً. تصحو مبكراً، وتعود في وقت متأخر، وتنتظر راتبها الشهري. امرأة عاملة، لها عالمها المستقل. امرأة مثل أي رجل. امرأة تملك حريتها، وما عادت تقبل أن تكون حذاءً في رِجْلِ رَجُلٍ. ولماذا لا يكون هو أيضاً حذاءً في رجلها. ولّى ذلك الزمان الذي كان الناس يكررون فيه المثل: المرأة مثل الكندرة، ويخاطبون فيه الرجل الذي لا تطيعه زوجته: اشلح كندرة والبس كندرة، حتى تريحك الكندرة. فالمرأة يمكن أيضاً أن تشلح كندرة وأن تلبس كندرة، حتى تعثر على كندرة تريح رِجْلها، تريح قدمها.

والمدينة تكبر. المدينة التي كانت محتلة غَدَتْ نصف محتلة. خرج الجنود من شوارعها، وحل محلهم رجال الشرطة العرب. تحررت المدينة جزئياً. وتوفرت فيها فرص عمل. البنوك افتتحت أفرعاً جديدة لها، أو أعادت افتتاح الفروع التي أغلقت عام ١٩٦٧. والشركات تنتشر في وسط المدينة وفي أحيائها الشرقية والغربية. المكاتب تكثر، والمكاتب تحتاج إلى سكرتيرات، ويفضل أن يكن جميلات أنيقات. [يتذكر شابة عرفها. يتذكر لقاءه معها على دوار المدينة. كان عرفها من قبل، كانت تحدثه عن المدينة وما يجري فيها، شابة من المدينة تعرف خباياها وما يجري فيها، ولها لسان ثرثار، شابة، مثل نساء كثيرات في المدينة، يسعدهن الحديث عن الفضائح، ويسعدهن أكثر أن يعرفن الأسرار. وربما يكن هن لا يختلفن في سلوكهن عمن يتحدثن عنهن. يتذكر شابة ويتذكر أيضاً أنها .... ولا ضرورة. تحدثه الشابة عن الشابات. تذكر له اسماً واسما آخر. تتحدث عن رواتب مغرية وتغمز. تتحدث عن تقديم الكاس وما أدراك. يتذكر شابة عرفها قصّت عليه عن الزمن الجديد. عن المكاتب والأجور وما بعد ذلك].

وثمة أيام تمر. ثمة قلب يشيب. وثمة زيادة وثمة نقصان. يمارس أيامه دون بهجة ما. يصحو مبكراً. في الصيف تطربه زقازيق العصافير على الشجرة القريبة. وفي الصيف، في الصباح يتنفس هواء الحياة. يذهب إلى وظيفته ويمارس حياته. قد يصغي إلى نشرة أخبار. قد يقرأ جريدة ما. قد يتابع مسلسلاً ما. وفي الشتاء ليس سوى ليل طويل. ليس سوى منزل ينفق

فيه الساعات الطويلات. وحين يلتقيان تحدثه عن عملها وتسديد أقساط سيارتها. عن الأشهر التي تمر والأقساط التي تقل وراتب الشهر الذي ازداد، عن قسيمة الراتب. تذكر له أرقاماً تبدو له لا تتناسب ومؤهلاتها. أرقاماً تتناسب ومؤهلات أعلى، ولا يعقب. ربما الشركة تربح وتربح. ربما القطاع الخاص يكسب أكثر مما ينبغي، ولهذا يدفع ويدفع. ويلتفت إلى شباب يذوي. إلى نضارة كانت. نضارة تتلاشى. ربما لم تفكر بهذا. ربما تفكر بتسديد الأقساط.

وستأتي الانتفاضة. هل كان أي منهما يتوقع مجيئها. تحاصر الضفة أولاً، وتجتاح المدن، فيما بعد، وتحاصر، وتغدو كل مدينة دولة مستقلة، ولا بد من اجتياز الحدود، عندما يسافر المرء من مدينة إلى أخرى.

سترى راتبها يتضاءل رويداً رويداً. سترى أن عليها أن تسدد الأقساط في موعدها الشهري. وستلاحظ أن الشركة ما عادت تدفع راتبها شهرياً. تغدو الشركة تعدّ أيام الحضور وأيام الغياب. وتدفع أيام العمل. وستجد نفسها أمام عمل غير مجدٍ، فهي ربما تداوم يوماً في الأسبوع. ربما تداوم يومين، وستجد نفسها أسيرة المنزل من جديد، وما زالت هناك أقساط كثيرة عليها أن تسددها والبنوك تتعامل مع الأرقام.

هل التفتت، وهي تجلس في المنزل، والأيام تدبر بعد أن أقبلت، هل التفتت إلى شبابها؟ هل أخذت تمعن في النظر في المرآة؟ وهل رأت آثار الزمن على ملامح جسدها؟

ويلتقيان.

ثمة كلام ما. ثمة نظرات ما. ويختلف الكلام عما كان. يبدو كلاماً مغايراً. ثمة حديث عن رحيل عن البلاد. تنظر إليه وينظر إليها ولا كلام. لا يقول كلاماً ما يعبر عن رغبة في تواصل ما. يفهم الأشياء، يقرأ أحياناً معنى الصمت، ويتظاهر بأنه لا يفهم، ولا يحس ولا يشعر. كأنه بليد الإحساس. كأنه ليس رجلاً. كأنه من طين آخر جُبِلَ ؟! [يتكرر هذا مع غيرها من الفتيات اللاتي عرفهن. منهن من حدث معها ما حدث معها. منهن من كانت تشعر بالكبر، من كانت تشعر بالوحدة. منهن من كان لا يلتقي معهن. من كن يحاورنه من خلال أخريات. ثمة رغبة في تواصل ما معه].

يتذكر أنه كان على الاستعداد لأن يقيم علاقة ما مع واحدة منهن. يتذكر أنّ ثمة حواراً مباشراً أو غير مباشر جرى بينه وبينهن. يتذكر المثل الشعبي: خطبوها تعززت. وثمة عروض كثيرة. عروض مغرية. عدّة مقابل عدّة. ولا يأبه لأي من العروض، ولأي منهن. هل انقلب المثل السابق؟ خطبوه تعزز. لكأنه سادي. لكأنه يتلذذ بتعذيبهن.

[حين قرأ مجموعة محمود شقير القصصية " مرور خاطف " توقف أمام القصة التالية

مطولاً:

فرص:

بنات الحي كلهن تقريباً رفضنه، لأنه أطول مما ينبغي، وأكثر نحافة مما ينبغي.

انزوى في بيته البائس خمس سنوات.

ظل خلالها يقرأ التعاويذ والأدعية، ويمارس طقوساً استقاها من كتب وجدها في مكتبة جده الذي مات.

خرج إلى الحي كائناً جديداً.

وبنات الحي كلهن تقريباً رفضنه، لأنـــه أقصـــر مـــما ينبغي، وأكثر بدانة مما ينبغي.

انزوى في بيته هذه المرة عشر سنوات.

خرج إلى الحي كائناً مختلفاً.

يذكر محياه الوسيم بأبطال الحكايات، وتوحي عضلات صدره وذراعيه، وانسجام قده من رأسه حتى قدميه، بأنه واحد من نجوم السينما المشهورين هذه الأيام.

بنات الحي كلهن تقريباً تهافتن عليه، كل واحدة منهن تتمناه في السر وفي العلن زوجاً أو عشيقاً، فلم يرقن له، لأنه وجدهن عوانس مترهلات.

انطلق في أرجاء الدنيا وحيداً، يبحث عن امرأة على هواه. وبنات الحي ما زلن جالسات على قارعة الطريق، في انتظار فارس أحلامهن الذي غاب].

في المنام يراها. يراها تأتيه. ترتدي جلباباً أسود. يراها نحيفة، تضع على رأسها شالا أبيض اللون، وتأتيه تأتيه كما أتته ذات نهار في اليقظة. أتته ترتدي جلباباً اسود طويلاً، ولم تكن ترتدي شيئاً آخر. لم تضع شالاً على رأسها. كان شعرها أسودَ طويلاً. قال لها: اجلسي. قالت له: إنني على عجل. طلبت ما طلبت منه إنجازه، ولم تشرب قهوتها. [يتذكر أنه كان في بلاد غريبة. يتذكر أنه كان يدعو فتيات لزيارته، ليشربن القهوة، يتذكر أنهن كن يشربنها ويمكثن طويلاً. ويطلبن أن ينفقن الليل كله معه. ويتذكر أيضاً أن من كن مرسلات له كن يرفضن شرب العصير أو القهوة. كنّ ربما يخفن ...].

والآن، في المنام يراها. [وأحياناً يراهن واحدة واحدة]. يراها تأتيه ليلاً، ويتذكر، حين يراها، يتذكر أجمل ما قالته العرب في موضوع الطيف، يتذكر بيتي قيس بن الخطيم:

أني سريت، وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريـــــب

ما تمنعي يقظـــــي ، فقد تؤتينه في النوم، غير مصرد محسوب

ولكنها، ليست مثل تلك التي جاءته في المنام فقط، ولكنها أتته أيضاً في النهار، وكما سَرَبَتْ سَرَتْ، كما جاءت نهاراً جاءت ليلاً، سوداء نحيفة.

وهو الآن غير الذي كان.

ثمة كهولة ما، وثمة شباب ولّى.

ثمة شعر أشيب يزداد تساقطه كل صباح، وثمة قلب ما عاد يخفق للأنثى، كما كان يخفق من قبلُ.

سَيُقِرُّ بأنه ليس سادياً. وسيردد عبارة واحدة:

الأشياء، كما أشتهيها، تأتي متأخرة.

الأشياء تأتي متأخرة. هذا كل ما في الأمر.

الجمعة ٢٠٠٤/١/١٦

"قليل من الحزن ... كثير من الود "

واصلت ذلك الصباح عادتي اليومية في فترة إجازة الصيف. ذهبت إلى مكان بيع القهوة، ونقدْت البائعة ثمن الفنجان وأخذت أحتسي القهوة ببطء مصغياً إلى حديث الزبائن السريع سرعة تناول القهوة في مكان ليس فيه كرسي واحد، مكان يتناول فيه الزبائن مشروباتهم واقفين داخل المكان أو خارجه، ليوفروا، لذلك، ماركاً ونصف المارك تُدفع زيادة عندما يشربون قهوتهم، في أحد المقاهي، جالسين.

وانصرفت لأتسكع في شوارع مدينة (بامبرغ) قتلاً للوقت وتمتيعاً للعين وتزويداً للذاكرة بهذا الذي نفتقده في بلادنا: منظر النهر ومقاهي الشوارع وواجهات المحلات الأنيقة والوجوه الجميلة، وجوه النساء ووجوه الأطفال الجميلين الأنيقين أناقة ما كنت أعرفها، ذات يوم، في الحلم. توقفت أمام الإشارة الضوئية منتظراً أن تعطيني الإشارة حتى أقطع الشارع نحو ضفة النهر، ولم أكن التفت خلفي لولا ملامسة يد، بقصد، كتفي. كانت يد طالبة جامعية نحيفة ذات شعر قصير ناعم، ونظارات. وبادرتني بالسؤال: أما زلت تذكرني أم نسيت؟ وحين أجبتها أنني ما زلت أذكرها، وما زلت أيضاً أذكر مدينة (أوجسبرغ) والرحلة الجامعية، قالت لي: إنك تتمتع بذاكرة جيدة. ابتسمت لها وقلت مداعباً: كل هذا بفضل جمالك.

وسرنا، بعد أن سألتني إن كان لدي متسع من الوقت، باتجاه مقهى الطلبة القريب. جلسنا هناك، وكان الهدوء بادياً، فلم يكن إلا بعض طلبة ممن لم يغادروا المدينة إلى أماكن أخرى، مؤثرين، على ما يبدو، إنجاز ما عليهم إنجازه من أبحاث أو رسائل تخرج.

سألتني عما أفعله في الإجازة وأخبرتني عن أحوالها. ثمَ أخذنا نتحدث عن الطقس. سألتها إن كانت، مثلي، لا تحب الخريف، فلم تُبدِ جواباً. ولكنها استفسرت مني عن سبب موقفي العدائي من هذا الفصل. قلت لها: في الخريف أشعر بالملل، وقد تصيبني حالة من الاكتئاب. وأضفت بعد لحظة صمت: وأفضل فصل الشتاء على الخريف.

نظرتُ إلى الساعة فسألتني إن كنت على موعد ما.

أجبتها: إنها عادة أخذت تلازمني، فالوقت، في الإجازة، كثير، ولا أعرف كيف أقتله. وبعد قليل وقت جاءت الفتاة التي تعمل في المقهى فنقدتها ثمن مشروبينا. شكرتني الطالبة وأعطتني رقم هاتفها، وقالت لي: بإمكانك أن تتصل بي متى تشاء. وافترقنا، بعد أن أبلغتها أنني سأسافر، شتاء هذا العام، إلى بون.

بعد أسبوع استبد بي، مساءً، الضجر، فتذكرتها. بحثت عن رقم هاتفها، وخرجت إلى الشارع، ورفعت يد الهاتف العمومي، ولما أجابت سألتها إنْ كانت ترغب، في هذه اللحظات، في الخروج إلى مكان ما أو في زيارتي، فأجابتني أنها ستكون في منزل الطلبة الذي أقيم فيه

بعد نصف ساعة.

صنعت القهوة ودخنْت سيجارة وأخذت انتظرها. فلم تكد المدة المحددة تنتهي حتى قرع الجرس. فتحت لها الباب فدخلت. سألتها إن كانت لديها الرغبة في شرب القهوة في هذا الوقت الذي يقترب من الثامنة مساء، فاعتذرت وفضلت أن تشرب عصير البرتقال. احترمت رغبتها، فقد كنت ألاحظ أن عدداً بين الطلبة لا يشربون القهوة بعد الرابعة عصراً حتى لا يؤرقوا ليلاً.

ونحن نتحادث سألتها: لماذا لا تقيمين في منزل الطلبة؟ فأخبرتني أنها حاولت ولكنها لم تحصل على غرفة، وهذا اضطرها إلى الإقامة في شقة غير مريحة، شقة تبدو غرفتها فيها شبه ممر، وهذا يحول دون تمتعها بحريتها وتصرفها كما تهوى. وأخبرتني أنها ترغب، قريباً، في الانتقال إلى غرفة مستقلة، وأنها ستدعوني، في حينه، إلى زيارتها، وليس الوقت ببعيد، فهي ستستلم الغرفة قريباً، وستنتهي من تأثيثها في فترة قصيرة جداً.

صمت للحظة ثم سألتها إن كان لها صديق، وبخاصة أنه مرّ عام على قدومها إلى المدينة. أجابتني أن صديقها يقيم في مدينة (بايرويت) القريبة، وأنها ستسافر إليه في نهاية الأسبوع، فقد دعاها وأصدقاء آخرين للاحتفال معاً.

ولم أسألها عن رأيها في العلاقة التي تقوم بين طرفين يقيمان في مكانين مختلفين، ولكنها أخبرتني أنها شخصياً لا ترغب في مواصلة العلاقة معه. ولم يكن يخطر ببالي أن المرأة إذا ما فكرت في إقامة علاقة فمعنى ذلك أن علاقتها السابقة قد انتهت أو أوشكت.

نظرت إلى وجهها ذي الملامح الناعمة الدقيقة وتلاقت أيدينا معاً. ترددت، ابتداء، قليلاً، وقالت: ولكننا لم نتعارف، بعد، جيداً. احترمت مشاعرها ورأيها، وسألتها: ما رأيك في أن نخرج معاً إلى البار القريب، إلى بار الطلبة، فرحبت بذلك وخرجنا.

عندما اقتربنا من بار الطلبة دعوتها لكي تدخل أولاً، فاقترحت أن نواصل السير باتجاه بار آخر يتردد عليه طلبة كلية الاقتصاد والتجارة، ولم أمانع، فأنا أرغب في معرفة الكثير عن هذا العالم. دخلنا إلى البار الصاخب وشربنا البيرة ثم قدمتني إلى معارفها، وأنفقنا معاً ساعتين ثم غادرنا المكان باتجاه منزل الطلبة.

في الطريق تلاقت أيدينا من جديد. كانت يدها حارة دافئة. تحدثنا بفرح وبدت مسرورة جداً. سألتني أولاً عن رأيي في ألمانيا، وسألتني أيضاً عن الطلبة وعن الدراسة هنا، وكنت أجيبها دونما مجاملة. قبل أن نصل إلى المبنى بقليل سألتني عن عمري. فأجبتها دون كذب. قلت لها إنني في الخامسة والثلاثين. لحظتها سحبت يدها من يدي، وقالت بعد لحظة: كنت أظنك في السابعة والعشرين. وكانت هي في العشرين من عمرها.

حين اقتربنا من باب منزل الطلبة سألتها إن كانت لديها رغبة في الدخول. نظرت إلى

الساعة وقالت لي: إن الوقت متأخر الآن. ولم تفصح عن مشاعرها التي تشكلت لديها بعد أن عرفت أن هناك فارقاً في السن كبيراً. واستقلت عجلتها فيما كنت أدير المفتاح في أكرة الباب، ودخلت إلى المبنى الذي كان يخيم عليه صمت يوحي لك بأنك وحيد في الخلاء. للحظات انتابتني حالة من الحزن والضجر، وشعرت بأنني وحيد. أشعلت التلفاز وأخذت أفتش عن برنامج ينقذني من حالة الحزن، وبعد ذلك أطفأته وغططت في نوم عميق.

فيما بعد، حين كنا نلتقي معاً في مطعم الجامعة، كانت تأتي وتقف إلى جانبي وتسألني إن كنتُ على وشك الانتهاء من الدراسة، وتسألني عما أفعله وعما سأفعله بعد الحصول على الشهادة.مثلها مثل صديقتها التي انجذبت في رحلة (أوجسبرغ) نحوي، وسألتني إن كنت سأقيم في ألمانيا بعد الدراسة. وكنت أحادثها بود، وكنا أحياناً، بعد أن نفرغ من تناول طعام الغداء، نذهب معاً نشرب القهوة، لنفترق، من ثم، من جديد: هي باتجاه عجلتها وأنا باتجاه منزل الطلبة.

مـــلاحـــــظـــــــــــة: أنجزت هذه القصة في ١٩٩٥/٣/٢٦ ونشرت في جريدة الاتحاد (حيفا) في ٢٠٠١/١/٣٠، ويعود زمنها القصصي إلى خريف ١٩٩٠.

ملاحظة ثانية: ليس من الضروري أن يتطابق فيها أنا المؤلف وأنا السارد / الشخصية.

أبو حيان يحرق كتبه ثانية

في الحافلة التي تقله من شرق المدينة جاءته الفكرة. نظر إلى يمينه فوجد المقبرة الشرقية على ما هي عليه. قبور فوق قبور، فيم الأحياء على يساره يتسابقون لامتلاك هذه الفانية التي هي ليست سوى دنية، ولكنها تدفعهم إلى تكرار قول عمر: أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً.

وكلهم يعملون لدنياهم كأنهم سيعيشون إلى الأبد وينسون أنهم قد يموتون غداً.

في الحافلة أخذ أبو حيان يتصفح رسالته التي كتبها إلى صاحبه الذي لامه لأنه أقدم على إحراق كتبه، وكانت شواهد القبور أصابع تشير إليه أن لا خلود إلا لله عز وجل. وشعر بالارتياح، فها هو قبل ألف عام قد كتب " كأنك لم تقرأ قوله جل وعز " كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون".

وفي الحافلة تذكر أبو حيان ما قاله له أحد السجناء ممن أنفقوا سنوات من عمرهم في سجون الاحتلال، وتحولوا إلى تجار كتب، لأن النضال ومقاومة الفساد لا تجر على صاحبها سوى المتاعب: " لا تكتب، حتى تعيش بقية عمرك بهدوء". " وها أنا أعمل بنصيحة من أصبح في ظل السلطة وزيراً"، و" أنت خذ بنصيحته التي أخذت بها فتغيرت أحوالي ليزول دماري وليزداد عقاري.

وفي الحافلة أيضاً بدا يقارن بين البدايات والنهايات، وضحك في سره وهو يقول: " هل كنا حقاً صادقين أم أننا كنا نكذب على ذواتنا؟ " وازداد ضحكاً وهو يرى الدورية الإسرائيلية تسير، جنباً إلى جنب، مع الدورية الفلسطينية، ولم يفطن إلى أن المحطة هذه هي المحطة الأخيرة، وأن عليه أن يهبط من الحافلة التي ارتفع صوت سائقها قائلاً: المحطة الأخيرة يا أستاذ! وسار أبو حيان في شوارع نابلس يذرعها، فيما طارت الفكرة من رأسه وهو يرى بعض الناس يبيعون الصحف.

من جديد عاودته الفكرة. كان أبو حيان يجلس في منزله وحيداً، ولما استبد به الضجر أشعل التلفاز وأخذ يتابع المسلسل المصري " سامحوني ما كنش قصدي"، وشجعه على ذلك أن مخرجه هو الذي أخرج مسلسل ليالي الحلمية، وأن أبطاله هم أبطال ذلك المسلسل. هكذا ذكره الدكتور مرزوق أبو الحسن، حين أقدم على إحراق كتبه، بما كان هو أقدم عليه منذ ألف عام. وقارن بين السلوكين ودوافع صاحب كل منهما، بين دوافعه ودوافع مرزوق، وعاد إلى رسالته التي كتبها ليقراها من جديد.

" ثم أعلم – علمك الخير– أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلانيته، فأما ما كان علانية فلم اصب من يحرس عليه طالباً ".

وتوقف أبو حيان أمام ما كتبه وتساءل: الهذا أحرقت كتبي؟ وهمس:"كل ممنوع مرغوب " وتابع " وكل شاذ لافت للنظر" وكرر التساؤل: الهذا أحرقت كتبي؟الكي تصبح أكثر انتشاراً؟

وتابع أبو حيان قراءة رسالته:

" على إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله ". وفكر أبو حيان ملياً، وهمس في سره: طلب المثالة وعقد الرياسة ومدّ الجاه، كم أنا بائس؟ الهذا الفت هذه الكتب؟ كأني لم اعتبر من تجارب من سبقني! كأني لم أقل في بداية الرسالة (كل شيء، هالك إلاّ وجهه)، كأني لم أدرك ما خطته يدي.

" وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا... ما دام مقلباً بين الليل والنهار". كأني لم أعتبر مما حدث للرؤساء والملوك، بل وللدول العظيمة التي ما عادت عظيمة. عقد الرياسة ومدّ الجاه!! كم أنا بائس حقاً!".

وخاطب أبو حيان مرزوق أبو الحسن: " لم تعش كما عشت وها قد حققت ما لم احقق، ومع ذلك فقد أقدمت، مثلي، على إحراق كتبك. ألأنك غدوت خاتماً في إصبع جلنار؟ الأنك أصبحت مسيراً مثل الماكينة؟ " وتذكر أبو حيان ما خطه في الليلة الأولى من كتاب " الإمتاع والمؤانسة " وتساءل إن كان مرزوق أصغى لجلنار وخضع لها حتى تستمر لياليه ولا تتوقف عند الليلة الأربعين، وهو ما حدث، فلقد استمر شهر العسل أكثر من ثلاثين يوماً. ودهش أبو حيان وهو يشاهد مرزوقاً يحرق كتبه. ومن جديد عادت إليه الفكرة التي راودته وهو في الحافلة: أن يقدم على إحراق كتبه من جديد. وعاد إلى الرسالة التي كتبها وأخذ يقرأها ثانية.

" ومما شحذ عزمي على ذلك أني فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً وتابعاً أديباً ورئيساً مثيباً، فشق علي أن ادعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها...".

وتوقف أبو حيان أمام عباراته وأعاد النظر فيها، فقد رزقه الله، وهو شيخ في التسعين، بطفلتين نجيبتين" وكأنه زكريا الذي وهبه الله يحيى، ولم يفتقد أصدقاءه الذين تحولوا إلى أعداء، ولكنهم ظلوا يكنون له الاحترام لأنهم رأوا فيه عدواً عاقلاً، ولأنهم يؤمنون بالمثل القائل: " عدو عاقل خير من صديق جاهل"، وكم هم الأصدقاء الذين يجهلون وأن عملوا فلا فائدة من عملهم. وكان أبو حيان يكن لهؤلاء من الاحترام ما لم يكنه لغيرهم، وأن كان يختلف معهم. وأما الرئيس المنيب فلم يطمح إلى لقائه إلاّ إذا أراد أن يدافع عن حقه، ولم يتزلف له أو يتقرب منه، وحين التقى به خاطبه بأسلوبه الذي دوّنه في الليلة الأولى من الإمتاع والمؤانسة، وفيه يقدر أبو حيان نفسه حق قدرها.

وكان أبو حيان يدرك أن ما كتبه تُلوعِبَ فيه، وجلب له من تدنيس العرض ما لا يذكر، وأما الشماتة بسهوه وغلطه ففاق كل وصف، وألصقت به أخطاء الطابعة التي لم يكن هو مسؤولاً عنها.

وضحك أبو حيان، وهو يقرأ ما كتب: " كم أنا بائس " خاطب نفسه وقال: أما كان ينبغي أن أدرك هذا وأنا في أول الطريق؟ ومَن مِن الكتاب مَنْ لم يعان مثل هذه الأشياء؟ وقال: كان علي ألاّ أقدم لهذه الأسباب على إحراق كتبي. كان علي أن أدرك، منذ البدء، أن كل شيء هالك إلاّ وجهه، وكان عليّ، أيضاً أن أدرك أن العلم لا يحرصُ عليه إلاّ لمكسب أو منفعة، وكان عليّ أيضاً أن أفيد من تجارب الأنبياء والمرسلين والفلاسفة هؤلاء الذين فقد بعضهم الولد النجيب، وخسر بعضهم الصديق الحبيب والزوجة، وسلم تلامذة بعضهم بعضهم.

ولكن أبا حيان، بدأ يفكر، من جديد، بإحراق كتبه وكرر " كل شيء هالك إلا وجهه "، وعاودته الفكرة من جديد، ولا يدري لماذا تأتيه الفكرة، غالباً، وهو في حافلة الركاب التي تقله من شرق المدينة إلى وسطها فغربها، ويجيب من يسأله عن السبب في عدم حصوله على رخصة سياقة وامتلاكه سيارة: معنى ذلك أنني لن أكتب، وأنني سأزداد عزلة. وكرر أبو حيان الآية دون أن يتأكد من صحتها (يخلق الحي من الميت ويخلق الميت من الحي) وها هي فكرة إحراق الكتب تأتي أيضاً في الحافلة، تماماً كما جاءتني فكرة أحد كتبي الذي حفل بأحاديث ركاب الحافلة، وما أظن أنني كنت سأنجزه لو كانت لدي رخصة وسيارة.

في الحافلة، بدأ أبو حيان يفكر في التكنولوجيا الحديثة، وسخر من نفسه كيف غدا، وهو الذي أنفق سنوات يقرأ كتاب الله وتاريخ العرب ونصوص الشعراء القدامى والجاحظ، كيف غدا أمياً. وحين زار بون في صيف ١٩٩٦م خربش خربشاته: من لا يُجِدْ استخدام الكمبيوتر فهو أُمي! ولا أدري لماذا أنا كسول في استخدام التكنولوجيا، ولكنه في الحافلة أيضاً ذمّ هذه، وبسببها جاءته فكرة إحراق كتبه، وأدرك أن هذه قتلته مرتين؛ مَرِة لأنه لا يعرف كيف يتعامل معها، ومرة لأنها ولدّت لديه من جديد فكرة العبث. وكرَر: (كل شيء هالك إلاّ وجهه ".

وأخذ يتساءل أن كان سميح القاسم ما زال يكرر الهي.. الهي لماذا قتلتني؟ وهو يقرأ، هذه الأيام، مقولات نقدية مثل مقولة " موت المؤلف " ولا يدري أبو حيان لماذا لم يلتفت سميح إلى مقولة (نيتشه) ومقولة (الن روب جرييه)؟ وخوفاً من أن يتهم أبو حيان بالزندقة كتم في سره مقولة الأول للحظات، ولما لم يستطع ألاّ قولها، قرأ في كتاب نقدي هذه المقولات.

بعد أن جاهر نيتشه بفكرة موت الله، نادى (ألن روب جرييه) بفكرة موت الشخصية في الرواية، وها هو (رولان بارت) ينادي بفكرة موت المؤلف. لماذا إذن يخلد اسمي. ولماذا لم يفطن هؤلاء من قبل إلى الآية (كل شيء هالك إلاّ وجهه). " كل شيء هالك، كل

شيء هالك!" كرر أبو حيان. ولم يلتفت هذه المرة إلى المقبرة الشرقية في مدينة نابلس – لم يلتفت إلى القبور وشواهدها ليقول: حتى شواهد القبور تشير إلى السماء، وتحمل أسماء أصحابها. وليتساءل: ولكن ما جدوى الأسماء، هذه التي سوف تمّحي بعد حين ليحتل اسم آخر مكان اسمها.

وفكر أبو حيان فيم سيكتبه إلى صاحبه، لو طلب منه هذا أن يوضح له السبب الذي حدا به إلى إحراق كتبه ثانية، وشرع أبو حيان في التفكير بكتابة رسالة جديدة. ولكنه، أثناء ذلك، فكر في أمر الأصدقاء واثر أن يراجع قراءة كتابه " الصداقة والصديق " ثم تراجع عن المراجعة هذه، وراجع عوضاً عنها صفحة ماضيه وأصدقاءه الذين خطوا في كتاب أيامه بعض مآسيهم، وسرعان ما عزف عن ذلك، فكل شيء هالك إلاّ وجهه – أي وجه الله – وتخيل صديقاً وهمياً أخذ يكتب له، وقرر أن يضع الرسالة، بعد أن يفرغ من إنجازها، تحت رأسه، وهو ما فعله ابن زريق، فيما بعد، عملاً بوصية أبي حيان. كتب أبو حيان:

" وأعلم – علمك الخير – أن هذا الكتب حوت من أصناف الكتابة بعض ما جال في خاطري، لأن بعض ما خطر لي ما استطعت أن أقوله لأحد، ولربما تسرب جزء منه، وأنا نائم فإذا ما زرع منزلي بالآلات الجهنمية، بدا ما يدور في لا وعيي لأجهزة المخابرات معروفاً، فهذه، كما قال عنها مظفر النواب تفقس بين الإنسان وثوب النوم وزوجته، هذا إذا كانت الزوجة ليست من جهاز المخابرات.

وأعلم– أيدك الله – أن أكثر ما ورد فيها أساء إليّ إساءة كبرى، حتى من اؤلئك الكتاب الذين يستمتعون بقراءة السير الذاتية التي تكون على شاكلة سيرة الكاتب المغربي محمد شكري، هؤلاء، حين اختلفت معهم، جعلوا من شجاعتي غباءً، ومن اعترافاتي ضعفاً، ومن عشقي سقوطاً، ومن تحرري قلة أدب.

وأعلم – زاد الله علمك – أنهم أخذوا يسقطون ما في نفوسهم عليّ، حتى يبرؤوا أنفسهم، وأنني غَدَوْتُ أجمع في ذاتي الشيء وضده، مثل الوطنية والخيانة، والانتماء واللاانتماء، والسخرية والجد، والكرم والبخل، والعجز والفحولة... الخ... الخ.

ولو توقف الأمر عند هذا لهان الأمر وسهل. فهم غدوا ينشرون مقالاتي في أماكن بعيدة، حتى ظن الناس أن أبا حيان النابلسي غير أبي حيان النابلسي الذي يظهر اسمه في الصحف العربية، الصادرة في عمان وعجمان، وفي دمشق ولندن، وفي القاهرة وفاس. وبدأ الناس لذلك، يرسلون لي شخصاً يحمل اسم شخص كبير يقيم في المنفى، وطبقت شهرته الآفاق، ليقولوا لي أنك مثل هذا، لا مثل ذاك، وأن أحمد دحبور الكاتب ليس أحمد دحبور الطبيب، وشتان ما بين أحمد وأحمد وما بين أبي حيان وأبي حيان، ما بين الكسول الخامل والفذ غير الجاهل، وما أحمد غزة بكسول ولا هو بخامل، أنه فذ غير جاهل.

وأعلم – حفظك الله – أنني فكرت في هذا الكم الهائل من العلوم، في زمن الكمبيوتر والإنترنت، فأدركت أن (رولان بارت) لم يقتل المؤلف عبثاً، فليس المهم القائل، لأن الأهم المقول، وليس المهم الفرد، لأن الأهم الجموع، علماً أن حكامنا – أمد الله في عمرهم _ لا يدركون هذا، فما زالوا يرون أن الفرد فوق الأمة، حتى لو جلب حكمه لها أطناناً من التخلف والغمة.

وفوق هذا وذاك، ما الذي سيبقى من ركام كتابتي هذه في ظل هذا الركام من الكتابة والكلام؛ مقالة واحدة، لا تسمن ولا تغني من جوع، قد يسيء قراءتها مؤلف جربوع، فيسيء فهمها ولا يُحسنُ نطقها، حتى إذا ما نسبها خطأ لشاعر وصححته وأظهرت له أنها لأبي حيان، وأبو حيان هذا نابلسي، وليس جزائرياً، قال أن الدكتور محمود السمرة، لا يعرف الويسكي من الخمرة، فلا تفضحني، لأن القصيدة التي نشرت في الجزائر، تجعل من أهل فلسطين حرائر ".

في الحافلة قرّر أبو حيان أن يحرق كتبه من جديد. وكانت نابلس هادئة. وكان المطر الذي انقطع لفترة طويلة في بداية شتاء العام ١٩٩٩/٢٠٠٠ أخذ يتساقط وكان أبو حيان يسير في سوق الخضار يفكر في أمر كتبه، في زمن الإنترنت والكمبيوتر والعولمة، ويدرك أن لا جدوى من الكتابة، بينما أخذ يفكر في مقالته القادمة.

ملاحظة: نشرت هذه القصة في جريدة الأيام (رام الله) بتاريخ ٢٠٠/٢/٢٢.

صديقة عازف الموسيقى

كل ما يستطيع أنْ يقوله، الآن، بعد ست سنوات من عدم رؤيتها، عنها، إنها امرأة لا تَفْلِتُ من الذاكرة. ولا يدري حقاً لماذا تُلحُّ على ذاكرته بين فترة وأخرى. تارة يراها كلما رأى فتاة تشبهها، وطوراً يتذكر قصتها كلما شاهد فتاة صغيرة لا تعرف أباها. وحين يبصر تلك التي تشبهها يود أن يسألها عنها، ولكنه سرعان ما يتراجع فاسم التي تشبهها يذكره بفتاة تعرف إليها، ولم ير فيها سوى مخبرة. ولا يدري، وهو الذي لا يلتفت إلى تفاهات مثل هذه، لماذا يقع فريسة تلك التفاهة.

والآن يتذكر لقاءه الأول العابر، ويتذكر، الآن أيضاً، اللقاءات العديدة التي تمت فيما بعد اللقاء الأول ويتذكر أيضاً اللقاء الذي لم يكن، كما اعتقد، ودياً. طلب منها النقود التي استلفتها منه لتدفع ثمن وجبة غداء، ولم يبتسم لها كما كانت العادة، وإن ابتسمت هي له، ووعدته أن تعيد له (الفنجات) القليلة التي تبقت.

كان ذلك في شتاء عام ٨٨و١٩٨٩، صباح سبت يوحي الجو فيه بأن ثمة أمطاراً غزيرة سوف تسقط، وكان عائداً وزوجته وطفلتاه من سوق المدينة، وقد تسوقا ليوم أحد ينفقانه في منزل الطلبة الذي تقيم هي أيضاً في إحدى بناياته الثلاث، يوم أحد يبدو مملاً ويبعث على السأم والضجر، وبخاصة حين يكون الجو على ما كان عليه، إذ يعني ذلك حرمانه من التمشي على جانب النهر والتحدث إلى الناس الذين سرعان ما كانوا يحدثون الأطفال ويعطونهم الحلوى. وكان يرى العجوز وهي تفعل ذلك دون أن يوحي لطفلتيه بالامتناع عن أخذها، فلم يكن يصغي إلى تلك الإشاعات التي تحذر الآباء من بعض العواجيز اللاتي يكرهن الأطفال. جلس وزوجته على مقعد قرب مكان خصص للعب الأطفال، في جزء من ساحة الورود التي أقيم أيضاً على طرفها مقهى صغير تقدم فيه وجبة الكافيار الروسية، وفي جانب أكبر حمام (الساونا)، وأخذ يثرثر مع زوجته التي شعرت ببرودة الجو وأخذت ترقب السماء ظانة أن تساقط الثلوج قاب قوسين أو أدنى. وكان يراقب الصغيرتين وهما تتحاوران، إشاريا، مع طفلة تركتها أمها تلهو، وجلست تراقبها عن قرب، علّها تعوض للصغيرة ما فاتها خلال الأسبوع، حيث تقضي الطفلة الوقت كله في صحبة جدَّيها، بعيداً عن أمها الطالبة وأبيها الذي بذر بذرته في أمها وغادر عائداً إلى إيطاليا غير سائل عن طِفْلةٍ لا ذنب لها، هذا ما عرفه من الأم، فيما بعد.

ولم يكترث للرذاذ الذي بدأ يتساقط خفيفاً، فالمنزل ليس عن المكان ببعيد، ولم يُصْغِ إلى زوجته التي أخذت تحثه على ضرورة المغادرة حتى لا تتبلل الثياب، وأخذت، **لذلك**، تُنادي على الصغيرتين اللتين استاءتا من إلحاح الأم مفضلتين البقاء خارج جدران المنزل، واللهو مع الصغيرة التي تعرفتا إليها للتو، وأخذ ينظر إلى أم الصغيرة التي رأت في لعب

الصغار معاً أمراً مفرحاً جداً، وبخاصة أن الصغيرة وحيدة أمها. لقد رأت الأم في الصغيرتين بديلاً لتعلق طفلتها بها، إذ كفت ابنتها عن مناداتها والطلب منها أن تجلس أمامها، على الجانب المقابل للوح الخشب الطويل المثبت وسطه بقائمة من حديد في أعلاها زنبرك يمكن مَنْ يجلس على طرف من الهبوط أرضاً، ولا يرفعه إلى أعلى سوى شخص أخر يجلس على الجانب المقابل.

وانصرف الأربعة تاركين الأم وطفلتها التي أخذت تتابع الصغيرتين وتصدر في الوقت نفسه أصواتاً غير مفهومة، لكنها بدت وكأنها تطلب منهما العودة لمواصلة اللعب، ولما ازداد صراخها قامت الأم من مكانها وأخذت تلاعب الصغيرة.

بعد أيام التقى بوالدة الطفلة، كانت ترتدي بنطال جلد اسود اللون وسترة جلدية سوداء اللون أيضاً، وأخذ يراها، فيما بعد، في اللباس نفسه غالباً. وكان إلى جانبها شاب نحيف جداً.

خَمَّن في البداية أنه والد الطفلة، ولكنه لم يره معها يوم يرى الطفلة معها، ولم تكن قصَّتْ عليه القصة التي روتها له يوم التقيا في غرفة الغسيل الواقعة في طابق العمارة التي تقيم هي فيها. ومنذ ذلك اليوم أخذا، كلما التقيا، يتبادلان الابتسامات. ويوم رأتها زوجته مع صديقها الشاب عقبت: يظن الذي يبصرهما معاً أنها لا تترك له شيئاً يأكله، ويبدو أنها تلتهم كل شيء. كانت بضة سمينة ممتلئة القوام، ذات وجه صبيح، وكان نحيفاً شاحباً هزيلاً ذا وجه يشبه مثلثاً متساوي الأضلاع، ويظهر، في أيام البرد، حين يرتدي معطفاً بدا عليه فضفاضاً، كأنه عمود وسط خيمة.

في غرفة الغسيل أجابته، عندما سألها إن كان الشاب الذي يسير معها زوجها، وإن كان أيضاً والد الطفلة، أجابته أنه صديقها وأن والد الصغيرة شاب إيطالي تعرفت إليه، من قبل، وكانت أحبته وأثمرت العلاقة التي لم تستمر طويلاً تلك الشقية التي لم تعرف، عن أبيها الذي غادر، شيئاً، وأخذت ترى في جدها لأمها أباها.

ولم يستبد به الفضول ليسألها في تلك اللحظة إن كانت تشعر بقرف من الرجال كلهم، أو أنْ كانت تنتابها حالة من الندم لما أقدمت عليه، فقد كانت تحدثه بهدوء ملحوظ، كما كانت متماسكة إلى حد بعيد. وعرف منها أن الشاب الذي يسير معها صديقها ليس إلا. وعرف أيضاً أنه يحب الموسيقى كثيراً، ويعزف على آلة موسيقية. وقد تحقق شخصياً من هذا، فقد رآه، ذات نهار ماطر، يقف على جسر مبنى البلدية القديم القائم على النهر، وأصغى إلى عزفه الموسيقي فيما كان يضع قبعته على الأرض حتى يلقي إليه المستمعون بعض النقود.

ويبدو أنها أخذت ترتاح وهي تتحدث معه، فكلما التقيا تجاذبا أطراف الحديث، ولم تكن لتسأله من أي البلاد قدم. كان يقص عليها شيئاً عن أسباب وجوده في المدينة، وكانت بدورها

تحدثه عن دراستها. ولّما لم تعد تراه مع زوجته وطفلتيه سألته عنهم. أخبرها أنهم غادروا، وأعلمها أنه سيظل وحيداً حتى ينهي دراسته ليعود بعد ذلك إلى بلاده. وسألها، حين أخذ يراها في أغلب الأوقات وحيدة، إنْ كانت افترقت عن صديقها. ولم تمانع في توضيح السبب. أخبرته أن ابنتها تقيم معها، منذ فترة، في أكثر الأيام، وأنها لهذا لا ترغب في إزعاجها ومضايقتها، وأن صديقها يقدر هذا، ولهذا لم يعد يأتي لزيارتها كما كان يفعل من قبل.

ذات صباح أحدٍ، وكان الفصل ربيعاً، ارتدى بنطالاً جديداً أزرق اللون ومعطفاً كحلي اللون، ولم يغفل للمرة الأولى، ربطة العنق، وسار في شارع يؤدي إلى أعلى المدينة لقد أراد أن يزور شاباً مغربياً تعرف إليه في مقاهي الرصيف منذ سنتين، وكان هذا متزوجاً من امرأة ألمانية تعمل ممرضة تعرف أيضاً إليها من خلال زوجها، وكانت ودودة جداً. في منتصف الطريق حادثته تلك المرأة التي كانت تقود دراجتها، وأبدت إعجابها بملابسه وسألته عن سرّ أناقته هذا الأحد، وأخبرته أنها تأتي صباح كل أحد لتشتري حليباً طازجاً من المكان الذي التقيا فيه.

ولا يدري، يومها، في ذلك الصباح الربيعي، كيف تسرب الدفء إلى قلبيهما، وحين عبّر لها عن إعجابه بجمالها وصفاء بشرتها، لم تمانع في أن يقبلها قبلة عابرة. وسألته، حين أخبرها أنه ذاهب لزيارة صديق مغربي متزوج من امرأة ألمانية، إنْ كانا مسرورين معاً. ولم يجبها معززاً أو نافياً، فقد كانت ثمة سيارة قادمة أفسحا لها المجال، وقد كانا في وسط الشارع، وسار كل في اتجاه، ومن الجهة المقابلة أخبرته أنها سوف تطرق باب منزل بائع الحليب.

ذات مساء، كان في منزل الطلبة، وكانت قد غادرته لتقيم مع والديها، أبصرها تقترب من طاولة التنس التي كان قريباً منها، وكان قد هزم للتو من شاب إنكليزي، وسارت باتجاهه. سألته إن كان يملك فكة خمسة ماركات، فهي تريد مهاتفة صديقها، وذهب إلى غرفته ليبحث لها إن كان يملك نقوداً صغيرة، وسارت معه. في الغرفة سألها إن كانت حقاً ترغب في مهاتفة صديقها،واستفسر منها إن كانت جاءت لتزوره. ولما عرف أنها جادة أعطاها ثلاثين فنجاً وأعاد لها الماركات الخمس، وسارا معاً، من جديد، باتجاه الهاتف. عاد ليواصل لعب كرة الطاولة، وأخذت تهاتف صديقها بعد أن شكرته على كرمه.

وكانا، يوم يلتقيان، يتبادلان التحية، وقد يتبادلان حديثاً عابراً، كأن يسألها عن طفلتها أو عن صديقها أو كأن تسأله عن دراسته وعائلته. وجاءته ذات ظهيرة، وكان في مطعم طلبة الجامعة، لتطلب منه خمسة ماركات ثمن وجبة طعام. نقدها المبلغ فوراً ولم يتردد، ولم يكترث لكلامها وتأكيدها على أنها ستعيد إليه المبلغ وأنها إنما تقترض المبلغ لأنها نسيت نقودها في المنزل. وكان عرف منها أنّ والدها مدرس، ويقيم في المدينة نفسها، وأن بإمكانه أن ينفق عليها.

وأخذت حالته في تلك الأثناء تسوء رويداً رويداً. كان على وشك إنهاء دراسته، وقد أنهك كثيراً. وكانت حرب الخليج قد أقامت الدنيا ولم تقعدها. بدأت الانتفاضة في وطنه تدخل عامها الرابع. أخذت علاقته بمن حوله تبرد. وكانت أخباره العائلية تنتشر. ويوم جاءته، من جديد، دون أنْ تعيد المبلغ الذي اقترضته، لتطلب منه خمسة ماركات أخرى تردد في إعطائها، واعتذر بحدوه هاجس أن في الأمر لعبة ما. وكلما التقى بها، بعد أيام، طلب منها المبلغ السابق فإعادته ناقصاً.

وها هو، الآن، بعد ست سنوات يراها ترتدي سترتها الجلدية السوداء وبنطال الجينز الأسود، وها هو يرى قصة شعرها المائل إلى السواد، ويرى وجهها حنطي اللون الضارب إلى الصفرة يراها تارة مع صديقها عازف الموسيقى، وطوراً مع طفلتها التي لا تعرف أباها، ويرى أيضاً ابتسامتها الودودة الهادئة الناعمة، يراها تواصل حياتها غير مكترثة للشاب الإيطالي غير المسؤول، ويراها أيضاً تسير واثقة من خطاها، ويتحسس فيها طيبتها التي ما زالت تبعث فيه ذكراها. ويتساءل الآن، بعد ست سنوات، لماذا تلح تلك المرأة التي حاولوا تشويهها وإشراكها في لعبة مملة على ذاكرته؟ ولماذا يبصرها كلما أبصر تلك التي لم يعد يرغب في رؤيتها؟ وكل ما يستطيع أن يقوله، الآن عنها أنها لا تفلت من الذاكرة بسهولة.

ملاحظة: نشرت هذه القصة في الأيام (رام الله) بتاريخ ١٩٩٧/٨/٧، ويعود زمنها القصصي إلى بدايات ١٩٨٨.

البصاص

حدث ذلك فجأة

كان ذلك ظهيرة يوم جمعة، ولم يكن يتوقع ما جرى، جاء الشرطي وطلب منه أن يرافقه إلى مخفر الشرطة القريب، وبعد دقائق وجد نفسه في الزنزانة وحيداً، وفيها أنفق سبع ساعات بلا طائل، هذا ما اعتقده، فلم يفعل شيئاً سوى أنه كان وصديقه الذي غادر قبل لحظات يقفان في غرفته ويطلان، من نافذتها التي تشرف على ساحة بيت الجيران، على مخيم الحسين. وحين حاول أن يعرف سبباً لذلك اتهمه الشرطي دون أن يصغي إلى وجهة نظره، بأنه يتلصص على بيته ويغازل ابنته.

وفي الزنزانة أخذ يقرأ ما كتب على جدرانها غير مكترث كثيراً لامتحان الغد الذي كان يعد له، فهو يحفظ المادة، وإن كان بحاجة إلى مراجعتها ذلك المساء حتى تثبت في ذهنه جيداً، وقال مخاطباً ذاته: سوف أطلب من الأستاذ، إن استمر وضعي على ما هو عليه حتى الصباح، تأجيل الامتحان، ولما أنهى قراءة الكتابات كلها جلس على أرض الزنزانة يبحلق في الفراغ.

" هكذا إذن، أن تقبع في هذا المكان لأنك كنت تنظر من شباك غرفتك، وكأنك قلت لابنة الشرطي أن تقف لتنظر أيضاً إلى شباك غرفتك التي أقمت فيها حديثاً. وماذا لو ظلت تنظر إليك طيلة النهار؟ هل ستذهب إلى مركز الشرطة لتشتكي عليها بحجة أنها تنظر إلى شباك غرفتك، وتلك المرأة، سيدة المنزل التي تطل شرفتها على سطح البناية التي تقيم فيها، ألا تظل طيلة النهار جالسة على شرفة منزلها منتظرة زوجها حتى يعود من عمله. فَهَلْ يحق أن تتهمها بأنها تغازلك.

وضحك كثيراً حين قصّ عليه صديقه الذي يقيم في الغرفة. قصته، وصديقه المسيحي مع أهل البناية. في البداية غبط صديقه، على غرفته لأنه أخذ يقارنها بالغرف التي أقام فيها من قبل، وبتلك التي يقيم فيها الآن في وادي الحدادة. فقد بدت له الغرفة ممتازة جداً، فهي واسعة من ناحية وتقع في جبل الحسين من ناحية أخرى، وكان جبل الحسين، في بداية السبعينيات يعتبر حياً راقياً، من أحياء مدينة عمان التي كانت مدينة صغيرة، واستغرب، يوم دخل بيت جورج حبش الذي كان يقع أيضاً في جبل الحسين ذاته، أن يكون الحكيم شيوعياً وبرجوازياً في الوقت ذاته، ولم يكن يدرك أن من حق الشيوعي أن يحيا حياة حرة كريمة وأن يتمتع بقدر لا بأس به من الرفاهية، وأخذ وهو في بيت الحكيم، يهمس: " وها أنا الكادح ارتع بعض ساعات في بيتك، وأتعرف على عادات البرجوازية الفلسطينية الصاعدة، التي حلت مكانك" . وفيما بعد أخذ يصغي إلى شاب فلسطيني من اتباع الحكيم – وكان تعرف إليه عن

طريق فتاة أراد الشاب أن يتزوجها ورفض أهلها لأنه ذو توجه سياسي – وهو يلعن البرجوازية الفلسطينية التي تلومه الآن لسلوكه (لقد كنا في أيلول، نقاتل دفاعاً عن الثورة، وكان البرجوازيون يبحثون عن بيوت القادة ليشتروها. هكذا يكافأ الثوريون).

وضحك كثيراً وهو يصغي إلى صديقه، وعقب على كلامه: " هذا غير معقول، هذه قصة لم أسمع بمثلها من قبل "، ولم يسمع، على الرغم من تجاربه في المخيم ومشاهدته لمعظم المشاكل التي عانى منها أهله، بقصة تشبه هذه، وربما يكون السبب في ذلك عائداً إلى أن المخيم الذي أقام فيه، لم يكن حتى نهاية السبعينيات، يتكون من بيوت ذات طوابق عديدة، وإنما كان لكل عائلة بيتها الأرضي الذي يفتقد درجاً يصعد المرء عليه ليصل إلى سقف البيت، ويتمكن لذلك من كشف بيت الجيران، ولم يكن أيضا يعرف حياة المدينة جيداً، على الرغم من أنه دخل بيوتاً في نابلس القديمة يكشف سكانها بعضهم البعض بطريقة لافتة، ولكنهم لا يكترثون لهذا، لأنهم من أبناء عائلة واحدة. ولعله لم يصغ إلى أحاديث تتمحور حول خلافات سببها البصبصة. لقد سمع وهو في المخيم، حكايات وحكايات وكان شاهداً على مشاكل كثيرة حدثت بين الجيران. شاهد مثلاً الشباب البالغين وهم يقفون أيام الخميس مساء قرب شباك حمام هذه الدار أو تلك، ليشاهدوا، من خلال الثقوب التي كانت تبرز بين ألواح الخشب الثلاثة التي يتشكل منها الشباك، جسد هذه الفتاة أو تلك، وليستمتعوا بذلك أيما استمتاع، حتى إذا ما كانوا وحدهم في منطقة حرجية خالية من السكان تذكروا المنظر ليجلب لهم اللذة، وسمع من أقرانه مثلاً أن جارهم الذي تزوج حديثاً كان يضاجع زوجته قرب المساء في ساحة منزله،وأنهم شاهدوه مراراً من تحت عتبة الباب، وطلبوا منه، حتى يصدقهم، أن يأتي ليرى هذا بأم عينه، وأصغى إلى الناس يتحدثون عن مشاكل كثيرة، مثل مغازلة شاب لفتاة، أو مضايقة رجل في أيام توزيع المؤن لامرأة تقف أمامه لاستلام حصتها، وشاهد هذا شخصياً يوم كان في الجامعة، فقد لاحظ صديقاً له يفعل ذلك، ولم يصمت هذا الزميل فقد قص عليه أكثر من هذا. وعاش شخصياً ما كان يحدث في أيام الصيف مساء: فجأة كان الجيران يخرجون من بيوتهم ليستفسروا عن من قذف الحجارة على بيتهم، وفجأة تبدأ المعارك بينهم، فيما ينظر الذين ضربوا الحجارة إلى المتقاتلين مستمتعين بالصراخ والشتائم ومد الأيدي واستدعاء الشرطة وتجمع أهل المخيم كله في مكان المشكلة، وما زال يتندر بقصة المرأة التي رأت شخصاً يضاجع حمارتها، فذهبت لأهله تطلب نصف رطل شعير مقابل ذلك.

" هذا غير معقول، هذا الذي تقصه لم أسمع به من قبل،أنه شيء جديد " قال لصديقه الذي أضاف: " أنهم يريدون أن يرحّلوا صديقي المسيحي ". وتابع صديقه بعد لحظة: " وأنا لا أستطيع أن أدفع ثمن أجرة البيت وحدي " وسأله: " فما رأيك في أن تأتي وتقيم معي؟ ".

لقد أعجبته الغرفة كثيراً، فالغرفة التي يقيم فيها كانت معبراً لا أكثر ولا أقل، ثمة

بابان لها، أولهما في جهة الغرفة الغربية، وثانيهما في جهتها الشرقية، وهي تطل على واد لا يبعث الراحة في قلب الناظر إليه. فأمامها بيوت جرداء لا شجر حولها ولا تنظيم لها، ولولا الساحة الواسعة التي كان فيها ينفق ساعات يقرأ لشعر أنه مدفون في الحياة، وقد دهش يوم أقام فيها، لا لسوئها وإنما لأَنَّ صاحبها الأردني فضل أن يؤجرها بمبلغ عشرة دنانير، على أن يقيم شخصياً فيها، مكتفياً بالإقامة مع عائلته في البناء الأرضي، صاحبها هذا الذي لم يره إلا مرة واحدة، وذلك حين جاء في منتصف الليل شاهراً مسدسه لاعناً الطلبة وأباء آبائهم، هؤلاء الذين لم يتركوه ينام، وذلك بسبب احتفالهم الذي طال حتى ساعة متأخرة.

وقال لصاحبه: " أنت محظوظ لأنك وجدت هذه الغرفة، وأخذ يقص عليه عن الغرف التي أقام فيها في السنتين المنصرمتين اللتين أنفقهما هنا وهو يدرس في الجامعة الأردنية: " كانت الغرفة الأولى التي أقمت فيها في منطقة الجبيهة الباردة في الشتاء جداً، ولما شعرت بالوحدة وبعد المنطقة عن المدينة، فكرت بالرحيل إلى صويلح، وهناك رأيت دكان حلاقة قرر صاحبها تحويلها إلى غرفة ليؤجرها للطلبة، ولكنني لم أتفق مع صاحبها على الرغم من إن أصدقائي الذين حثوني على استئجارها ظلوا يسخرون من حياة الطلبة والغرف التي يستأجرونها، فعدت إلى المخيم قائلاً: من المخيم ابتدأنا وإلى المخيم نعود، وهناك أقمت في غرفتين لمدة عام، ولم يكن مخيم الحسين، كما تراه، بأفضل من مخيمنا، ولما انتهى العام الدراسي الأول تركتهما لتؤجرهما صاحبتهما العجوز التي تقتات من وراء أجرتهما، وفي العام الثاني أقمت في جبل النزهة مع صديق من المخيم ذاته، وبقينا في الغرفة التي لا حمام لها عدة أشهر حتى وجدنا شقة في جبل الحسين، بالقرب من المخيم، وسرعان ما غادرتها، لأمور خاصة، لأقيم في وادي الحدادة، في الغرفة التي رأيتها، هكذا هي غرف الطلبة، ولا مساكن في الجامعة لهم، والسبب في ذلك، كما اسمع، أن الحكومة، بعد أيلول، تخشى من تجمعات الطلبة، ولهذا أوجدت الجامعة سكناً للطالبات فقط" .

ولم يتردد في القبول على الرغم مما سمعه من صديقه، حمل أغراضه القليلة، ووضعها في السيارة، وأقام في غرفة واسعة على سطح بناية تتكون من طابقين: أرضي وأول، وشعر صديقه بارتياح كبير، قال له: الآن ربما تنتهي المشاكل على الرغم من قناعتي بأنها كانت مفتعلة، وأن الاتهامات التي وجهت له لم تكن صحيحة، وكان أصحاب البناية يقيمون في الطابق الأول، فيما كان بعض الطلبة، وكان واحد منهم يدرس في قسم علم الاجتماع، يقيمون في الطابق الأرضي، وتعرف إلى سكان الطابق الأول: امرأة سجانة وابنتاها وزوجة ابنها التي قدمت من مصر، ولم يكن في البيت سوى طفل صغير، وعرف، فيما بعد، أن إحدى بنات المرأة تدرس الطب في الجامعة، فيما كانت الأخرى التي طلقها زوجها ربة بيت.

وظل، وهو في الزنزانة يحملق في الفراغ، هبط الليل، ولم يستطع النوم، وفي الحادية عشرة مساء جاءه صديقه الذي عاد لتوه من اربد وعرف القصة من صاحبة البيت، وتوسط لدى الشرطة علهم يطلقون سراحه بكفالة. وغادر الزنزانة على أن يعود في اليوم التالي لاستلام هويته، فيما أنفق الليل كله يفكر فيما جرى، ولم يكن قادراً على استيعاب أي سطر، كانت عيونه وهي تمر على صفحات الكتاب لا ترى سوى الزنزانة والشرطي وابنته.

وقال لصديقه: " كنت أعتقد أنها مؤامرة من السجانة لولا أنها تدخلت معك في الأمر لإطلاق سراحي " وقص عليه الحكاية كما حدثت، وتابع حديثه : " ويبدو أن ما قلته لي عما حدث مع صديقك كان مجرد كذبة، أنهم يريدون الغرفة " وأصر صديقه على نفي ذلك، ذاهباً إلى أن الشرطي الذي يغازل النساء بعيداً عن بيته يخاف على أهل بيته، وأنه سمع من السجانة أنه متشدد جداً، على الرغم من أن ابنته لا تمانع في أن يغازلها شاب ما.

وكانت المرأة المطلقة تصعد بين الحين والحين إلى سطح البناية، وتنظر إليهما نظرات حقودة، فلم تكن، خلافاً لأختها الطالبة، تبادلهما وداً بود.وتعاطفت زوجة أخيها معها، على الرغم من أن هذه المرأة المصرية التي كان زوجها في الخليج، لم تكن تستطيع الخروج عن طبيعتها، فكانت تبادلهما، أحياناً، عبارات لا تخلو من مجاملة.

ولم يختلف الأمر حين غادر الشاب المسيحي. اختفت المشكلة التي حدثه عنها صديقه لفترة، ولكنها عادت لتبرز من جديد، أخبرت المطلقة أمها بأن ملابسها الداخلية سرعان ما تختفي بعد أن تنشرها على السطح. ويوم قالت هذا، وكان صديقه في اربد، قال للأم ولابنتها: يمكن أن تربطا حبلاً بين طرفي النافذة وتعلقا الملابس هذه عليه وتنتهي القصة، ولم يكن يشك في صديقه، الذي أخبره عن علاقته الغرامية بفتاة من المخيم أهداها، ذات نهار، بعض الملابس الداخلية، وأصر على رؤيتها وهي ترتديها، وأصرت المطلقة على نشر ملابسها على السطح قائلة: من لا يعجبه الأمر فليرحل.

وكان طالب علم الاجتماع القادم من الخليل يلح على المرأة صاحبة البيت بتأجيره الغرفة، تارة بحجة أنه يريد أن يتفرغ لدراسته، وبخاصة أن سنته هذه هي السنة الأخيرة، وطورا بحجة أن أهله سيأتــون لزيارته حتى يحتفلوا أيضاً، في نهاية العام، بمناسبة تخرجه.

وحين اقترح على صديقه البحث عن غرفة أخرى، لأنه كان غير قادر على استيعاب ما يجري، أصر صديقه على رفض ذلك قائلاً: نبقى حتى نهاية العام الدراسي ثم نغادر في منتصف حزيران، فما تزعمه ابنتها ليس أكثر من حكاية اخترعتها حتى يخلو لها الجو.

في اليوم التالي، بعد أن عاد من الجامعة توجه إلى مركز الشرطة في جبل الحسين لاستعادة هوية الجامعة التي تخصه، قال له الشرطي: طالب جامعي وتفعل هذا، ورأى أن شرح الأمور كما جرت ضرب من العبث، ولم يفلسف الأمور كثيراً، فلم يقل ما كان يفكر فيه:

إذا كان الشرطي يخاف على بناته، فعليه أن يتركهن في غرفتهن، وليس من حق أحد أن يمنع الأخر النظر من نوافذ البيوت التي أقيم فيها، وآثر الصمت لأن غريمه، هذه المرة، هو الشرطي، وليس عبثاً أن قال الناس: إذا كان القاضي غريمك فلا تشتك إلا لله.

أكتب، قال له الشرطي، وأضاف: " أنا الموقع أدناه أتعهد بألا أبصبص من الشبابيك مرة أخرى "، وكاد ينفجر ضحكاً لولا أنه خاف من لكمة تأتيه فجأة، اعتذر في البداية عن الكتابة لأنه لا يريد أن يكتب ما يدينه، فما كان من الشرطي إلا أنه نادى على زميله قائلاً: خذه إلى الزنزانة، فغمزه الشرطي وهمس في أذنه: أكتب، وسوف تمزق الورقة بعد مغادرتك.

وسار باتجاه الغرفة، غير مكترث إلى لافتة البقالة التي تعرف، من قبل، على صاحبها. ولم تكن اللد التي كان يقرأ اسمها ليتذكر وطنه سوى رمز فارغ من محتواه، ولم يفكر كثيراً في زيارة أقربائه الذين أقاموا في بيت جورج حبش. واخذ يصعد الدرج وهو يفكر في أمر المطلقة وطالب علم الاجتماع والشرطي والسجانة التي أخذت، فيما بعد، تمنع عنه وعن صديقه المياه بحجة أنها لا تصل أيضاً إليها، ولم ير من بعد، من نافذة غرفته التي ظلت مغلقة حتى منتصف حزيران، مخيم الحسين.

ملاحظة: كتبت في ١٩٩٦/١٢/١٧ ونشرت في جريدة البلاد (القدس) بتاريخ ١٩٩٧/٦/١٨.

وجهة نظر المتلمس في مصرع طرفة بن العبد

تضايق كثير من الناس مما قاله المتلمس عن طرفة. رأى كثير منهم أن الواجب يتطلب منهم أن يتدخلوا لمنع المتلمس من إبداء آرائه. " الجميع سيموت "، " لا تدري نفس بأي أرض تموت "، كانوا يقولون هذا ليدافعوا عن سلوك طرفة. وأصر آخرون على مجابهة المتلمس حتى لو أدّى ذلك إلى العراك، والتزم بعض الناس الصمت، ربما لأنهم اقتنعوا بوجهة نظر المتلمس، أو ربما لأنه شاخ مبكراً فأخذ يهذي. وكاد الحديث الذي تواصل، حول مقتل طرفة، أن يؤدي إلى خلافات حادة الناس في غنى عنها في هذا الوقت، ولهذا فقد رأى عقلاء القوم أن مصرع طرفة خاص به، وإن كانت حالته ليست حالة فردية، فكثيرون هم الذين يهاجرون، وللمشكلة أبعاد أخرى يجب أن ينظر فيها، وما طرفة إلا ضحية من الضحايا التي تزداد كل يوم، والموت في الغربة مأساة.

-٢-

كان المتلمس يروي قصة طرفة على النحو التالي:

كنا نسير معاً، وكان تأثيرنا كبيراً لدرجة أن عمرو بن هند لم يحتمل وجودنا. ولقد أثاره طرفة. حاول عمرو أن ينفيه، لكنه لجأ إلى طريقة ذكية، فالنفي سيثير نقمة الناس، وربما يؤدي إلى المجابهة. وفكر في أن يقتله، ولكن قتله في حدود مملكته سيحرك قبيلة طرفة، وربما تقتل هذه شخصاً يفوق في مركزه مركز القتيل الأول. وفكر عمرو أن يسجن طرفة، وتراجع لأن القبيلة أيضاً قد تتمرد وقد لا تهدأ الأحوال. وهنا استغل عمرو ذكاءه: لا النفي ولا السجن ولا القتل داخل حدود المملكة، ولما اقترح على مساعديه إبداء رأيهم، قال بعضهم: طرفة دون عمل، ولا بد أنه سيهاجر، فلنضيق عليه سبل العيش، وقال آخرون لن يهاجر طرفة، سيستف ترب الأرض، وليس لك إلا أن تغريه من خلال كبار تجار البلد. يتظاهر هؤلاء بعطفهم عليه، ولكنهم في الحقيقة يريدون أن يتخلصوا منه. إنهم يخشون لسانه، الذي سرعان ما يمتد ليهجوهم إنّ جاع.

وحين التقى عمرو بن هند بالتجار، أعلمهم بهجاء طرفة له، وخاطبهم قائلاً: إن لم تفعلوا شيئاً لإبعاده فسيعود ويهجو الجميع، إنه عاق لم يعد يؤمن بالحَسَبِ والنسب والجاه. ما يهمه الرغيف، الرغيف فقط. لعلنا إنْ أطعمناه اكتشف أننا نخشاه، وربما يزداد وقاحة، ولا حل إلا أن يهاجر، لا بد من إبعاده إلى البحرين. هناك أصدقاؤنا وسيتدبر هؤلاء أمره. أخبروه أننا سنعينه في منصب مهم، وسنعطيه ما يريد من مال وأشياء أخرى.

لما جاع طرفة أخذ يبحث عن رزقه. تمكن في البداية من توفير لقمة عيشه، لكن ارتفاع الأسعار سرعان ما جعله يحتاج إلى المزيد من المال حتى يُصرّف بقية أيام شهره. بدأ طرفة يشكو. أسمع الكثيرين عن ضائقته التي يمر بها. اقترح عليه بعض أصدقائه أن يغادر، فيم حثه آخرون على ضرورة البحث عن عمل إضافي، له ولغيره ممن يهمه أمرهم، فالمشكلة ليست خاصة به، وثمة كثيرون يعانون مما منه طرفة يعاني.

تردد طرفة في البداية، وتساءل: هل أغادر؟ هل أظل هنا؟ وفكر في أن يعرض الأمر على المتلمس فهذا مجرب خبر الأمور والدنيا جيداً.

" أيها المتلمس " قال طرفة " لقد اقترح علي أحد التجار أن أغادر إلى البحرين فثمة عمل هناك، وفرص العمل مغرية.. السكن والنقود والخادمة وأشياء أخرى لا تحصى.

وحين أعود، بعد خمس سنوات سأمكثها هناك، سأفتح متجراً وأبني مسكناً وأتزوج المرأة التي تروق لي. لقد أعجبتني ابنة التاجر، ولقد لاحظتها اليوم وهي تقدم لنا بعض الشراب. ابتسمت لي فابتسمت لها، ولما رآني والدها التزم الصمت، والسكوت علامة الرضا.

" لقد قال لي التاجر ما اقوله لك يا طرفة، ولكنني تساءلت عن سبب هذا الاهتمام الزائد. هناك أمور لا أستطيع الإجابة عنها. أعطاني ظرفاً مغلقاً كالذي أعطاك إياه، ولكنني قررت، بعد طول تفكير، البقاء هنا. وحين تخيلت ما سأكون عليه هناك بصقت على نفسي: النقود النقود، سوف أصبح رقماً يتحدث عن أرقام. سأبدأ أعد سنواتي الباقية، ولسوف أحتقر لأنني سأصبح أجنبياً، على الرغم من أن الناس هناك يتكلمون لغتي. وفوق هذا ما الذي سيفعله الناس الذين يظلون هنا، ممن لا يستطيعون المغادرة إلى هناك، سوف يموتون جوعاً، ولذا يجب أن نبقى هنا يا طرفة، ويجب أن نعمل معاً وأن نفكر معهم في خلاص لنا ولهم.

واستمر المتلمس في محاولاته لإقناع طرفة بالبقاء وبعدم الرحيل، غير أن طرفة سافر. " وعرفت فيما بعد أن التاجر اتهمني أمامه بالخرف والكهولة المبكرة، وأنني أعيش كما يعيش أجدادي ممن يكتفون بكأس الحليب ورغيف الخبز، ويؤثرون الجلوس على الأرض، وأن التاجر خاطبه: أتريد يا طرفة أن تحيا كما يحيا المتلمس؟ أتريد أن تقيم في خيمة واحدة مع أهلك؟ هناك النقود التي من خلالها تنال احترام الناس، النقود التي تستطيع بها أن تتزوج ممن تريد، وأمّا إن بقيت هنا فقيراً فلن ترضى بك إلاّ الفقيرة مثلك، وحتى هذه قد تفضل عليك واحداً ممن يعودون من تلك البلاد، فالناس، كما تقول، يريدون لبناتهم أن يرفلن بأثواب السعادة والهنا، وكما يقولون من يملك درهماً يواز درهماً.

قبل أن يصل جثمان طرفة إلى المكان الذي نشأ فيه، كان المكان هائجاً ومائجاً، وكانت حركة الناس مثل حركة الناس يوم الحشر، دخول وخروج وذهاب وإياب وتساؤلات كثيرة يثيرها الصغار والكبار والنساء، أصوات ترتفع وأخرى تنخفض، ومجموعات من البشر لا حصر لها، حتى أن أحداً من أهل المكان لم يمكث خارجه: " شاب مثل عود الخيزران... يا للخسارة، ومن لم يبك طرفة بكى والده الذي مزق الرسالة التي جاءه فيها نعي ابنه.

لقد بكى والده حتى ابيضّت عيناه من الحزن، ولم يجرؤ أحد على أن يسأله إن كانت الورقة توضح سبب الموت.

وقال أحد الموجودين، وكان حلف بالطلاق ألاّ يعود إلى البحرين حتى لو هلك هنا جوعاً، لأنه ذاق من الغربة ما ذاق، قال:

هناك يموت الإنسان من الحر، هناك لا يستطيع المرء أن يسير، في النهار، خمس دقائق. ومن ضربته الشمس مات على الفور. الجو هناك خانق، ولربما مات طرفة لشدة حرارة الجو. هناك النار ". وقال آخر:

" ربما مات طرفة فجأة. ربما توقف قلبه لأنه لم يستطع احتمال الأوضاع السيئة التي يعاني منها المغتربون.

ربما قالوا له: أجنبي ما الذي جاء بك إلى هنا، هل نبذتك القبيلة، وبعت ما لديك من أشجار النخيل. لقد قال لي الملاعين هذا ".

" يتحول الإنسان هناك إلى عابد أرقام، كل ما يهمه مقدار المال الذي يملك. هناك تنتهي العلاقات الإنسانية، وهناك يطردك من يملك البيت متى أراد. يطالبك بالمزيد من الأموال، وإن لم تدفع تجد نفسك بلا منزل. وهناك يحللون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم. لو بقيت هناك لانفجر قلبي. ربما انفجر قلب طرفة المسكين.

كان المتلمس يصغي إلى هذا الكلام كله، ولم يستطع تمالك أعصابه، وانفجر صارخاً:

" يا ناس، لم ينفجر قلب طرفة، ولم يمت من شدة الحرارة، فنحن في مكان يعاني أيضاً من ارتفاع درجتها، هنا أيضاً نار موقدة. يا ناس، كان طرفة هنا أيضاً يرى الفساد، ولم يمت غيظاً لهذا. لقد كان يحتمل هذه الأمور كلها. كان يدرك أن الصبر مهم جداً، وكان غالباً ما يكرر: لم يحن الوقت بعد! "

وصمت المتلمس... حدق فيه الحضور وكلهم آذان صاغية... كان هؤلاء يريدون أن يصغوا إلى وجهة نظره، وحتى الذين أرادوا مواجهته يوم قال: " طرفة من أراد هذا ولا داعي

للحزن " أصغوا إليه وصمتوا وهو يتكلم.. ولما صمت وطال صمته قالوا له: قل ! هات ما عندك! وحين أجابهم: " ما نفع الكلام، ستقولون إنني أخرف وأهذي بما لا أدري، وإنما أتشفى بطرفة لأنه عصى أمري "، قالوا: نحن لم نتهمك، لقد أردنا مواجهتك لأنك لم تكترث لموته. لقد تصرفت أمام والده تصرفاً شاذاً. كأنه ليس من أبناء القبيلة، كأنك عدوه.

" لقد قتل طرفة نفسه.. أراد المال والذهب... أراد الزواج من تلك التي ابتسمت له... تخيل أن التاجر يحبه.. أراد كل شيء، لنفسه ولم يسأل عنكم... صحيح أنهم غرروا به ولكنهم نجحوا في قتله. كان لسانه سليطاً، فأرادوا التخلص منه... هم الذين قتلوه " وارتفعت الأصوات:

من... من هم؟ كأنك....

كأني... ماذا؟

لا شيء.... تكلم

طرفة مات ب.....

ب... ب.... ماذا. قل!

لم يكن التاجر مغفلاً، وكذلك عمرو بن هند. لقد هجاهما.

ونسي أنه هجاهما. ظنهما ينسيان. اعتقد أنهما طيباً القلب، ولكن عمرو بن هند قرر التخلص منه. وأما التاجر فلم ينس تلك النظرات التي رآها في عيني طرفة يوم زاره في بيته.. أدركت هذا، وحين قرأ لي الطفل الرسالة التي أرسلها معي عمرو بن هند لم يصدق طرفة أننا ذاهبان إلى حتفنا، وواصل طريقه إلى البحرين.

نابلس ١٩٧٩.

ونشرت في جريدة " الفجر "،

وأجري عليها بعض التغييرات